

انوار الساعات

البحث عن الذات قصة حياتي



انوار الساعات

البحث عن الذات

البحث عن الذات

قصة حياتي

أن أنور السادات فلاح مثلاً وترى على صفحات النيل حيث شهد
الإسماعيل مولد الإيمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان .
إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ .. هكذا شاء القدر

فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . ولذلك فانا أروي القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية
مصر العربية ... بل كعسكري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
منذ بدايتها إلى الآن .

وحياتي مثل قصة حياة أي منا . ليست في الواقع إلا رحلة
تبحث عن الذات

فكل خطوة خطوها عبر الزمن إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والخير والسلام .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسى منذ الطفولة . والآن وأنا أنظر
إلى ما دراما حياتي وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . هل أستطيع أن أرى صوري لنفسى وقد التفت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القوس في قريني ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الأماكن المعروفة عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه

السادات

الطبعة الأولى إبريل ١٩٧٨

الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٧٨

الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٩

هذا الكتاب نشر باللغات التالية :

الإنجليزية - الألمانية - الفرنسية - البرتغالية - السويدية - الهولندية - الإيطالية -
الروسية - العبرية - القبلية - الدانماركية - الأسانية - اليابانية .
كما نشرت أجزاء وفصول من الكتاب في الصحف والمجلات التالية :

الأهرام

مجلة النجم الأمريكية

باري مانش الفرنسية

بانوراما الإيطالية

لاريوبليك الإيطالية

لاويرر البريطانية

نادي الكتاب (كتاب الشهر) أمريكا

يونيوست أمريكا

مجلة دير شبيغل الألمانية

Time Magazine

Paris Match

Panorama

La Republica

The Observer

Book Club

Book Digest

Der Spiegel

الثقافة السائدة

البحث عن الذات قصة حياتي

المكتبة المصرية الحديثة

المستطير : المخطوطات المصرية القديمة
٢ شارع شبراخيت - حي الخياط - القاهرة - ١١٥١٧
٢ شارع شبراخيت - حي الخياط - القاهرة - ١١٥١٧

طبعة خاصة

مناسبة العيد التاسع لثورة ١٥ مايو وقد ساهم السيد الرئيس بحالب من
التكلفة الفعلية بالإضافة إلى تنازله عن حقوق التأليف لهذه الطبعة .

من أجل السلام

جميع حقوق التأليف المادية المترتبة على نشر هذا الكتاب أو استعمال أجزاء منه
محفوظة لحسب ونظير قريباً من أبو الكرم .

الناشر : أحمد يحيى
٢ ش لريف - محارة القواء - القاهرة
تليفون ٧٤٤١٢٧ - ٨٠١٠٨٠

البحث عن الذات

قصة حياتي

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترقى على عفاف النيل حيث شهد
الإنسان مولد الرومان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان
إلى قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ هكذا شاء القدر

فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . ولذلك فأنا أروي القصة كاملة لا كريس جمهورية
مصر العربية . بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضواً
منذ بدايتي إلى الآن

وحياتي . مثل قصة حياة أي منا . ليست في الواقع إلا رحلة
بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسى منذ الطفولة . والآن وأنا أنظر
إلى بانوراما حياتي وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . هل أستطيع أن أرى صورةى لنفسى وقد التفت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن في قريني ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمري ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليواجهه

السادات

من ميت أبو الكوم إلى سجن الأجانب

العمل وصل . . . يعلن المبادئ في أزقة وساحات القرية . . . وتهرع جلدق وأنا
أمسك بيدها وأسير إلى جوارها نحو الرعة حيث رست مركب العمل القادمة إلى
(كثر زرقان) المجاورة لنا . . .

ليس الطريق ضيقاً . . . ولكن كل خطوة نخطوها تملأ قلبي فرحاً وقبحاً . . .
قال رجال على طول الطريق تنفخ نوبة بلدى - هذه المرأة التي لا تعرف
القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أرى الجميع يلتجئون إليها لتحل مشاكلهم
ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بصرية وأغشاب الطب العربي القديم التي
لم يكن في قريتنا أو في القرى المجاورة من يشنها مثلها . . .

ونشترى زلعة العمل الأسود ونعود إلى دارنا . . . أسير خلف جلدق صيا
أسمر ضئيل الجسم حافي القدمين يرتدى جلباباً ناعم قميص أبيض من البفتة . . .
لا تفارق عينيه زلعة العمل . . . ذلك الكنز الذي استطعنا الحصول عليه أخيراً . . .
كم كان شيئاً عندما نخططه باللبن الرايب (الربادى) . . .

وكم كان يسعدنى كما لا يسعدنى أى شيء آخر . . .

كل شيء في القرية كان في الحقيقة مصدر سعادة لي لا تمنأ لها سعادة
أخرى . . .

عندما تخرج لشترى الجزر لا من بائع الجزر . . . بل من الأرض نفسها . . .
عندما أصعب بقصة في محسى القرن وهم يجيئون العيش ثم أعود أحمر النهار فأخرج
البصلة وأكلها . . .

وحينما كنت ألعب مع أقراني في القرية في ليالى القمر أو لسهر على المصطبة
نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لا فاصل بيننا . . .

وشروق الشمس .. عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفنية والرجال أصحاب
الدواب والبهائم في موكب خروج الفلاحين للعمل وسط خضرة لا يحدها البصر
ويسطر الأرض التي تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شيء كان يسعدني في ميت أبو الكوم قريتي الوديعه القابعة في أحضان
دلتا النيل .. حتى برودة الماء في الشتاء عندما كنت أخرج في الفجر لأن التربة
قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً هي (التوبة) أو نصيب
قريتنا من الري .. ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمراً ضرورياً
فلنحس كل يوم في أرض واحد منا نرويا بظهوره أو بظهور غيره لا يهم ..
المهم أنه بالنهاه النسوية تكون أرض القرية كلها قد ارتوت ..

هذا العمل الجماعي مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو
فائدة لي جعلني أشعر أنني لا أنتهي إلى أسرى الصغيرة في دارنا أو أسرى الكبيرة
في قريتنا .. بل إلى شيء أكبر وأهم هو الأرض ..

ولذلك ففي رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذناً
بعشاء شيء ينشئ بعده اليوم في القرية .. والمدهو ينجم على الجميع والسلام
يعمر قلوبنا .. كنت أأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفي من الحب
والصداقة يربطني بكل ما حولي ..

فهذه الشجرة الوارقة من صنع الله .. أرادها أن تكون فكانت .. وهذا الزرع
البائع الخصرة قد زرعتنا حياته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان .. وهذه
الأرض التي أمشي فوقها .. ومياه التربة تنساب بين ضفتيها .. كل شيء حولي
من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه .. وكذلك أنا ..

الشجرة والحية والسمرة كلهن إذن زميلاتي في الكون .. ألسنا جميعاً من
نبت الأرض وبدونها لا نكون ؟

والأرض قوية صلبة .. وكل من ينسئ إليها لا بد أن يكون مثلها .. وإذا
كانت هذه الحواطر تمر برأسي الصغير كنت أستعيد قول جدتي :

« لا شيء يساوي أنك ابن الأرض .. فالأرض هي الخلود لأن الله أودعها
كل مرة .. »

كم كنت أحب هذه السيدة .. كانت شخصية في غاية القوة بالإضافة إلى
الحكمة .. حكمة الفطرة .. والتجربة .. والحياة .. وطوال فترة نشأتي
في القرية كانت هي رأس العائلة ، فقد كان والدي يعمل مع الجيش في
السودان .. وكانت هي ترعانا وتخرج وراء الأنصار كأى رجل تتعهد المدانين
والنصف التي اقتناها والدي ..

أم الأفتدى .. هكذا كانوا يطلقون عليها في القرية .. ولهذا قصة ..
كان منتهى أمل القروى عندما أن يدخل الأزهر .. ولكن جدي الذي كان
يعرف الكتابة والقراءة وهو أمر نادر في وقته .. أراد أن يشق لأبي طريقاً آخر ..
فأدخله التعليم العام حيث حصل على الشهادة الابتدائية .. وكانت في ذلك الوقت
تعتبر مؤملاً هاماً .. فالاحتلال البريطاني كان في أول مراحله .. وجميع المواد
كانت تدرس باللغة الإنجليزية ..

كان والدي أول من حصل على الشهادة الابتدائية في قريتنا .. وللملك رغم
أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفتدى
وأولاد الأفتدى يعرف كل إنسان أنه والدي وأبنائه ..

ويبدو أن جدتي أرادت لي أن أسير في نفس الطريق الذي سار فيه والدي فأدخلتني
كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتني
إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور مطرانه هو نفس
مطران دير وادي النطرون ..

لم تكن المدرسة تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلو واحد ورغم أنني لم أستر
بها طويلاً إلا أنني ما زلت أذكر بوضوح ميو (مينسا) المدرس الذي كان
يعلمنا كل شيء والذي كنا نخشاه ونحبه في نفس الوقت .. وما زالت ترون في
أذني دقات الجرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسي فيدق معها قلبي رهبة
واحتراماً للعلم ..

أما كتاب القرية فما زلت أراء بعين الخيال وكأني فارقه بالأمس ..
العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذي شيعت جنازته منذ فترة

غير بعيدة . . . وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لي أبواب المعرفة والإيمان . . .

وأقرا في الكتاب وأنا أجلس بينهم على الأرض أحمل اللوح (الصفحة) والقلم البسط . . . كل عذقي في تلقى العلم . . . وجيب جلابيني الفضفاض الذي كنت أحشوه في الصباح بالبحن الناشف المخلوط بكسر الخبز التمه حبة بعد حبة أثناء الدروس وما بينها . . .

كان إقبالي على العلم يزايد يوماً بعد يوم ولكنه لم يشغلني يوماً عن القرية . . . كانت حياتي بها بهجة تتلوها بهجة . . . فكل يوم يأتي بشيء جديد . . . موسم الزرع . . . موسم الري . . . موسم حصاد القمح . . . الاحتفال بموسم الحصاد . . . وأفراح القرية وصوائف الكتافة التي كنا نلهمها في ليلهم . . . وموسم حصاد القطن الذي كان يأتي دائماً مع البلع . . . وكيف كنت أعترف القطن وأضعه في عبي ثم أهرع إلى بائعة البلع وأعطيها فتعطيني ما يقابله من البلع . . .

وعندما كنت آخذ اليانم إلى التربة لنشرب . . . أو أجلس على النورج للدرس القمح . . . أو أشارك مع غيري من الصبية في جمع القطن . كنت أحس في كل مرة أنني أقبل هذا لأول مرة . . . فقد كانت حياتي بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات . . . وكانت ساقية تدور على بحر كل ما به دائماً جديد . . .

هذا الإحساس بأن كل شيء أفعله أو أراه جديد لم يفارقني أبداً طوال فترة نشأتي بالقرية . . . وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتي . . .

حتى القصص التي كانت تحكيها لي أي أحياناً وجدني أحياناً أخرى كل ليلة . . . كنت في كل مرة أستمع بها وكأنها جديدة وكأنني لم أسمعها من قبل مع أنها هي نفس القصص لم تتغير . . .

ولم تكن هذه القصص حوادث الشاطر أو بطولات أبو زيد اللال . . . بل كانت أقرب إلينا والصدق بحياتنا من تلك الأساطير البعيدة . . .

كانت إحدى هذه القصص تروي كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم . . . لم أكن أعرف في ذلك الوقت من هو مصطفى كامل

وأنه مات فعلاً في ريعان شبابه ولكنني عرفت لأول مرة أن هناك قوماً استهم الإنجليز . . . وأنهم ليسوا متا . . . وأنهم أشرار لأنهم يصنعون اسم حاس . . . وكانت جدتي تحكي لنا أيضاً موال أدهم الشرفاوي وبطلانته وكفاحه ودهاه في محاربة الإنجليز والسلطة . . .

ولكن لعل لما ترك في نفسي أثراً عميقاً موال زهران بطل دنشواي . . . وأنا أستمع إليه من أي وقد اعتليت سطح غرن لنافه وإن جاني الأرب وإحوتى الصفار وقد استغرقوا جميعاً في النوم أما أنا فكنت بين ليقطة وانام . . .

كان هذا الموال يستهويني كل مرة أستمع إليه . . . فدنشواي قرية لا تبعد عن قربتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات . . . والموال يحكي كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام في دنشواي أطلقوا عليها الرصاص . . .

وطاشت طلقة أحرقت جرننا من أبراج القمح . . . ونجم الفلاحون قاطن عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجرى . . . جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكرى الإنجليزى . . . وفي الحال قبضوا على الأهالي . . . وشكلت محكمة عسكرية في القرية . . . وعقدت المشاق قبل صدور الأحكام التي قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر . . .

وكان زهران بطل المعركة التي قامت مع الإنجليز وكان أول من حكوا بشنقه . . . ويحكي الموال عن شجاعة زهران وصموده في المعركة وكيف أنه تقدم من المشتقة مرفوع الرأس فخوراً مزهوا بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم . . .

كنت أستمع إلى الموال ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة - كما قلت - ولعل هذا ما جعل عفتي الباطن يحزن القصة . . . وأطلق العنان لخيالي فكيف رأيت زهران وعشت بطولته في الصحور وفي المنام . . . وكنت أتمنى لو كنت زهران . . .

وهكذا أدركت من فوق سطح القرن في دارنا بالقرية أن هناك خطأ مساً في حياتنا . . . وقبل أن أرى الإنجليز . . . وأنا ما زلت داخل قريتي . . . تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا . . .

صلورنا من إحساس بالخوف والرهبة . . فجرد الإقتراب من أى شيء يخص الملك كان معناه الهلاك لى ولعائلتى ولأى إنسان .

لم أكن أعرف فى ذلك الوقت الحق أنى سأشارك وزملاء لى فى تغيير وجه التاريخ . . وأنى سوف أجتاز يوماً ما هذا السور الرهيب . . وأجلس فى نفس المقعد الذى كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعده فاروق . .

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيرى وستة أولى وثانية ابتدائى . . وأذكر أنى فى تلك المرحلة كنت متفوقاً فى التعليم فكتبت أتناوب الأولوية على الفصل مع الدكتور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمه الله . .

بعد السنة الثانية انتقلت إلى مدرسة السلطان حسين فى أول مصر الجديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية . . وبعدها التحقت أنا وأخى الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية . .

كان ذلك فى سنة ١٩٣٠ . . وكان القانون يقضى بأن يدخل أحدنا مجاناً والآخر بمصاريف ولكن رفض طلبنا . . فاضطر والدى إلى دفع المصاريف لى ولأخى . . كان القسط الأول ستة عشر جنيهاً . . هى كل مرتب والدى . . أعطاه لى فدفعته للمدرسة . . ولما حل ميعاد القسط الثانى أخذه أخى طلعت من والدى ولكن بدلاً من أن يدفعه للمدرسة هرب به إلى حيث لا نعرف وانفقته إلى آخره ثم عاد ليعلم أنه لا يرغب الاستمرار فى التعليم . .

ربما كانت هذه مشيئة القدر . . فبدون إحجام أخى عن التعليم كيف كان سيتسنى لوالدى بدخله المخلود الإنفاق على تعليمنا نحن الإثنين . . أغلب الظن أنه كان سيضطر إلى إيقاف تعليمى . . وخاصة أن طلعت هو أخى الأكبر . .

فى المدرسة الثانوية فتحت عينى لأول مرة على أهل المدينة وعرفت معنى الطبقة والنسوارى . . فى المدرسة كان معى ابن وزير الحربية وابن وكيل وزارة المعارف . . وكان كل منهما ينتقل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخرة (كونييل) كما كنا نسميها فى القسرية . . منظر مثير

ولكن لم يكن هذا كل ما تعلمته فى ميث أبو الكرم فقد تعلمت مابقى بعد ذلك معى طول العمر وهو أنى أيتها ذهبت وفى أى مكان كنت فسوف أعرف دائماً أين أنا . . لن أضل الطريق أبداً . . لأنى أعرف أن جذورى هناك حبة متأصلة فى أرض قريش التى انتهت كما تليت الرزق والشجر

هكذا قضيت السنوات الأولى من حياتى فى قريش الواعدة إذ أن كان يوم وجدت نفسى فيه أنقل فجأة مع أسرى إلى القاهرة لأن والدى - كما قالوا لى - قد عاد من السودان .

كم كان عمرى حينذاك ؟ لم أكن أعرف . . عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث حياتى كانت تسير جنىاً إلى جنب مع أحداث التاريخ .

هكذا - كما يبدو شاء القدر

٢

جئت إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٥ فى أعقاب مقتل السردار الإنجليزي سبرلى هناك قائد الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤ . . فقد كان من أهم العقوبات التى وقعها إنجلترا على مصر أن يعود الجيش المصرى من السودان . . فعاد وعاد معه والدى

كنا نساكن فى بيت صغير يكوبرى الثنية وكان على أن أكمل تعليمى العام الذى بدأته بمدرسة طوخ فاختر لى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت بمدرسة أهلية ومصاريفها ثابت دخله

وبالفعل أخذت أوراق وذهبت إلى المدرسة لألتحق بها . . عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التى تقدمت بها عرفت أنى ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

كانت المدرسة فى الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيراً على الأقدام . وفى الطريق كنت أمر بسرارى الثقة . . أحد قصور الملك فؤاد فى ذلك الوقت .

ومازالت أذكر كيف كنت وبعض أقرانى فى المدرسة نلتكاً حول سور حديقة السراى فى الربيع لننتظف بعض ثمار الشمس . . رغم ما كان يتلجج فى

المحدود بعسول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولداً وبناتاً . . . ولذلك قرعهم أننا كنا نعيش في القاهرة كان بمنزلة قرن تغير فيه العيش . . . إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة . . . كان أمراً لا طاقة لنا به . . .

وكان مصروف يدي مليمين في اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشتري كوباً من الشاي بالبن وأشربه وأنا أحس أني أسعد إنسان في العالم . . . في حين كنت أرى زملائي من حولى يشتررون أفخر أنواع الشكولاته والخلوى من (كاتنين) المدرسة . . . وكان لدى الواحد منهم أكثر من حبة قانخرة يختار من بينها ما يروق له فهو دائماً أثيق متجدد . . . أما أنا فكانت عندي حلقة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكني لا أملك تغييرها أو حتى تحديدها . . .

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتني أحس أنني أقل من زملائي في شيء بل وفي تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بيني وبينهم . . .

أذكر فقط أنني عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية . . . وكان لهذه الصورة أهمية خاصة في نظر أي طالب . . . فشهادة التوجيهية هي بطبيعة الحال نقطة تحول في حياته . . . ولذلك ذهبت إلى والدي وطلبت منه حلقة جديدة أنصوّر بها هذه الصورة التاريخية . . . وأدرك والدي أهمية مطلبي ولكنه قال . . . « أمهلني يوماً أو اثنين لأدبر المبلغ » . . . وفي اليوم الثالث جاء إلى وهو باسم الوجه وقال « وجدت الحل . . . اذهب إلى وكالة البيع . . . هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذي أريدك أن تذهب إليه . . . » وأعطاني مائة وخمسين قرشاً . . .

لم يكن حجم الدكان يزيد على متر ونصف في مترين . . . وفي واجهة الدكان طاولة بطوله تقريبا يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أبواب القماش وقد رصت على عدة رفوف . . . وفي الزاوية ماكينته خياطة . . . انتظت القماش وتناولته مني الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلى ماكينته . . . وبعد ساعة ونصف ناولني حلتي الجديدة . . .

للغاية ولكنه لم يترك في نفسي أي أثر للغيرة أو الحقد . . . وطبعاً زملائي في الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى بكثير ولكن هذا لم يصيبني بأي عقدة . . . كان لي أصدقاء كثيرون من أولاد الدوات وكانوا يعيشون في بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكني لا أذكر أنني تطلعت يوماً إلى ما هم فيه . . . إطلاقاً . . . ففي البلد عندنا دارنا وبها نحنا وبالجميع يعرفون أنني ابن الأندى - وقبل كل شيء - عندنا الأرض التي اتنى إليها . . . حلبة . . . دائمة . . . لا تزول . . . تماماً مثل قيم القرية التي لا يعترفها أهل المدينة . . .

في الحارة التي كنا نعيش فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشتري علبه كبريت من البقال . . . قلت « أنا عاوز علبه كسريت » . . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي وفجأة انفجر الزبائن بالضحك . . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لي « ضروري تقول كبريت . . . صمت عل » كسريت . . . واستمرت سخريتهم مني . . . وفي مواجهة هذه السخرية جامتي شعور بأنني أقوى منهم . . . فمن هم لكي يسخروا مني ؟

إن أفضلهم في نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حباً ونسباً . . . أما نحن في القرية فلا نغير مثل هذه الأشياء أي اهتمام . . . الرجل الذي على خلق عندنا قيمة علياً في ذاته رغم ما قد يكون عليه من قصر مدقع . . . وفي القرية عندنا شيء اسمه العيب . . . ونحن ينتهي بعضنا إلى البعض بالتعاضد والتعاون والحب . . . أما هم في المدينة فيتنسبون إلى ما هم وسلطانهم ويؤمنهم الكبيرة القانخرة وكلها عرض زائل فاقصد القيمة . . .

وهكذا كانت مجموعة القيم التي نشأت عليا في القرية ولم أجدها مثلاً في المدينة منذ أني في تلك المرحلة المبكرة من حياتي فقد عمقت إحساسى بالتضيق الداخلى الذي لم يفارقني لحظة منذ أن نشأت والذي هو في الحقيقة - كما أدركت بمرور الأيام - قوة داخلية لا تستند إلى أي مصدر مادي . . . بل بالعكس . . . فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلى أقوى ما يكون عندما تنعدم أو تكاد المصادر المادية الخارجية . . .

في مرحلة التعليم الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدى يدخله

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائي في المدرسة لهذه المناسبة ولكنني كنت سعيداً بها كل السعادة . . . فهي تني بالفرض ولا يهمهم على الإطلاق إذا كانت خشنة الملمس أو رخيصة المظهر . . . ثم بها أو بدونها أنا هو أنا . . . ذلك المروى الصغير الذي يرى في فلاحه الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها على أهل المدينة الذين يعيشون على التجارة . . .

هكذا كانت حياتي طوال مدة تعليمي بالقاهرة سلسلة من المقارنات أو المقارقات المستمرة بين المدينة والقرية . . . ولكنها لم تكن في أي وقت في صف المدينة بأي حال من الأحوال . . . على العكس أشياء كثيرة أزعجتني في القاهرة . مثلاً منظر (الكرنسابل) الإنجليزي على المونوسكيل يحجب الشوارع ليل نهار وبدون انقطاع كالخيتون . . . بوجهه الذي في لون الطماطم فقط . . . بليد . . . وعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح دائماً كفم الأبله . . . ورأسه المنضخه يغطيها طربوش طويل قرمزي يصل إلى أذنيه . . .

كان الجميع يخشونه . . . أما أنا فكنت أكره النظر إليه . . . وأنساءل في نفسي . . . ما الذي أتى بهذا الغريب القبيح المنظر إلى المدينة ؟

لورأتني إلى قريتنا لما استطاع أن يسير خطوة واحدة . . . ولكنه لم ولن يأتي . . . لأنه لا يمرؤ . . .

ووايور الزلط الذي في كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائي . . . أسرع الخطي فيسر خطاه . . . أجرى فيجرى خلق . . . ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسمى لينوسني تحت عجلاته الحديدية الضخمة . . . ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفني . . . ؟ ولم تمنعني هذه الأمثلة في شيء . . . فكلما نظرت خلق رأيت بلاحتني فيزداد دُعري . . . ولم يكن لينوسني من كل مرة إلا إذا انعطفت في حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقى للريح بحيث لا أراه ولا يراني . . . فقد كان واضحاً أنه رغم جبروته ورغم ضآلتي إلا أنني كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما في حياتي . . . كان ذلك يوماً عصيباً . . . فقد شاهدت قطار مسكة حديد قادماً من أقصى الشاشة ومندهماً بسرعة مذهلة نحوى . . . ماذا أفعل ؟ أغمضت عيني ورجعت يمشي إلى الوراء . . . ولكن صوت القطار ما زال

يدوى في أذني . . . فقيم الانتظار ؟ قمت لتوى من مقعدى وبسرعة رحت اخترق الصفوف مهرولاً في طلب النجاة . . . ولقت نظري أن الناس كلها قابضة في مقاعدها وكأن شيئاً لم يحدث . . . هذا شأنهم قلت في نفسي . . . ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف - وعيناي قد تسمرتا على الشاشة - لم أجد القطار . . . وجدت بدلاً منه رجلاً وامرأة يتناولان الطعام في مقهى صغير فاخترقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعدى . . . أرقب أحداث الفيلم في هدوء كما يفعل الآخرون . . .

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيت . . . وكان من نتيجة انبهارى أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . . . وتسمرت في مقعدى لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى .

كنت في ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلى السنة الثالثة . . . ولكن بمجموع صغير فطلبوا مني أن أعيد السنة الثانية حفاظاً على النتيجة العامة للمدرسة في شهادة الكفاءة وهي شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة . . . رفضت . . . وبحيث أوراقي من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلى مدرسة أهلية هي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الثالثة . . . وحصلت على شهادة الكفاءة في نفس السنة .

وبإرادة التحدي - التي لم أكن بعد قد اكتشفها في نفسي في ذلك الوقت المبكر - أخذت أوراقي مرة أخرى إلى مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن في الإمتحان في السنة الرابعة إلى الخامسة وهي نهاية مرحلة التعليم الثانوي تكرر ما حدث لي عندما انتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة فسحبت أوراقي من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلى مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الخامسة . . . وتقدمت في نهاية العام للحصول على شهادة التوجيهية . . . ونجحت في جميع المواد ولكنني رسبت في المجموع .

كانت هذه نقطة تحول . . . فقد أدركت أن رسوبي إنما كان دليلاً على عدم رضا الله عني وعقاباً لي منه عز وجل . . . لاستهتاري ربما . . . وربما للثقة الزائدة عن الحد في نفسي . . . لم يكن أمامي من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ على نفسي كما

فعلت دائماً . . . وهذا الإحساس الغامض بالذنب والتوبة معاً نقلت أوراقى إلى مدرسة وفى المعارف بشبرا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

٣

قد يوحى ما حكيت عن إحساسى بالتوبة أنى أثناء تعليمى تخلبت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق . . . فبمجرد أن تنتهى الدراسة كنت أهرع إلى قريتى وأرغى بين أحضانها . . . مجتمعى المثلث الذى كنت أجد فيه نفسى . . . بل وأجد فيه الوطن بأجمعه فلفترة طويلة كانت مصر عندى هى ميث أبو الكوم أما المفهوم الشمولى للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوى .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحساسى بشىء أفتقده . . . وبأن هناك وضعاً خاطئاً يجب إصلاحه وأنا أستمع إلى موال زهران ليلة بعد ليلة على سطح تترن فى دارنا ببيت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطاً فى وجدانى بمصطفى كامل وبأدهم الشرقاوى فكلهم رجل واحد . . . أو هكذا بدوا لى فى تخديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شفقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المناخة لقريتنا ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك وصالت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم . . . وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلاً أعلى فى العالم الإسلامى يتردد لاسمه على كل لسان فقد قام ليحرر بلاده . . . ويعيد بناءها . . . وكان والذى شديد الإعجاب به كما كان معجبا بنابليون الذى حدثنى عنه طويلاً وذكر لى فيها ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز فى سانت هيلانة تعمد الحاكم الإنجليزى للجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسى الأسير إلى أن يخفى قامته فى كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه . . . ولكن نابليون لم يتمكن من غرضه فكان يجلس على الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس .

طعماً هذه لم تكن الإحراقة . . . ولكنها تمكس صورة البطل فى وجدان الشعب المصرى وخاصة إذا كان هذا البطل خصماً قوياً من خصوم الإنجليز الذين كما

نعانى من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بيننا بكل الوسائل التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت .

من هنا كان إعجابى بسعد زعزلول بدليل أنى كنت أحرص على شارب الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته السحاس باشا عندما ينتقل من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت الأمة وعندما يعود . . . فقد كنت أرى فى السحاس وفى وفده فى ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعاً ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعيى السياسى قد نضج أو حتى تشكل فى هذه الفترة المبكرة من حياتى . . . كنت أشارك طعماً فى الأحاسيس الوطنية التى كانت تتلح فى صدر كل مصرى فأحرص فى المظاهرات . . . وأساهم فى تكبير الصيحات وحرق الرموايات وفى اهتاف بسقوط صدى باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ . . . دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكنى أستطيع أن أقول إنه لى أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل فى نفسى شعور دفين بالكراهة للمعتدين وبالحب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلاده . . . أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا . . . الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه وأخذت به واثقاً . . . على وجدانى فما كان منى إلا أن قننته . . . خنعت ملابسى وغطيت عني . . . سبازار وصنعت مغزلاً واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن . . . والذى من إقاعى بالعدول عما أنا فيه . . . فلى يمينى ما أفضنه أو . . . مسروراً . . . بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان . . . قارس البرودة .

وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص . . . الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها كنت فى ذلك الوقت . . . فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر . . . القاهرة من بيت أبو الكوم . . . كان عمرى فى ذلك الوقت . . . وانصرفوا عني .

كانت هذه فى أعقاب إرماصات تنقائية . . .

من بين هذه الإرهاصات التي كانت في الحقيقة مجموعة معادلات وتدخلات مع الأحداث - بقى لي شيء واحد هو حبي لكamal أنا تورك . . فن أنا تورك استوتني . . . عسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتي تسير جسا إلى جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت . . فقد انتهت من إتمام دراستي الثانوية سنة ١٩٣٦ وفي نفس السنة كان الخامس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) . . وبمقتضى هذه المعاهدة سمح هيئس المصري - - - ينسج . . وهكذا أصبح في الإمكان أن التحق بالكلية الحربية . . قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصري ضيق الرقعة ضئيل العالمة وكان دخول الكلية الحربية قاصراً على أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التي واكبت رغتي في دخول الكلية الحربية لم يكن التحاق بهذه الكلية - وهو منتهى أمل حينذاك - بالأمر السهل .

صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستمارة الدخول شرطان . . دخل الأب وثورته ثم الواسطة . . وفي كشف الهيئة كان بنادى رسمياً علينا . . فلان ابن فلان . . وواسطه فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدي موظفاً بالحكومة فهو على الأكل عنده دخل ثابت أما الواسطة فنأين لي جيا والدي كما سبق أن ذكرت - مجرد باشكاتب بالقسم الطبي - لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس اللجنة التي تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيرى ولا بد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل في ذلك الوقت . . فهو الذي عهد إليه الملك فراد بنظم قاروق في صدر شبابه القروسية . . هو إذن معلم الملك وإلى جانب هذا هو وكيل وزارة الحربية . . ثم إنه مزوج سيدة من العائلة المالكة . . باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع . . فكيف الوصول إليه ونحن لا نملك الوصول حتى إلى سكرتير وزير ؟

أخيراً اهتدى والدي ببساطته المعهودة إلى أنه أيام خدمته في السودان كان يعرف أحد الصولات .

وتصادف أن كان هذا الصول في خدمة إبراهيم باشا فرتب لي ولوالدي - لا أعرف كيف - فرصة للقاء إبراهيم باشا . . وذات صباح توجهت مع والدي إلى قصر الباشا في حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية في ذلك الوقت . دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا في الأنتريه . . هكذا كان الترتيب بحيث لا بد أن يمر بنا الباشا في طريقه إلى الخروح فستلفت نظره وبأنا عما نريد . . وفعلنا نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس في أذنه ببعض الكلمات . . التفت بعدها إبراهيم باشا إلى والدي وقال له بكل عناية :

آه . . آه . . أنت باشكاتب القسم الطبي . . ودا الولد ابنك التي . . طيب . . طيب . . ومضى مسرعاً نحو الباب . . وأني يسير خلفه وهو يتمتم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول .

تجربة لم تهرح وجداني أبداً ولا أظن أني سأناسها مدى الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو التقي بأحد أفراد هذه الطقة . . وتشاء الصدق أن التقي بإبراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته في مكبي وأنا رئيس مجلس الأمة . . كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وفرض الحراسة وما شابه ذلك . . فساعدته في حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بقلنا الأول في منزله ولكن قلتي له :

إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك في نفسي أي أثر بالنسبة لك . . أرجو أن تعتبر أني في أي وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك . . فلما أدين لك . . لا بالنسبة لقلنا في قصرك بحدائق القبة . . بل لأبك كنت رئيس لجنة القبة . . أدخلني الكلية الحربية كما أدخلت جمال عبد الناصر وجميع ضباط مجلس الثورة . . فلولاك ما قامت الثورة . . .

مناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن رجلاً من

هدف من دخول الكلية الحربية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدوني على الالتحاق بالكلية .

فبعد أن تم لقائنا مع إبراهيم باشا خيري في قصره كان لابد أن أجد الواسطة كما تنص استشارة القبول كما أسلفت . . لم يجد والذي أهدأ بدياً إليه إلا حكيماشي الجيش المصري الذي كان والذي يعمل معه وهو الإنجليزي اسمه الدكتور فينس باثريث . . واستحاب الرجل للطلب وكتب التزكية كما أوصى في كبير المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول والإنجليزى مثله .

وهكذا قلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين وعددهم إثنان وخمسون وذلك لأن واسطى كانت أقل الوساطات شأناً . . ففي ذلك الوقت كانت الوساطات تتسرح من الأمير محمد على ولي العهد إلى الباشوات والباشكوات من ذوي النفوذ .

ولكن بعد أن قلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان . . فقد كان حمدى باشا سفير مصر ووزير الحربية مع النحاس باشا في مونتريه لعقد معاهدة لإعفاء الإمبراطرات الأجنبية التي كانت تعنى الأجانب من الخضوع لقانون مصرى (وكان أمراً شاداً ومقززاً أن يرتكب الأجنبي الجناية في مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تعاقبه أو تلقى عليه القبض وإنما تملك ذلك سفارته فقط ويحاكم أو يعفى من المحاكمة بمقتضى تلك الإمبراطرات) أعود إلى تسعة فأقول إن وزير الحربية وهو في مونتريه لما أرسلوا له طلب التصديق على قبولها بالكلية الحربية كما ينص القانون أرسل برقية يطلب حصر ستة أماكن لبعض قمرائه . . فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكتب أنا طعماً أول المستعدين .

عاش بعد ذلك كثير . . فقد التحقت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق وكلية التجارة . . ثم عاد حمدى سفير مصر وألحق أقراره بالكلية . . وبعدها تدخل حكيماشي الجيش وكبير المعلمين الإنجليز . . وأخيراً وبعد أن قدمت الأمل تماماً . . فوحت ذات صباح بوالدق تطلب منى أن أتوجه فوراً إلى أبى في مفر

عنه لأخذه معه مصريف الكلية الحربية فقد قلت بها . . وكان قد مضى على دخول قمرائى في التدفئة ستة وعشرون يوماً كاملاً .

في كلية الحربية كان أثنائك مار . . مثل الأعلى . . فبدأت أقرأ عن الثورة التركية . . ورجعت أيضاً إلى تاريخ مصر لكن ليس إلى أبعد من حنة بالليون . . فقد كنت أركز على الاحتلال لبريطاني في سنة ١٨٨٢ والخديعة التي دخل بها الإخلاء مصر وما ترتب عليها من المأساة التي كما تعيشها .

مصطفى كامل كنت ما زلت أحبه ولكنى أخذت عنه أنه لم يلبح إلى القوة . . وكان يمانى أن الإخلاء لن يخرجوا إلا بالقوة .

ولكن هل كان الإنجليز هم المداون وحدهم ؟

ماذا عن العائلة المالكة وهي أجنبية ؟ وماذا عن الخديوى توفيق واستعراض

في مصر بعد هزيمة الجيش المصري بالخديعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المشلول الأول عما حدث ويحدث لما . . ففي حادث . . مثلا كان القاضي والحامي والبابا كنهم من المصريين .

ومع هذه التساؤلات تطرح نفسها على الواحدة بعد الأخرى . . بدأت . . تنفتح على الأوضاع شيئاً فشيئاً وبت أنظر يوم تخرجى من كلية . . الصبر حتى أستطيع أن أفعل شيئاً . . فقد كنت أؤخر بالعديد من . . لمصر ولكنها كانت كلها ما زالت حبيبة في صدرى لم تترجى .



تخرجت من الكلية الحربية في فبراير سنة ١٩٣٨ . . بدأت الطاقة المختزنة في عقلى الباطن منذ سنين في . .

فرصة قوة نعدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوى منه بكثير لأنه يملك أقوى الأسلحة ومضاهها وهو سلاح الرقص لكل ما يسعى إلى قهره وقهر أهله .
لم يفارقت طيف زهران بعد ذلك . . التفتت به كثيراً في الصحو وفي المنام . .
وفي كل مرة كنت أتخفى أن أكون زهران وأن تحكي الناس قصتي كما جعلوا من قصتي موقلاً تنغني به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعي يدور . . فعرفت مصطفى كامل ومن قبله عرابي ثم
البروت . . وسور حيد مرصع . . ولكن زهران ظل أقرب إلى قلبي أرى
نفسى فيه وأتخفى أن أفعل ما فعل ولكن بدلاً من أن يحكم على الإنجليز بالإعدام
أقول أنا ثورة تؤدي إلى هلاكهم وخلص البلاد من حكمهم .
إن سلاح الرقص كان وسيظل دائماً أقوى أسلحة أهل الأرض الطيبة التي أحبا
أكثر من أي شيء في الوجود . . وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه
وورث أسلافه ؟

كان إحاسي بالقوة الداخلية مازال بلازمني بطبيعة الحال ولكن كان يصاحبه
الآن إحاسي بقوة خارجية فقد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وكنت أومن
بأنه لن يخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة .

فيم الانتظار إذن؟ لا بد من عمل تنظيم يهدف إلى ثورة تقوم بها القوات المسلحة . .
هذا هو طريق الخلاص . . ولا طريق غيره . . ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة
من فراغ ؟ لا بد من تهيئة النفوس وهذا لا يتأتى إلا بخلق وعي كامل على قدر
المنطاق بالأوضاع التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت .

قلت أبداً بوضعا نحن كضباط في الجيش المصري فأقرب الطرق إلى قلب
الإنسان ما يمس هو شخصياً ولذلك ركزت في أحاديثي مع زملائي الضباط على
وضعين لم يكن أحد يختلف على أنهما سيئان إلى الجيش وإلى حياتنا في القوات
المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية ومافها من سلطات مطلقة ثم جيل
كبار الضباط المصريين وانسباقهم الأعمى إلى ما يأمر به الإنجليز . .

كنا في ذلك الوقت في متعباد وكانت الاجتماعات تتم في حجرتي بميس
الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم . . شقة صغيرة تقريباً . .

إذ عند نقل إلى متعباد كانت حجرات صفار الضباط أمثال كلها مشغولة فأعطوني
هذه الحجرة . .

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاي وتسامر ، وفي أثناء السمر كنت
أعمل - دون تعمّد واضح - على تفتيح أعين زملائي على أوضاع البلد عامة
ووضع الإنجليز بصفة خاصة . .

كانت جلسانا تستغرق وقتاً طويلاً . . وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر
لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلى إدراك زملائي الضباط لأوضاع البلد
وتعمق إحساسهم بخطئها . . أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية . . وكنت أنا أبدأ
إلى التاريخ أنتق من الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين
الحاضر الذي نعيشه بمشاكله ومآسيه . . ولكني كنت . . عن عمد . .
أتعاشي لإقتراح الحلول . . وكان هذا الأسلوب في الإثارة والإقناع أثره الفعال
فقد كنت أرى الزملاء ينصتون إليّ في صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون .
ولما كانت مداركهم تفتح شيئاً فشيئاً كنت أرى بعضهم يثير قضايا جديدة
ويقبلون الأمور على وجه بعد وجه والحماس يملأ صدورهم والألم أحياناً
يعتصر قلوبهم . . وكانت كل القضايا تدور دائماً حول مصر وخلاص مصر مما تعانيه
حتى أنهم أطلقوا على حجرتي الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) .

طبعاً كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر . . وكنت أشاركهم
في المزاح كما أشاركهم في الجدل . . فقد كنا جميعاً شباباً لا ينجاور أكبراً سناً
العشرين من عمره . . هذا إلى جانب أن هذه كانت الطريقة التي . . هم
يكن من المصلحة في شيء أن أنعزل عن إخواني أو أن أشعرهم أني أحسب
عنهم . .

المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأنني أختلف عن زملائي كانت عندما راونا
عزيز باشا المصري بصفته المفتش العام للجيش المصري وأخذنا معه لزيارة سر
المحرق الذي لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً في الوجه القبلي . .

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائم لسيرة من الثقافة . . هم
أساساً عندما دحسوا الدبر اعرق . . ولم يكن أحد ما قد رآه من قس . . وحدا

القسيس أو الكاهن الصغير يعيش في صومعة .. وهي قاعة ليست لما شاييك فيما عدا فتحة صغيرة في الحائط لا يزيد قطرها على البوصتين .. وينام على مصطبة من الطين .. ودهش الجميع من هذا الأسلوب في الحياة وأشفقوا على القسيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجده في هذه الحياة أى تقشف .. فقد ولدت في صومعة مشابهة وإن كما في القرية نسميها القاعة .. أما المصطبة فهي نفس المصطبة التي قضيت فوقها أيام وليالي حياتي في ميت أبو الكوم .

توكت زيارة عزيز المصري أثراً عميقاً في نفسي فقد شاهدت بعيني هذه الشخصية الأسطورية التي شاركت في الثورة التركية مع أناتورك كما كان أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي وجمعية تحرير الأمة العربية .. هذا إلى جانب تاريخه الطويل المليء بالكفاح .. وولمه بالثقافة والدعوة إليها ..

والثقافة كانت دائماً تسويى وبوجه خاص في تلك المرحلة المبكرة في حياتي مجبياً إن جيب مع خفض لبسي لندن مباشرة بعد تخرجي من الكلية الحربية التزمت بخط ثقافي لم يكن في نظري يقل أهمية عن الخط السياسي لأنه في الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطاني بالقاهرة للحصول على البكالوريوس في الآداب من جامعة لندن .. وكنت مولماً بالقراءة وأنصت للكذب من على سور الأزبكية كلما ذهبت إلى القاهرة أما وأنا في أودنم فكانت أكذب .. شريف .. وكنت في صلب قوائم "كبت أنتي منها ما يروفتي فيرسلونها إلى الملازم ثان محمد أنور السادات .. أينما كنت .. في هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائي .. أذكر ونحن في متعباد كان يحلنا عصر كل خميس أنويس عسكري خاص إلى أسبوط لقضاء ساعات المساء بها .. وكان زملائي يذهبون إلى السينما أو أماكن اللهو الأخرى .. أما أنا فكانت أجلس في مقهى وسط ميدان قريب من محطة السكة الحديد أدخن النيشة وأقرأ الكذب التي تسوقها من القاهرة وأنا في غاية السعادة إلى أن يعود إخواني من هومهم ويعود بنا الأتويس جميعاً إلى المعسكر ..

كانت جلساتنا في حجرتي باليس تسع يوماً بعد يوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أني رأيت جمال عبد الناصر لأول مرة

في هذه الجلسات فقد لحق بها هو الآخر مع مكنته في منسأة .. وكان اضاعي عنه أنه شاب جاد لا يجيل إلى الخرج مثل غيره من زملاءه ولا يقبل أن يضاحكه أى إنسان لأنه كان يرى في هذا مساماً بكرامته مما جعل أغلب زملاءه يشعرون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتى لا يسيء فهمهم .. كان يصت إلى ما فلت باهتمام ولكنه لا ينكح إلا إلى القليل سدر وقد ومة وكنت نواظراً إلى المزيد من تعرف عيه .. ولكن كنت من موضع في بقم يبه وبين غيره من الناس حاجزاً من نصب اجنازه .. فقد كان معطوياً على نفسه بشكل يفت النظر ولذلك فكل ما قد بيضا .. في تلك مرحلة .. لم يخرج عن نطاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعد ..

استمرت الجلسات ولم ينقطع الكلام أو الحوار عن أوضاع مصر ومشاكلها ولكن كل هذا كان يدور في نطاق محدود .. وكنت أريد مجازاً توسع لتنفيد الخطوة التي وضعها لعمل السياسي عند تخرجي وكان هذا المجال الذي أنضبه هو القاهرة بطبيعة الحال .. ولكني كنت بعيداً عنها وأفضل كنت ما دمت في سلاح المشاة .

من هنا بدأت أضيق بالخدمة في هلمة سلاح إلى جانب ترمي بالبعثة البريطانية ويقائد محطتنا في متعباد الذي كنا نسميه النطنان عبد الحميد لقوته وبطشه الذي كان يحاول عن طريقه إخفاء جهله من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهة أخرى .. ولكن أين المفسر ؟

وأخيراً حانت الفرصة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارهم القيادة للحصول على فسرة إشارة بملوسة الإشارة بالمعادي قرب القاهرة كان ذلك في أواخر سنة ١٩٣٩ وكان معي في نفس سفرة عبد الحارثي وصل من بعد وصول سنة شهر وكان كذا الخ حار من

أنا في تدريب مع شمس ونصف وهي مدة عديدة بمفرده وعند لا متحول ثم قاموا لنا حفل تكريم في شمس بعودتي وحدتي .. يمكن عسى أني من في شمس سلاح لإشارة إلى شمس حديث في حبش .. فقد كان في ذلك وقت أنهم لأسسحة جميعاً ولأنه لدحوه من وسطة كبيرة مثل كل شيء آخر .. ومعهم كمنمة في حفل لودغ بدنة عن زملائي ..

الثلاثاء الذي كان يليه كل أسبوع بعد صلاة المغرب في مقر المركز بالخليصة الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفي كل مرة كان يصطحبني إلى مكتبه
حيث يجلسون به المرشد العام من خزانة وديوانه كذا يسمى
وما كانوا يحيطون به المرشد العام من خزانة وديوانه كذا يسمى
التفديس حتى أنهم في معاملتهم لي كادوا يقبلون الأرض بين يديّ لجرد أنه كان
يدعوني للجلوس معه في مكتبه . .

كان إيجاز - دون شك قوة لا يستهان بها ويكفي للتدليل على هذه القوة أنه
كان أثناء مناهج باحتمية فيلارنسة أن تسبح "أنا" أن يجعلها مقراً جديداً
مجموع تصريحي لاكتتاب وفي أقل من يوم غطى الاكتتاب واشتراها . .

بعد سبعمائة من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التي ألقاها على
جنودى يوم مولد النبي صاوري الفيلسوف شيخ سائما كان يعمل من مستوى
سبعمائة ذكية للغاية فهو في أحاديثه لا يتعرض لنسطة على الإصلاقي . .
وبعد سبعمائة من الإسلام محب ديناً ودنياً وكيف أنه صالح فروح كما أن
لا صلاح للحكم بلونه . .

وأكد هذه الظنون ما سبق أن دار بيني وبين الضابط العظيم لفرقي من
حديث حول الشيخ البنا . . فبعد محاضراته في الجنود يوم مولد النبي . . زارني
الضابط العظيم في حجرتي في ساعة متأخرة من الليل . .
فب . . حيراً . .

قال إنه إنما جاء ليقول لي كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد . . ثم دخل
في الموضوع مباشرة فأخبرني أن المخبرات قد علمت بزيارة الشيخ البنا . .
فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه في الواقع تنظيم سياسي ولذلك فهو
يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه . .

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله لي الضابط العظيم أن عند الشيخ البنا وتنظيم
الإخوان ضابطاً متقاعداً اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكري بالإخوان
قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط .

كان هذا ثوب تنبه لي . . ومع ذلك دأبت على حضور دروس الثلاثاء . .
ولكن لم يكن يعنني مظهر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام . . فأنا
لا أميل بضمي إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أنني
كنت قبل يد أي شيء أن مات وبعد ولا شيء كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت
بعد ذلك أن أذهب لثقائه قبل انتهاء الدرس فيصطحبني كعادته إلى مكتبه

كان دائماً في منتهى البساطة والحرص فهو يتلمس طريقته إلى قلبي في كل حوار
يدور بيننا أما الأسئلة التي يوجهها إلي فقد كان هدفه منها استكشاف نواياي
ومقاصدي . . وكنت أنا على وعي تام بما يحاول صنعه في إحدى اجتماعاتنا
قلت له . .

- اسمع يا شيخ حسن . . واضح أنك حريص أكثر من اللازم في الحديث
معي وأنا لا أرى داعياً لهذا . . بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكري هدفه
قب الأوضاع في البلد . .

باغت الرجل هذه المفاجأة . . فظفر إلى في دهشة ولم يعرف ماذا يقول . .
ربما كنت أحد رجال المخبرات . . وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو
أخرى . . وقطعت عليه صمته بقولي :

- نعم أنا أسعى إلى ثورة مسلحة . . ومعنى عدد كبير من الضباط من كل
أسلحة الجيش . . وحركتنا تسمى . . بدأ يسألني أسئلة محددة . . أي أسلحة الجيش
معكم ؟ وما مدى قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم
للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبت . . وفجأة طلب مني أن ننسق العمل معاً . . قلت له :

- لقد صار حدث بكل شيء . . وأحب أن أقول لك بعض صراحة .
نحن نصمم لا نجتمع ولا يعمل لحساب أي حزب أو هيئة وإنما نصنع مصر
ككل . . وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية
وأمن الرحيل على تلاميذ وفاء . . يكفي فقط أن سعدون .

ولم يضر بعد ذلك وقت ضوئى حتى كان قد جسد لحاب الإخوان عبد المعمر
عبد الزووف نرحل لكأنى بعدى في تنظيم الضباط الأحرار .

٥

كنت مفتوناً بشخصية عزيز المصرى منذ لقائنا في مقباد وكان معروفاً عنه
أنه يكره الإنجليز حتى أن سير مايلر لامبيون السفير البريطانى في ذلك الوقت
طلب من على ماهر قائده من مصه بالجيش ولكن على ماهر اكتفى باعطائه إجازة
مفتوحة .

كما بحاجة إلى الإفادة من خبرات هذا الخارب العظيم وإرشاداته .

هكذا أحت . فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يجمعنى به وكان ذلك في
سنة ١٩٤٠ وهى نفس السنة التى التفت فيها بالشيخ البنا .

واستجاب الرجل على الفور . . فطلب منى أن أتوجه إلى عيادة الدكتور
إبراهيم حسن بالبدة زينب . . وكان في ذلك الوقت وكيل الإخوان . . وأحجز
تذكرة كفى مريض عادى ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور
حسن بالمطلوب . . وفعلنا بمحرد أن دخلت على الدكتور حسن وقدمت
التذكرة . . فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا في انتظارى . .
حينئذ وذكرته بلقائنا في مقباد ثم بدأت أتكلم في شئون البلد وأحوال
الإنجليز وأحوالنا . . فن أنسى أبدأ هذا اللقاء الأول مع عزيز المصرى . . كان
متردداً في التحدث معى . . وصارحتى بأنه متشكك في أمرى . . وأنى ربما
كنت أحد رجال المخابرات أو أى شئ من هذا القبيل . . قلت له . . لو كان
الأمر كذلك لالتفت بك مباشرة ولكنى كما ترى أثبت إليك عن طريق الشيخ
حسن البنا وأطك تثق به . .

فلما اطمأن سألنى : ما سبب مجيئك وماذا تريد منى ؟

قلت : نحن ضباط في مرحلة تنظيم يهدف إلى طرد الإنجليز من مصر وتغيير
الأوضاع في مصر . . وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة ننتظم إليها جميعاً . . نرجو
أن تسمح لنا بأن نرجع إليك من أن لآخر لكي ترشدنا ونفيدنا بخبرتك ونجاربك . .

قال : أول درس أقوله لكم . . اعتمدوا على أنفسكم . . ولا تنتظروا أى
رائد . . المبادرة يجب أن تأتى منكم أنتم . . نابليون وصل لرتبة جنرال وكان
زعيماً وعمره سبعاً وعشرون سنة . . كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة .

قال : عال . . تعاونوا مع بعضكم البعض . . وهذا يكفى . .

ثم أخذ يشكو لى من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال
من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصايين وانتهى الأمر كل مرة إلى لا شئ . .
قلت له إننا جادون وإنه سيرى ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به
للمشورة وتبادل الرأى . .

قال : عظيم . . أول شئ كما قلت . . لا بد أن نعتمدوا على أنفسكم . .
ثانى شئ الثقافة . . لا بد أن تثقفوا أنفسكم . . والثقافة ليست بالشهادات . .
الثقافة بالقراءة . . اقرأوا في كل الاتجاهات وفي كل المجالات . . الشئ الثالث الذى
أوصيكم به هو أن تجعلوا تنظيمكم محكماً بحيث لا يتسرب إليه أى غريب
أو تنال منه أية دسيسة . . لقد عانيت الكثير في حياتى من الخيانات والفسد . .
ثم التفت إلى وسألنى فجأة . .

ماهى علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من
أجل أى حزب أو كتلة .

قال : رائع ! . . هذه هى نقطة البدء . . سليم .

في نهاية اللقاء اتفقنا كيف تتقابل وأين . . كان بيته في عين شمس ولكنه
كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية . . قلت إنه يمكننا التغلب على هذا
فمعنا في التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلنا كنت أذهب لزيارته في بيته وأحياناً
كنا نلتقى في جروبى . . وفي مرحلة من المراحل كان يسكن في بنسيون وسط
البلد اسمه القينواز . . وكنت ألتقى به هناك أيضاً . .

وهكذا استمرت اتصالاتى بعزيز باشا المصرى . . كما لم نستطع صنى

بالشيخ حسن البنا . . وفي هذه الأثناء كمت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوماً بعد يوم . .

تلاحفت الأحداث قصوات هتلر تتجتاح أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفاً كل يوم وفي كل مكان . . بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جداً لكي نضرب ضربتنا وننتخلص من المستعمر والأخزاب .

في هذه الأثناء صدرت الأوامر بنقل إلى مرمى مطروح في أقصى الشمال كضابط إشارة لآلأى المدفعية . . وهناك تابعت نشاطي بشكل مكثف بين الضباط . .

كان الجيش المصري إلى ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية في الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً في النزاع العالمي رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا . . وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب إنجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التي نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . . هذا إلى جانب الشعور العام بأن عدونا الأصلي إن لم يكن الوحيد هو إنجلترا وليست أية قوة خارجية أخرى . .

لم يكن الرأي العام في مصر راضياً بأي حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان في الواقع ساخطاً عليه كل السخط . . ففي حديث ديني لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغي . . وكان شخصية مرموقة . . قال عبارة أصبحت تتردد على كل لسان . . وهي أنه لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب . . ثم جاء على مامر رئيس الوزراء في ذلك الوقت وأعلن في البرلمان سياسة تجنب مصر ويلات الحرب . . وهي السياسة التي أقرها البرلمان على الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالزول من مرمى مطروح وكان هذا معناه أن يتولى الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة في المنطقة - وكنا قبل ذلك نتولى نحن الدفاع عن قطاعين منها . .

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا . . وهنا ثارت ثائرتي ولكنني صمدت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصري التي وافقت على

الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إلنا بحاجة إلى السلاح . . اتصت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع على عده التخلي عن السلاح . . وإذا صم الإنجليز على تجريدها منه فليس أمامهم وأمامنا إلا القتال . . ولما عمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبتنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح .

كان هذا في صيف ١٩٤١ وهذا دبرت أول خطة لأول ثورة . . فاتفقت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرمى مطروح على أن تنفي في وقت محدد عند فندق مينا هاوس في نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوي وهناك بدأ التجمع وتدخل القاهرة مضرب الإنجليز . . ونستوفى على السطة . .

لأن هذا الحد كان الإنجليز في ذلك الوقت على قدر من الضعف جعلني وزملائي نقدم على هذه المعامرة دون أن نحس حاسب نتائجها . . نعم . . كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معي ولم يكن للإخوان التسمين أو لأي تنظيم مدني آخر أي دور فيها . . ولكن هل كان هذا يكفي ؟ المهم أنني أخذت وحدتي من مرمى مطروح وفي قفزة واحدة وصلنا إلى العجمي عند مدخل الإسكندرية . . حيث قضينا ليلتنا وأنا في غاية المعادة في القيد سوف ألتقي بالوحدات الأخرى عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الخطة معاً ونوزع الواجبات ونختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات فضلنا العربات . . وجلست أنا وجنودي في انتظار الوحدات . . ولكن عبثاً . . لا بد أنهم سبقونا إلى القاهرة . . قلت في نفسي . . وبعد طول الانتظار . . أمرت وحدتي بالسبر إلى معسكرنا في المعادي . .

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها . . ولكن ربما كان هذا من فضل الله . . فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لنتبه المسئولون ولشددوا الرقابة على الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو . .

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف البأس طريقه إلى قلبي رحت أكثف اتصالاتي بجميع أسلحة الجيش . .

وانتمعت الدائرة كما لم تتع من قبل ففي كل يوم كان ينضم أعضاء حدد إلى تنظيم الضباط الأحرار . . كان عبد المعيم عبد الرؤوف نائبى . . وكما ساعد الاجتماعات في بيته بالسيدة زينب أو عندى في كوبرى القبة أو في فيلا حسن عزت وسعودى بكوسرى القبة أيضاً . . وفي هذه المرحلة بدأنا في عمل اللجان فكانت هناك لجنة للاتصالات بأهليات البادية ولجنة للإتصال بالضباط المتمين للتنظيم في الأسلحة المختلفة . . ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط . . وفي نفس الوقت داومت على اتصالي بالإخوان المسلمين وعزيز المصرى .

٦

في أواخر عام ١٩٤١ التفت بعزيز المصرى في جروف بناء على طلبه . . كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلى العراق . . فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد على الكيلاني في ثورته التي قام بها في العراق ضد الإنجليز . . في هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلى المعاش . . وكانت المخابرات على علم باتصالي به فأندروني بالابتعاد عنه ولكني لم أعبأ بإخبارهم فقد كان من واجبي مساعدته . . إلا أننا - كما قلت له - لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف . . بعد ذلك بقليل أبلغني عزيز باشا أنه تسلم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة المانية ستكون في انتظاره عند جبل رزة في مدخل طريق الفيوم في يوم معين ساعة الغروب .

هنا أدركت مر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفسدون إلى الصحراء المصرية ويضلون طريقهم فيها - كما كنا نفعل في الجرائد قبل الحرب . كانت هذه الرحلات في الحقيقة بمثابة استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توپوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلى معرفة جبل الرزة وهو نقطة صغيرة على الخريطة لا تكاد العين تمييزها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير في الصحراء ولكن صاحب المحل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك . . عرفت المخابرات أنني اشتريتها . . شكوا في الأمر فصدرت الأوامر بإبعادى إلى مكان اسمه الجراولة لا يبعد كثيراً عن مرسى مطروح . . تمارضت ودخلت المستشفى العسكري حيث أعطوني إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدي عبد المعيم عبد الرؤوف وذهبت إلى الجراولة حيث التقيت لأول مرة بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك . . والذي لعب دوراً مرموقاً دون أن ينرى في مسيرة ثورتنا تنبحة للصدقة التي شئت بسبب

لا أعلم ما الذي حدث للعربة الـ (بك آب) . . أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها . . وإلا لما بلغنا عبد المعيم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبرى وكلاهما طيار ماهر إلى الاستيلاء على طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصرى وحقائبه للسفر إلى بيروت (التي كانت في ذلك الوقت خاضعة للحكومة فيشي التي سلمت للألمان) . ولكن بعد أن أفلتت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبرى أن الزيت قد نفذ فيبدو أنه بدلاً من أن يفتح طلعة الزيت أغلقها فاضطر إلى الميوط فوق شجرة في أحد الحقول بخوار بها . . ومن هناك استطاع ثلاثهم بمساعدة مأمور قليوب الوصول إلى القاهرة حيث اختبأوا . .

في هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضاً حقيقة في مكان الحادث وعليها الحرفان A.M. أى . . عزيز المصرى . . فاتحمت الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلى بيروت . . ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان في طريقه للاتصال بالألمان في العراق . .

ولما كانوا على معرفة باتصالي به قبضوا على فوراً في الجراولة ونزلوا في إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة . .

وصلت القاهرة في الصباح المبكر فتوجهوا بي إلى وزارة الحربية حيث جلست في مكتب سكرتير الوزير أقرأ في كتاب أرمسترونج « الذئب الأغبر »

كان ذلك في أوائل سنة ١٩٤٢ وقد وصل روميل إلى ليبيا مع فرق البانزر (الدميات) الألمانية وكان الشعور العام في مصر معادياً للإنجليز وبالطبع في صف أعدائهم . . وكان الإنجليز يسمون ذلك . . فطلبوا من فاروق في فبراير ١٩٤٢ أن يوافقهم على سحب جميع القوات المسلحة من مصر ملامحهم في سبيلهم إلى نواحي مصرى . . ولكن فاروق رفض فإذ كان من السفير البريطاني لورد (كيلرن) إلا أن حاصر قصر عابدين بالمدبابات يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فلما أن يستجيب فاروق بحسب أوامر من العرش . . وأمام هذا التهديد استدعى فاروق النحاس وكنته . .

في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . . تاريخ لا ينساه جيلنا . . ففي ذلك اليوم سقط النحاس في نظرننا . . إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر على البلد بقوة السلاح ؟ فتجمع الضباط بالقاهرة وسرنا إلى قصر عابدين تحية للملك الذي خرج لرد التحية .

لم تكن بطبيعة الحال راضين عن فاروق ولكن ما حدث كان إهانة لمصر جيشاً وشعباً واعتداء على سيادتها بصرف النظر عن شخص من يمثل هذه السيادة . . لذلك عندما سمعنا أن لورد (كيلرن) قد وجه إنذاراً ثانياً إلى فاروق إثر حادث وقع في مطار القاهرة بعد أيام من حصار عابدين خرجت فيه كرامة إنجلترا . . اتفقنا نحن الضباط الأحرار أن نخط بالقصر الملكي ونشتبك مع الإنجليز لو حاصروا القصر بدياباتهم مرة أخرى . . ومن ثم استعرت عربة زكريا محي الدين وكان الوحيد بيننا الذي يملك عربة خاصة . . ورحلت أطوف بها حول القصر طوال الليل أوصد الحركة من قريب ومن بعيد لأنذر إخواننا لو حدث ما كنا نتوقعه . .

١٩٤٢

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد يوماً بعد يوم إلى أن أتى الصيف وحطم روميل الجيش الثامن البريطاني ووصل إلى العلمين وهي تبعد ٧٠ كيلو متراً عن الإسكندرية . . وهنا كشف المصريون عن شمتهم في الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادى إلى الأمام باروميل فقد كانت الجماهير ترى في هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لتحرير البلاد منهم .

وأصاب الإنجليز الذعر فراحوا يحرقون وثائقهم وأوراقهم ويرحلون وعيالهم والموالين لهم إلى السودان . . فبعد أن سقطت العلمين في يد روميل أصبح الطريق أمامه مفتوحاً لغزو مصر .

في هذا الحين في ١٩٤٢ روميل سوف يوصل إلى الإسكندرية ويصل إلى القاهرة . . المسألة فقط مسألة وقت . . ووقت قصير أيضاً .

وكان مقرراً أن تكون مصر من نصيب إيطاليا وإن مومسوليني قد جهز بالفعل حصاناً أبيض ليدخل القاهرة على ظهره كما كانت العادة أيام الإمبراطورية الرومانية .

اجتمعت مع إخواني في تنظيم الضباط الأحرار وقلت لأبد من عمل شيء . . فكيف نترك روميل يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا على أن نرسل روميل في العلمين ليقول له إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكي نجتد من بيننا فرقاً كاملة تحارب في جانبكم وأن تزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية في مصر . . هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكري إخواني واحد من القاهرة . . كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب بريطانيا أو تحكمها ألمانيا وأن لا يتدخل أحد في شئوننا الداخلية أو الخارجية بأن حال من أياها .

كانت هذه هي شروط المعاهدة التي أطلبها المرحوم خير أحمد سعودي على طائرة هرب بها من القاهرة إلى العلمين وأنا عندي ٢٢ سنة بعد أن حرصنا على إخواني وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا في ذلك الوقت . . أن أوردت .

وتعزيزاً لحركة المقاومة وضماناً لتنفيذ ما تمسوه به معاهدة هذا هو اليوم أراحنا حيث شنت عشرة آلاف جنديهم على العلمين في ٢٢ يونيو ١٩٤٢ ثم قدموا معسكرهم مع سعد الدين وحسن إسماعيل في ٢٢ يونيو ١٩٤٢ في القاهرة . . وصعدوا فوقهم ومشروعا معاهدة في حصة وعهد إلى سعد الدين تنصيبها . .

في ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هي التي نجت الإنذار فأعطاهها لسعودي الذي طلع بها كأنه في دورية عادية ثم اتجه إلى العلمين .

في ذلك الوقت كنت أعمل بلاح الإشارة في الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة . . . وكنت أنتظر إشارة من سعودى أو من الألمان ولكن طال الإنتظار فدأت أقلق . . في هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلى زميلى حسن عزمت ليقول إن ضابطين من الجيش الألمانى يريدان الاتصال بى لتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

في القاهرة توجه أبلى ومعه زميله ساندى إلى ملهى (الكبت كات) بسهران
وعبريدان ليلة بعد أخرى دون حجاب فقد كانت معهما كبتات كبيرة من
الحيات الاسترلينة المطبوعة في اليونان . . ولقت البلخ الذى يعيشان فيه أنظار
الجميع فأبليت عنهما إحدى رافعات (الكبت كات) . . ومنذ ذلك اللحظة
وضعا تحت رقابة المخابرات البريطانية . . كل هذا عرفته بعد ذلك . . أما عندما
التقينا فلم أكن أعرف سوى أنهما يعيشان في دهبية على النيل قرب (الكبت كات)
أمتاجرتها لهما حكمت فهى إحدى قنوات ملهى بدبعة مصابنى . . وأن معهما
جهاز لاسلكى ألمانى ولكنه معطل . .

ذهبت معهما إلى الذهبية لأرى الجهاز فوجدت جهازين أحدهما من نوع Hallicrafter Sky Challenger أمريكي جديد تماماً ولكن أحترق أنه بعد عصف بجهازه انصل سراً بسفارة موبسرا التي كانت ترعى شئون ألمانيا في مصر
على هذه الرغابة وهو ألماني قد أمدهما بجهاز لاسلكي أمريكي وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألماني المفضل ولكن ليست عدد الخواص من نتائج ما اقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية

كان لابد من إخفاء الجهاز فأخذته وذهبت مع حسن عزت إلى صديق له يسكن في شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقاً وقالوا لنا إنه سافر إلى قريته فعدت بالجهاز إلى بيتي في كوبري القبة وأخفيت في حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلهما . . وفي نفس الليلة وصل زوار الفجر . . قرعوا الباب مرة . . مرتين . . عدة مرات حتى استيقظ أهل البيت . .

— البيوزباشي أنور السادات ساكن هنا ؟

نعم

دخلوا مباشرة . . فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز . . وحوالي ٢٠ أو ٣٠ مجبراً ملأوا الحديقة والبيت كله حتى أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندما في الحديقة كلب بلدى عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الفساة الغريبة حتى اتخذ لنفسه موقفاً إلى جانب القرن وأخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجاً ربما . . ولكن في أغلب الظن مدافعاً عن القرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت الهادئ المطمئن الذى يأوى إليه والذي هو في الواقع أحد أفرادهم .

— أين حجرتك . . ؟

سألوني فأشرت إلى إحدى حجرتين كنت أشغلها في بيت أبي وكانت حجرة نومى . . فتشوها وفي أثناء التفتيش لاحظ سيف اليزل ضابط المخابرات المصرى وجود مجلس آخسر إلى جانب مدمى العسكرى فما كان منه إلا أن تناوله ووضعه في جيبه ببساطة . . لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفنى ولكن كانت تربطنا صلة أقوى من أية صلة . . وهى الوطنية المتأججة في صدر كل مصرى . . أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكتبى . . قلت لهم إن حريم الأمرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضى إخلاءها قبل دخولهم . . فمحموا إلى بذلك . .

ودخلت الحجرة . . كان بها جهاز اللاسلكى وصفيحة بارود كنا نصنعها في القرية من حشب شجر الصفصاف والسامد . . طلبت من أخى الأكبر

طلعت أن يأخذ الصفيحة والجهاز ويخفيهما في أى مكان . . وفملاً أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلقى للبيت حيث دفن الجهاز في وقود الفرن وتركه والصفيحة في حراسة الكلب الطيب الذى غطى نباحه المستمر جميع تحركات طلعت . .

في حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها . . وطلبوا منى أن أذهب معهم . . وأخذوني إلى سجن الأجانب . . رفضت دخوله فالتقانون يقضى بأن حبس أى ضابط في الجيش المصرى لا يكون إلا في ميس الضابط حيث يقوم على حراسته ضابط مثله . . هكذا قلت لهم . . وخضعوا لسيادة القانون . . واقترحوا أن أقضى بقية ليلتي ضيفاً على البوليس في مكاتب الفرقة (ب) بمحاردين سيقى إلى أن ترسل قيادة الجيش في طلبى في الصباح . .

قبلت . . وفي اليوم التالى كنت في ميس الفرسان . . وكان هناك أيضاً زميل حسن عزت . . ولكن أنا في طرف وهو في الطرف الآخر . . لا نجتمع إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنباً إلى جنب ويهمس إلينا بأن تنهى حديثنا بسرعة إذ لابد بعد الإفطار أن يتوجه كل منا إلى مكانه . . تماماً كما حدث عندما وضع سيف اليزل مدمى في جيبه لاتقضى . . مصريون كلنا ومتعاونون . . ضد العدو والسلطة . . ورغم وظائفنا المتباينة . . ورغم واجباتنا الرسمية . . ودائماً . . رغم كل شيء . . لأن واجب الوطن كان فوق كل شيء . .

ثلاثة أيام بلباليها لم أذق طعم الأكل . . كنت فقط أشرب الماء ولا أزال وكان شيئاً يحترق بداخلى . . فقد كان عقلى يعمل ليل نهار بحثاً عن مخرج مما أنا فيه .

لم يكن هناك سبيل إلى الإنكار . . كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلسر مرات ومرات . . الطريق الوحيد إلى الخلاص هو التبرير . . والتبرير أصبح المتكامل . . لكل ما حدث . . - ولكن كيف . . ؟

بعد جهد وعناء مستمر وفي نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت ورتبتي قصة كاملة تتضمن كل ردودى ومخارجى وتد على الحسم جميع حروى

أطلعت زميلي حسن عزت على تفاصيل القصة كلها حتى لا تتناقض أقوالنا في التحقيق . . وبعد ذلك استرحت وعدت إلى حياتي الطبيعية آكل وأشرب وأنام .

أخذونا بعد ذلك إلى رئاسة الجيش حيث وقفنا في طابور . . ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ . كان أبلر يتوجه إلى مباشرة ودون أي تردد . . أما ساندی فكان أقل جرأة من زميله فهو يسير أمام الطابور إلى أن يصل إلى مكاني ثم يشير إلى .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيداً للمجلس العسكري العالي . . وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز وضابطين من الجيش المصري وضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة . . تشكيل خاطيء دون شك .

وبدأت المحاكمة :

— تعرف أبلر ؟

لا .

— تعرف حين جعفر ؟

لا .

— تعرف هذا الذي تعرف عليك ؟ (وأشاروا إلى أبلر) .

قلت : طبعاً أعرفه . . إنه ماجور إبراهيم من الجيش الإنجليزي .

ارتبك المجلس لحظات . . ثم استمرت المحاكمة .

— ألم نأخذ منه جهاز لاسلكي ؟

— جهاز لاسلكي ؟ طبعاً لا . . هذا الرجل قدم لي نفسه وزميله على أنهما من ضباط سلاح الإشارة الإنجليزي . . وأنا بطبيعة عمل أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم . . التفت إلى أبلر وسألته فجأة :

— أنذكر لقائنا في محل الجمال يا ماجور إبراهيم ؟

— نعم أذكره . . ولكنني لم أقبل لك أن إسمي إبراهيم بل قلت لك إنني أماني وسمي أبلر .

— لو قلت لي هذا كنت بئيت عليك .

قال : وماداع الذهبية ؟

أكرت ضبعاً مكن الذهبية . . قال يذكرني :

— هل نيت عندما نبح لكب وأنت خارج من الذهبية ومعك الجهاز ؟

من غيظي ضغطت على قدمه بكل قوة .

وقف على الثور من الألم وقال :

— لماذا تدوس على قدمي الآن ؟

فت مسدداً

الذهبية . . والجهاز . . ونجاح الكب . . والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة . . لقد اعترفت بالكامل . . ويجب أن تعترف مثلاً .

قلت بتمشي الهدوء : أعترف بماذا ؟ . . أنا أعرفت فعلاً . . ولكن كضابط إنجليزي .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قابلته بعزيز المصري في مصر الجديدة ولكنني قلت :—

— نعم حدث . . لقد التقينا في مصر الجديدة .

وعاد إلى السؤال : وفي مصر الجديدة من كان معنا ؟

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتى إلى في محل (صولت) تصبر جديدة أخبرني أن زميله ساندی مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماماً لأقوالی .

بعد ذلك أتوا ساندی ففعلنا به ما فعلناه بأبلر

انهارت أركان المحكمة فنادوني وحسن عزت إلى مجلس صدق معصين .

في هذه الأثناء في شهر يوليو عام ١٩٤٢ من وجه المحامي نشر في

... غير انقذة وعين مونتجومرى وذهب إلى العلمين ليرفع
... البريطانية .

وكما عمت بعد ذلك . . . التقي بالجناسوسين أبلر وزميله ووعدهما بحياتهما إذا
اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلر الكامل .

ثبت معتلا في مبنى انصاف إلى أن أتى رمضان وفي يوم قل المغرب بساعة
تقريباً دخل على في شاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهايار . . . كان يقوم على
حرامتي ضابط اسد فقية . . . فقاء لثوه وتركنا وحدنا حتى نتكلم بحرية . . . سألت
في عن سر لريارة فاجاب وهو يجمع أنفاسه :

اليوم أتى إلى المواء على باشا موافى رئيس إدارة الجيش . . . وقال لي إن
موقفك في القضية ميؤوس منه والأفضل له أن يعترف . . . ففي هذه الحالة
سيصدر عيه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه ربما بالرصاص في

أدركت ساعياً أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماماً . . . ولذلك فهم
يلجأون إلى هذه الخبة الرخيصة كحالة أعبدة .

قلت لأني : لكي يضر بوني بالرصاص لابد من مجلس عسكري عال وتهمة
ثبتت على . . . هذا هو النظام في الجيش . . . ولو كانت هذه التهمة في أيديهم فعلا
لما لجأوا إليك لتطلب مني الاعتراف .

اقنع الرجل . . . وكان رحمه الله يأخذ كلامي أمراً مسلماً به . . . فاسترد أنفاسه
وزال اضطرابه . . . وخرج بعد أن تناول الإفطار معي وهو مطمئن كل
الإطمئنان أن لا خطر على حياة ابنه على الإطلاق .

في اليوم التالي . . . كما عرفت بعد ذلك . . . زاره في مكتبه موافى باشا ليعرف
نتيجة اللقاء وكان رد أبي عليه .

— اسمع يا باشا . . . إذا كان ابني مخطئاً فاضربه بالرصاص . . . وإذا كان بريئاً
فواجبكم أن تعيدوه إلى عمله .

وحذره موافى باشا من نتيجة إصراري على عدم الاعتراف . . . وكان تعليق أبي
الوحيد أن افعلوا ما شئتم . . . ولكن ليس لدى أكثر مما قلته .

في هذه الأثناء كان مونتجومرى قد حشد حشوداً هائلة حتى يضمن الحركة
مائة في المائة وقطع على روميل خطوط إمداداته في البحر الأبيض . . . وبذلك بدأت
أعصاب الإنجليز تهتد فغيرت نظرتهم إلى قضيتنا . . . وكانت النتيجة أنه في يوم
٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ قبل المغرب بساعة طلبني رئيس أركان حرب قسم
القاهرة وأبلغني أنه قد صدر النطق الملكي السامي بالإستفتاء عن خدماتي .

خضعت الرتب . . . وتقدم مني محمد إبراهيم رئيس القسم السياسي بالبوليس وقال :
— تعال معنا إلى المحافظة لعمل بعض الإجراءات .

فهمت أنهم بصدد اعتقالى فسألته :

— إلى أين نحن ذاهبون بالضبط حتى يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لي طعام
الإفطار ؟ — فأجاب باختصار . . . ومجن الأجانب .

وفي رمضان ١٩٤٢ عندما ألقوا القبض على مقابل جهودى للتخلص من
الإستعمار الإنجليزي سرت إلى سجن الأجانب .

وطوال الطريق . . . كان يرتفع أمام عيني طيف زهران وهو يسير رافع
الرأس سعيداً بما فعل لا يخشى الموت الذي سيلقاه بعد قليل .

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران . . . وإذا غامرني هذا الشعور أدركت — كما
أدرك من قبل — أن زهران لم ينهزم قط . . . ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام . . . لا
أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتداداً لهذه الإرادة التي سرت في كياني منذ طفولتي ؟ إرادة سحر
والتحدي ؟ .

بلغنا السجن وإذا كنت أصعد السلم في طريقى إلى حجرتي . . . يهرى ورج
غريب بما في داخل من قوة لا يدرك مداها سوى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل .

ورغم موته . . . ورغم تجريدي من رتبتي واعتقالى . . . ورغم أن

الفصل الثاني

نحو تحرير الأرض

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب . . وكان ذلك في ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهي (ليلة القدر) . . موسم من المواسم الدينية التي يحس بها المسلمون أهمية في تربيتهم وحياتهم . . فصبح منه أو أورة أو دجاحتين . . كل حسب مقدراته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره متر هبكان الملطى الأصل البريطاني الجنسية .

دخلت الزنزاة الخاصة بي وكانت في الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضرت المراسلة الطعام فصلت وتناولت طعام الإفطار .

إن هنا كانت حالتي عادية . . لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة . . ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحاً به في سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتي ورحت أنساءل . . ما هو الحل ؟ سوف أفضي مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسى بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبتي ولم يعد لي عمل ؟

واستمرت التاولات واستمرت الحيرة ساعة . . ساعتين . . ثلاث ساعات لا أدري . . وأنا أسير في المحبرة من ركن إلى ركن ومن حائط إلى حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتي . . وأخيراً جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى السرير كما تفعل في القرية . . وبما لأنى عندما أجلس على الأرض أحس أني قريب من الطبيعة والبطشورة وربما لأنى تعودت الجلوس على الأرض في القرية - لا أعرف . . ولكن فجأة خطرت فريقي على بالي . .

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كلام من الصخر والصلب بداخلي . . فقويتني هناك قابضة في خضن الدلتا . . وسوف أعود إليها فقيم القلق وفيه البحث عن مصير ؟

إن القرية هي الاستقرار . . أقل إنسان في القرية وأضعف وأقصر إنسان دائماً مطمئن . . لماذا ؟ لأن عنده داره . . ومهما كانت صغيرة حتى ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومصطبة . . فإنه عندما يلقى بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئناً واستقراراً .

هذه هي روح الفلاح في كل مكان . . الأمن والاستقرار . . لأنه مرتبط بالأرض بعطيتها فتعطيه . . يكفيا فتكفيه دون الحاجة إلى أي إنسان . .

لم أكن قد عرفت نفسى بعد . . ولكن في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي وأنا أواجه نفسى في السجن تحت جانباً من جوانب شخصيتي . . فقد أدركت أنه يكفي أن أكون فلاحاً بسيطاً لكي أكون أسعد الناس . .

هذا الإحساس بالقناعة بالأرض - حتى ولو لم تتعدى رقعتها القندانين وهي كل ما أملك - أصبح وأنا في سجن الأجانب مصدر قوتي . . وما زال . . ففي أي وقت وتحت أية ظروف أحس أني غني بكوني فلاحاً عن كل شيء . . فالأرض هناك وفي أي وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفحها بيدي . . وفي هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية . . فأمرى دائماً يسدي . . وإرادتي هي إرادتي وحدي . . وأنا سبب نفسي . .

وحظرت في حاضري مرمر من كسحة سوداء تحجب شمس حظه . . إن الغالبية العظمى من الناس تطلب ما لا تملك . . ومن له مطالب . . من يسمع في شيء يسأل من حبيبته غيباً ضد شيء . . رسم له بوجوه حبيبه حركته لا يعيش وراء القضبان . . كما أنا في سجن الأجانب .

٢

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون . . ففي كل زنزاة سرير واحد . . وكمرسي وطاولة صغيرة . . حتى التدخين - كما سبق أن قلت - مسموح .

به ولكن بشرط أن يشعل السجان السجارة ويقدمها لك . . . فليس من حق
السجين أن يحمل معه كبريتاً أو ولاعة . . .

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وضئت اخراش فحضرهم
لي ومعها بعض الكتب (تفرقة حتى في السجن فعدما دحت سجن مصر
بعد ذلك بفترة مكنت به سنة كاملة معرولاً عن العالم الخارجي . . . فلا حشرته
ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شيء على الإطلاق) . . .

فكرت في أن أقوى نفسي في اللغة الإنجليزية فضئت بعض كتب بهذه اللغة
وأرسلت إلى هيكتان مأمور السجن مجموعات من سنين سنين دورية . . . من
الكتب التي ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية في اريف الإله في صنع أفساد
كل أسوع ويتناول كل واحد منهم موضوعاً يتكلم فيه - نظرتهم للحياة - ما يحدث
في قريتهم أو القرى المجاورة أو أحوال اخصاد وخصوص . . . الخ . . .
ويسجلون ما يدور في الاجتماع ثم في نهاية كل ثلاث شهور يجمعون
أحاديثهم في كتاب .

راقنتي الفكرة كثيراً فغزت على أنه بمجرد خروجي من السجن وعودتي
إلى قريتي أفعل بأهل وأجمع مع أهل والأصحاب ونقصد ندوات ودية . .
ألا ما أجمل اطلاقة الريف والراحة التي أحس بها في منيرة درما .
وأحلى من هذا كله كلاء أهل الريف الشغاف البسيط الصادق والذي في الوقت
نفسه يحمل الكثير من المعاني العميقة المعبرة التي تمتد جذورها إلى حضارة
آلاف السنين . . .

قصبت بسجن الأجانب وقتاً لا بأس به . . . أقرأ وأحرق إلى فناء السجن
مرتبتين في اليوم كل ربيع ساعة أمارس فيها رياضتي الغيبة وهي المشي . . بين
أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت في السجن ولكني لا أذكرها كلها . . . أذكر مثلاً أني
صحت من النوم على صوت امرأة تنني ولا والتي يا عبده وكانت هذه من
الأغنيات الشائعة في ذلك الوقت وفحاة سمعت نفس الصوت يولول وبصرخ
تماماً كما يحدث في أفلام السينما المبلودرامية .

سألت قالوا إنها حكمت فهي الواقعة وإنما في الزنزاة المجاورة . . . وإنما
هي الأخرى متهمة في نفس قضيتنا . . . فهمت . . . فهي التي أوجرت الدهنية
للجواسيس الألمان .

كل من كان في سجن الأجانب في ذلك الوقت كان مقبوضاً عليهم في قضايا
خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيداً لترحيلهم إلى
الاعتقالات . . .

هكذا علمت . . . ولذلك لم أدهش عندما أخرجوني من زنزانة . . .
وساروا بي إلى مأمور السجن حيث كان هناك أيضاً بالجسوس الألمان
(أبلر) . . . أعادوا التحقيق ولم أغير كلامي ضمناً . . . تصبوا بتقبولنا
بأننا مسلمة سجن سجونهم من شدة . . .

فسمعتهم يقول : لا أمل لأنه ينكر على ضوء الخط (وذا يكن يعرف في عرف
الإنجليزية) .

كان معنا في السجن طبعاً زميل حسن عزت ولم تكن تقابل ولكن لم أعرف
الحراس أننا من الضباط بدأوا يقسمون الكلاء بيئاً . . . وبدأوا أيضاً يعاملونني
معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام . . . فمن خلافة تعرفت على أكثر
المساجين . . . مثلاً كان هناك رجل ألماني اسمه (ماكس) قالوا لي إن له في
السجن سنة ونصف . . . وآخر إيطالي معتقل له ٨ شهور . . . وهكذا وهكذا . . .
أقل فترة لأي سجين كانت لا تقل عن ٦ شهور .

قلت في نفسي هذا يعني أنني سأقضي هنا ٦ شهور على الأقل . . . وكان اشتاء
قد دخل وغيرنا ملابسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن . . .
منا كان يقضي معظم الوقت في زنزاته دون حركة أو عمل . . .

وربما صبح فوجئت . . . سجن يفتح الباب يحمل إلى بعض الطعام من
البيت عندنا ومعه روب شتوي ممتاز . . . فردت الروب أمامي على . . .
ووقفت أنظر إليه وأتحسه . . . كان شيئاً جميلاً للغاية كالأشياء التي بردها في
السينما . . . لم أصدق عيني فناديت السجان وسألته إذا كان هذا روب حممه
في . . . أنه مرسى روب حممه . . . وهذا هو . . .

منهى السعادة . . مثل هذا الروب لم يكن في استطاعتي شراؤه وأنا بوزيائتي
الجيش وكيف حصل عليه أهلى ؟ لابد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لى وهى
ثمانون جنيها واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل . . كان بالنسة لى متعة
لا تساويها متعة أخرى . . فتمت وتوضأت وصليت حمداً لله . . لم أكن
فقط فرحاً بالروب نفسه . . بل أيضاً بالفتنة التى يحملها . . (إذن هناك من
لا يزال يذكرنى وما زالت لى قيمة فى نظرس الناس . . أو بعضهم على الأقل) .

٣

كنت قد بدأت أنأفلم على حياة السجن . . وخاصة بعد أن سمحوا لى ولزميلى
حسن عزت بالتقاء . . وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت . . وفى لقاءنا
كان حسن عزت يعكس لى عن مشروعاته بعد خروجا من السجن . . ومشروعات
صيد سمك من وراء خزان أسوان . . ومشروعات زراعة . . إلخ . . أما
دون مشروعى الوحيد أن أعود إلى الأرض ومن هناك أبدأ من جديد . .

يوم من الأيام جاء إلى السجن وطلب منى أن أحزم أمتعتى .

قلت : خيراً . .

قال : متفلاً من هنا . .

إلى أين ؟ سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملائسى وتوجهت إلى حجرة المأمور حيث سلمونى رباط حذائى
ورباط عتى وماكبة الخلاقة وثلاثة جيهاى كان أهلى قد أودعوا بها السجن
أمانة .

- عهدتك تمام ؟

- نعم تمام .

- انفضل وقع . .

وقعت على أنى تسلمت حاجياتى ثم أمرونى بالسير إلى باب السجن وعسكرى

إلى مبنى وأحضر إلى يسارى . . نظرت فرأيت عربية (بيك آب) تقف

فهم لا يريدوننى أن أرى شيئاً مما حولى . . وكأنهم مثلاً يقومون بعملية اختطافى . .

فى العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أنى كنت آخر القادمين فبمجرد

دخولى غطوا العربة (بيك آب) ببطانية ثم ساروا بنا . . وما هى إلا دقائق

معد . . قد أخلوا الرصيف من المسافرين تماماً ولكن كان البوليس محتشداً فوقه بصورة

توحى بأننا قوة خطيرة لابد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة فى خطر . .

كان فى انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلسوناه فيه فاكشفنا أننا لم نكن وحدنا

إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . . منهم على ما أذكر اثنان من كبار ضباط

الجيش من ضحايا الأحزاب . . وإلى جانب كل منا . . هم ونحن نجلس ضابط

لحراستنا . . وتحرك القطار بنا فى طريقه إلى معتقل جديد . . كما كان

يبدو واضحاً . . ولكنه كان فى هذه المرة فى الصعيد . . على بعد ٢ كيلو

من المنيا (وهى تبعد عن القاهرة بـ ١٦٠ ميلاً) .

لم يكن المعتقل الحديد الذى نقلونا إليه بنفس الطريقة (أى أن البطاطين كانت

تغطى العربة بحيث لا نرى شيئاً إلى أن وصلنا) معتقلاً يعنى الكفمة . . بل نص

شامخاً يقف منعزلاً على ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخضرة

صغيرة لا تختلف كثيراً عن ميت أبو الكوم

هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكاً لأحد أعيان حزب الوفد وسد حبه

المالية فأجره للحكومة التى لحالته إلى معتقل

فعندما وصلنا حادنا المظلمة المكنة

شامخة حدة البصر

أحد

أحد

أحد

أحد

أحد

قد قاء بهجومه على القوات الإيطالية والألمانية في معركة العلمين المشهورة بعد حصار بحرى مع الإمدادات عن قوات روميل . . ومع ذلك استطاع روميل أن ينسحب بقواته سليمة كاملة برغم التفوق الهائل لقوات مونتجومرى ومازال انسحاب روميل على الصورة التي تمت يعتبر في التاريخ المعكرى مؤارياً لنصر الذي أحرزه مونتجومرى ولعل انتصار الحلفاء في تلك المرحلة هو الذي جعل أعصاب الإنجليز تهبط قليلاً . . فاكشفوا بفصلنا من الجيش واعتقالنا . .

كانت إقامتي بمعتقل ماقوسة صعبة في الأيام الأولى رغم أنه كان قصراً منعياً به مرابا فرنسية وأحساب فاخرة وشاييك من الزجاج الملون وحمامات رائعة . . أشياء لم أر مشها من قبل في حياتي بهرتني في أول الأمر وكانت مصدر دعة لى . . ولكن مع الوقت تعودت عليها وأصبح السجن سحاً كثيفة السموم . . وخاصة عندما بدأوا يفتنون الشاييك بقضبان من الحديد . .

ما معنى هذا والمخى تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لابد من التمرد . . وفعلنا كانوا كلما ركوا القضبان الحديدية أزلاها . . وهكذا يوماً بعد يوم إلى أن اضطروا إلى الاكتفاء بالأسلاك الشائكة . .

في معتقل ماقوسة كان معنا حسن جعفر الأخ الغير شقيق لحسين جعفر أو (أبلسر) الجاسوس الألماني . . ولم يكن لحسن أى دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقله الإنجليز من باب الإحتياط . .

وجدت في حسن شاباً دمث الخلق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرات لى فكرة طرحها عليه للفرار وهى أن يعلمنى اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحديثة) لما بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية على أن يعاونه في قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعربية معاً . . فالرواية هى شريحة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش . . إلخ . .

وكان مع حسن جعفر رواية لإدجار والاس مترجمة إلى الألمانية فاتفقنا على قراءتها معاً . . وفعلنا كنا نجلس كل يوم على سلم القصر الداخلى نقرأ

لرواية . . في أول الأمر كنت أقرأ في اليوم ٤ سطور ثم وصلنا إلى نصف صفحة . . فصفحة والتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلاً كاملاً إلى أن جاء الشهر التاسع فأنتهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرأها حسن جعفر تماماً حتى أنى عندما زرت المساء في الفترة الأخيرة وألقيت خطاباً بالألمانية سمعت أن كينجر قال بسورده إننى أنطق الألمانية أحسن منه لأن كينجر من جنوب ألمانيا أصلاً وأنا أتكلم لغة الشمال التى هى أقرب إلى الألمانية السليمة . .

وفى نفس الزيارة كان منشار المساء حريصاً على أن أتعرف على كاردينال لمسا وهو من الشخصيات الهامة في الفاتيكان . . وفعلنا تم التعارف ووجدته يتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والعربية . . وفى أثناء حديثي معه سألتى أين تعلمت الألمانية بهذا الإتقان . . ودهش طعماً عندما عرف . . وما زلت إلى اليوم أتذكر معالم الدهشة التى بدت على وجهه . .

كان أهلى يأتون لزيارتي بالمعتقل كل شهر . . فأجيرة الفر غاية وأهلى فقراء . . وحدث مراراً أنى وزملائى تمارضنا فكانوا يرسلونا إلى المستشفى في المنيا . . وفى إحدى هذه المرات ذهبت إلى المكتبة وهناك التقيت بوجه خليل أحد زملائى في الكفاح الذى رتب اللقاء عندما عرف بوجودى ليخبرنى أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنديات شهرياً لأسرى بالقاهرة لا يمكن أن تصور مدى تأثير لمسة الوفاء هذه على وأنا في المعتقل بعيداً عن إخواني الضباط بل ولم أعد حتى واحداً منهم . .

في معتقل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخرى كما حدث في سجن الأجانب من قبل . . وكعادتي قرأت القرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيام . . كان ذلك خلال عام ١٩٤٣ . . وقد بدأت هزائم غير ودية من الحرب يتغير لصالح الحلفاء . . وخاصة بعد أن حارب برودس معركة رائعة في ستالجراد . . وساعدهم في حربيهم الجنرال ووتنر (من المشاهير القارس) الذى سبق أن هزم نابليون كما كان البب رئيسى في هزيمة الألمان . . وقبل أن تنتهى سنة ١٩٤٣ صدرت إلينا لأول مرة أخبار عن معتقل آخر - قرب القاهرة - هو معتقل الزيتون .

في معتقل الزيتون كان هناك أيضاً نوعان من المعتقلين - النوع الأول مثل من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشي أو الألمان بحكم الاستعمار والوجود الفرنسي التقليدي في الشام الذي كان يشبه الوجود الإنجليزي عندنا . أما النوع الثاني فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذي كونه مكرم عبيد عندما انشق على النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلى حكم الوفد . ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

في معتقل الزيتون تعرفت على (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلنا . كان رجلاً لطيفاً للغاية ولكن - رغم أنه كان يعيش في غرفة صغيرة في البدروم مغلوباً على أمره كأي معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبي . فكان يأمر وينهى كأنه في قصره ويمشي ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبداً أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسلينا الوحيدة .

كانت الحياة مملة في معتقل الزيتون فالوقت يمضي في بقاء شديد ولا شيء تفعله . ففكرنا في تربية الأرناب - اشترينا زوجين أو ثلاثة في بادئ الأمر - وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرابنا حتى امتلأت بها القاعة الوحيدة الفسيحة في المعتقل مما جعلنا ندور حولها لكي نذهب إلى حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة . ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرناب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة في صديقنا الكونت الأرستقراطي . وهي أنه يجيد الطهي وخاصة طهي الأرناب بالذات . وهكذا عشنا فترة على تربية الأرناب وأكلها إلى أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوى بينها فما هي إلا أيام قلائل حتى أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التي تكاثرت بها . وخلت القاعة منها وعادت إلينا فسيحة خاوية كما كانت في البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرناب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت

عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذي كان يملؤه كل صباح بها ويحفظه بين المرتبتين على سريره حتى تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة تناحر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التي أذكرها في معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية في ذلك الوقت . غضب عليه النحاس باشا فاعتقله ورغم أنه كان محايداً لا ينتمي إلى أي حزب . كان اسمه أبو شادي وقد رأيناه مرة أخرى بعد الثورة - عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب . كان هذا في سنة ١٩٦١ أي بعد حركة الانفصال عن سوريا . وكانت كل الحراسات التي فرضت أساسها حزبي فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الانفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصري نحو الحكومة فزين له بعض أعيانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة . وبناءً عليه لجأوا إلى فرض الحراسات على جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادي مع أنه كما قلت لم يكن ينتمي إلى أي حزب . بل كان مثلاً أعلى للموظف المستول في اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعي بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادي . تماماً كما حدث بعد سنة ١٩٦٥ بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هيئوا للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف . ووصلت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفيت أنا العملية كلها فأعقبت المعتقلين كلها مباشرة بعد أن صفيت مراكز القوى في سنة ١٩٧١ أما المحكوم سبه سواء من الإخوان أو من بقية فصيلة سببه أخرى فقد أرسلت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ .

٥

أعود إلى حديثي عن معتقل الزيتون .

في الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . فمن هذه في سهولة وأهلنا يترددون علينا لزيارتنا دون تكاليف السفر إلى المنيا . ثم إن معيشة الزيتون

كان قبلا بها حديقة كبيرة تنبثق لما فرصة الحركة فكثر من حديقة معتقل مقومه الصغيرة الضيقة . . ولكي تقطع الوقت
الحديقة بالرسم ليكون غداء للأرباب حتى
إلى زراعة السطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه
وهكذا عشنا في هدوء لا يعكره سوى مضجعي من سبيل
أفرجت عنه السلطات بطع منشورا ضد الحكم فيعود إليه في اليوم
بفضل عبثه المعتقل على عبثه الخرية
سبعة جنينيات ونصف لكل منا
أقبعته بعدم قبول منحة من سلطات الاعتقال لأن هذه مائة مية مكرامة
وكان المطبخ ضمن من يتقاضون هذا الراتب الشهري
بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت باخيان طعنا ولذلك كان حريصا على أن يبقى بالمعتقل
أطول مدة ممكنة على أمل أن يخرج منه في النهاية برأس مالح محترمه
على الأقل .

في يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل - كان عنيف
السلوك ولذلك فصل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضا أكثر من مرة إذ
كان عمه عضو مجلس شيوخ وفدى عن مديرية البحيرة
كبيرة تمتد إلى ليبيا موطنهم الأصلي .

المهم أنه حدث بيني وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكني
أذكر نتائجها جيدا
حجراتنا ووضعناها كلها على السلم بحيث تمنع أى إنسان من الوصول إلينا في
الممر الثانى
وهو يحمل طنجة في يده .

قلت له : أنت جان
خرج غاضبا ونوجه إلى حجرته وأحاطها بالمساكر وظن أنه في أمان
في نفسي لا بد أن أؤدب هذا الإنسان الشاذ
أن دخلت حجرته من الشباك
قلت : أنت مغلق .

الحجرة على نفسك والحراس يحرسون الباب
ولكن في مقدورى الآن أن أحققك
هذا ؟
وأغلقتا السلام بالتاريس بإغلاق تاما .

كان الموقف السياسى في العالم قد انكشف تماما في عام ٤٣
من الواضح أن ألمانيا في طريقها إلى الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعجال
الإفراج عما
علما حركة عصيان وأشركنا معا جميع المعتقلين
حديقة المعتقل
بل وأكاد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درسا لا ينسوه مدى الحياة .
ولكن كيف ؟

٦

قررنا أن نهرب منه
وقت هروب هو وقت تعبير حرمي في نور
من هرج ومرج
أمرنا ولم يكن هذا الأمر مضطربا
من حذره حيث سمع ونسبه وحفر فجوة في سقف حرجه
واسميت على وجهي حتى لا يرى أحد
بين يدي حسن عزت الذى كان يقف على أرض المحرقة
الآخر فادلم على الطريق
الظلام حالكا
مركب من السه ومضد .

كان حسن فادلم
في ذلك الوقت

البريطانية . . بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلى أية ورشة لإصلاحه - ولكنني رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يترأى لكم فأنتم الذين ستظلون هارين أنا قررونا أما أنا وحسن فلنا خطة أخرى .

كان حسن فاضل شاباً دمث الخلق قضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا . . أين نخفى إلى أن يطلع الصباح ونفذ خطتنا ؟ اقترح بحسن أن نذهب إلى شقة سيدة فرنسية عاشت في مصر بعض الوقت مع صديق مصري لها ثم هجرها وبقيت هي بشفها الصغيرة في ميدان الإسماعيلية - في وسط البلد - تنتظر انتهاء الحرب حتى تعود إلى وطنها . . ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبى أحسن ترحيب . حكى لها بحسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيانها .

كانت سيدة عظيمة في الواقع - تمثل روح الشعب الفرنسي أحسن تمثيل - ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماماً كشعب مصر . . استنكرت عودتنا إلى المعتقل كما كانت تقضى به خطتنا في الصباح . . ومازالت كلماتها ترن في أذني : - كيف تعودان إلى السجن بعد الحرية . . وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت ٢٠٠٠ جنيهها هي كل ما أملك . . خلدا المبلغ بأكله واهربا إلى أي بلد . . هيا اذهبا . .

رفضنا شاكرين . . عادت نقترح أن نخفي عندهما وهي تتكفل بمصاريفنا مهما طال الوقت . .

كم كانت رائحة هذه السيدة الفرنسية في إلحاحها على أن تعطينا كل ما نملك وتبدأ هي حياتها من جديد رغم تقدم السن بها . . وكل هذا من أجل الحرية !

في الصباح وجدنا مائدة الإفطار في انتظارنا وفوقها الجرائد العربية وكل شيء معد على أحسن صورة . . تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلى الشارع . . أدخلنا تاكسي وتوجهنا إلى قصر عابدين . .

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء في حجرة الاستقبال ودفتر التشريفات منفوح - إلى هنا كل شيء عادى فالدفر مفتوح لأي مواطن يريد أن يشكر أو يستأذن في السفر أو أي شيء من هذا القبيل . .

توجهنا مباشرة إلى الدفر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون في الزيتون وقد حضرنا خصيصاً لكي نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة البريطانية كما لا يجوز إطلاقاً أن تعاملنا هذه المعاملة البالغة السوء . . وإنا على القصور سنعود إلى المعتقل بمحض إرادتنا . . وقد هربا لكي نبليغ هذه الرسالة للملك ولكي نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكنهم لن يعودوا مثلاً إلى المعتقل . . بل سيظلون أحراراً يفعلون ما يريدون . . رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعاً وتخلياً للسلطة . .

عندما قرأ التشريفاتي المسئول عن الدفر هذا الكلام فزع وهرع إلى الأمين الأول يبلغه بما حدث . جاء الأمين الأول وكان اسمه بدر وكان يعرفني من معتقل ماقوسة عندما كان في ذلك الوقت مدير النيابة . . قال لي إن هذا عمل جنسوفي وإنه سوف يثير أزمات وأزمات . . قلت له إننا سنعود فوراً إلى المعتقل وله أن يفعل ما يشاء . . وعلى مشهد منه ومن جميع مروضيه الذين تجمعوا حولنا خرجت ومعى بحسن وأخذنا تاكسي وتوجهنا إلى المعتقل . . فتحوا الباب . . دخلنا بالتاكسي ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا . .

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالي حيث جاء وكيل النيابة ليحفظ معنا قلنا إننا قلنا ما فعلناه لكي يحسنوا معاملتهم لنا . . وإن المتصور بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة الذي أجرى التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذي أصبح وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية بعد ذلك . .

طبعاً نقلوا قومندان المعتقل وتحنت معاملتهم لنا بشكل ملموس ثم جاء أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

في ذلك الوقت كان النحاس مازال في الحكم منذ أن فرضه الإنجليز على الملك في فبراير سنة ١٩٤٢ . . ومنذ ذلك الوقت والملك يتحين الفرص ليخلص من النحاس . . وأخيراً جاء الوقت المناسب في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وضع انتصار الحلفاء وبدأت أعصاب الإنجليز تهبطاً وخافوهم تزداد فأقال الملك النحاس وعين بدلاً منه أحمد ماهر . . وكان من أقطاب الوفد المنشقين على النحاس وزعيماً لحزب جديد شكله هو الحزب السعدي . .

بمجرد ثوب أحمد ماهر الحكمة أفرج عن زملائنا في المعتقل الذين ينتمون إلى حزب الكتلة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار الدستوريين أما خوفه فقد كان وحده . . أفرجوا أيضاً عن أعضاء حزب مصر لمدة من كبراً معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين . . الكل أفرج عنهم إلا من معنيين بناء على أوامر السلطات البريطانية . .

إن متى سنقل في المعتقل ونحن في نهاية سنة ٤٤ والحرب قد انضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء . . حررت زملائي فأضربنا عن الطعام . . ولكن بعد يوم . . حسرت حين نعدو إلى تدوير طعامنا أما أن فلم أنزل مطلقاً ونصبر . . حسب ما نرى . . من مشفى القصر العيني الجديد لكي أكون حياً معه قصة حبيبتي شيرين . .

هنا كنت حزين عن صدام . . وبعد فترة قصيرة زارني في المشفى من حسن عزت . . كنت قد هرب من معتقل المينا وقال : ماذا تفعل هنا ؟ . . لابد من تدبير خطة خروبيك . . وفعلاً دبرنا الخطة . .

في ساعة الظهر عندما يزدحم المشفى بالداخلين والخارجين من آلاف من حادى عزت مصرية (أوسن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء خرجت أنا إلى قناء المشفى وخلقى حارسى . . وفي زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التي اختفت في حسن عزت في منع البصر . . وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث ساء كان قد جهزها حسن كخبأ لي على بعد دقائق قليلة .

كان هذا في أكتوبر سنة ٤٤ كما قلت . . وبقيت مخبئاً هارباً من وجه عدو لي سبتمبر سنة ٤٥ عندما سنق لأحكام اعرفيه بسنوط الأحكام العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون - هذه ميزة سيادة القانون التي أحترمها وأدين بها وأطقتها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر . .

ماذا حدث لي طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة ٤٤ إلى سبتمبر سنة ٤٥ وأنا هارب من وجه العدالة . . ويمكن في أية لحظة أن يقبض على وأعود إلى المعتقل أو ربما إلى السجن ؟

هذه قصة أخرى . .

كانت فترة الغروب منة بالأحداث . . فقد كان لابد أن أعمل لكي أجد لقمة العيش لي ولأولادى فه يكن والدى في وضع يسمح له بمساعدتي بأى شيء على الإصلاق . . ولذلك كان على أن أحرص للحياة فأضقت دققي لأخفى ملائحى وسميت نفسي الحاح محمد .

أول ما قامت به هو أنى عملت حملاً على عربة لورى كان يمكنها زميلي حسن عزت . . بدأنا أنا وسائق اللورى بالعمل لحساب تاجر اسمه غويبة كان متعهداً للحيش البريطانى في الإسماعيلية في مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية في المساء فتكريم غينا غويبة وسمح لنا أن نبيت ليلتنا في مكتبه على الأرض .

كان غويبة هذا ملبونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين الاشتراكية في سنة ٦١ وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول . . ملابس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معده فعلاً . . ولم يمس غويبة فريداً في هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء في عهد عبد الناصر وقبله . فالشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل قد تعلم كيف يصدع حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه

نعود إلى قصتى مع غويبة . . في المرحلة الثانية من عملى معه عهد إلى بنقل الحضر والفاكهة إلى معسكر الإنجليز في التل الكبير . . وأذكر أنني عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها عملة بأسوأ أنواع البرنقال . فاندعشت ولكنى اكتشفت أن هناك اتفاقاً بين المتعهد ومسئول التموين بالجيش الإنجليزى Quarter - Master على الغش طبعاً .

وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأى تموين . . فقد لجأوا إلى استيراد جميع متطلباتهم من اليهود في فلسطين . . وبما لأنهم كانوا أكثر قدرة على الغش والرشوة من المصريين . . ووجد لسب آخر لا أعرفه ولكن بهذا توقف عملى مع غويبة . .

عملت بعد ذلك في بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة)
وكان عملي بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلى أن أصل
بها إلى الطريق الذي كان في ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان .
كنا نعمل من مطلع الفجر إلى غروب الشمس دون توقف وفي نهاية
اليوم كنت أهرع إلى مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة في
برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكمله . . فكانت أشهى طعام
أكلته في حياتي بمجسود أن أنهيه وأحس بالشبع والدفء آوى مباشرة إلى
جراج مسقف بالصفيح لأنام . .

كان ذلك في ديسمبر سنة ٤٤ ومع مجيء سنة ٤٥ انتقلت إلى بلدة أبو كبير
بالشرقية وعملت في مشروع شق ترعة رى تسمى ترعة الصادى بالمنطقة
وكان من عادة مصلحة الرى في ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل
سنة .

سكنت في منزل غفير في مكان اسمه عزبة طلعت أجرتة منه . . وكان السقف
من حطب القطن . . وفي ليلة من ليالى الشتاء أمطرت السماء مطراً شديداً
فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوق . . ماذا أفعل ؟
غطيت رأسي وجسمي بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معي دائماً . .
وتحمل قماش الخيمة المطر الذى لم ينقطع طول الليل وظل ينهر بغزارة فوق
الخيمة وأنا تحبها أسمع ضربة القماش بعنف مما أطار النوم من عيني . . ولكن
لعله التعب والإجهاد . . أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوق في رتابة . .
لا أعرف ولكني نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلى أن طلوع الصباح . .
وكان الخفير يحاملي فيقدم لي كل صباح اللبن الزبادى أو اللبن المتروك
فأتناوله . . ولم أكن أعلم أن معلى ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر
الأشياء التى تضر بها . .

ثم مشروع شق الترعة فرجعت نفسى مرة أخرى بدون عمل ولكن لم يطل
انتظارى . . ففى بلدة منور شرق النيل جنوب بنى سويف فى صعيد مصر
وسط الصحراء القاحلة وجدت عملاً واشتغلت . . كانت هناك شركة مصر

للمناجم والحاجر وهى تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود
فى هذه المنطقة . . وكان هذا المنجم يعمل أيام القراعتة ثم أهمل إلى أن أتى
محمد على فأعادته إلى العمل وبني منه مسجد القلعة
وكان يبعد عن شاطئ النيل ٥١ كيلو متراً ولكن محمد على أقام
استراحات كل منها تبعد عن الأخرى ١٧ كيلو . . وبقيت هذه الاستراحات
قائمة وموجودة إلى اليوم . .

كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام . . وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة
التي بناها الملك فاروق فى الهرم لنفسه من هذا الرخام (وهى اليوم كارسو) وأن
جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعه أنا من الحجر ونقلته بنفسي
الأهرامات لكى يبنى فاروق استراحته ثم لكى يستمتع بها الشعب اليسوء
بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .



بانتهاء الحرب سقطت الأحكام العرفية وانتهت حق سيطرة الدولة
إلى الحياة إذ يسقط الأحكام العرفية أو ما يسمى قانون الطوارئ . . يسقط
حق الاعتقال . . وهذه ميزة سيادة القانون .

وهكذا عدت إلى بيتي بعد ثلاث سنوات من التشرد والحرمان
وارتديت ملابسى وبدأت أظهر بالصورة التى يعرفني بها أهلى وأصحابى
صورتى التى تعودتها . .

فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل . . وكانت الخمسة مليمات بالنسبة
لى عملة صعبة بكل معنى الكلمة . . فكنت أسير على الأقدام يوماً
من منزلى بكوبرى القبة إلى العتبة . . أى أكثر من ٢٠ كيلو . . لأنى
لا أملك ٦ مليمات أجرة الترام . . ولقد نشأت على حبي للجسمال فى كل
شئ . . وكانت ملابسى ضمن الأشياء التى أنقلب فيها الجمال . . وكانت
عندى جاكطة أعز بها كثيراً ارتديتها قبل اعتقالى مرات معدودة فقررت أن

أبيعها في محل من محلات وسط الهند التي تشتري الأشياء المستعملة . .
 وفعلنا أخذتها وتوجهت إلى إحدى هذه المحلات ولكنني عندما أصبحت على مسيرة
 قدمين من المحل توقفت . . لا بد أن صاحب المحل ينتصرونني سرقتها فيسر من
 العقول أن شاباً رث المظهر بهذا الشكل يمكن أن يمتد هذه بالحاكمة الوجبة . .
 حطرت لي هذا الحاضر وأنا أقف أمام التاجر فترجعت وعدت إلى البيت سراً
 على الأقدام ومعى بالحاكمة . . كنت أعرف أن التاجر لن يسألني من أين أتيت
 بالحاكمة . . وكنت واثقاً من أنه سيترها مني بأي ثمن . . وأن المسخ الذي
 سيدفعه مهما كان ضئيلاً سوف يفك ضائقتي . . ولكنني فضلت أن لا أشوه
 صورتني في نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفني مهما كلفني هذا . .
 ولكن ماذا عن صورتني لنفسي كما أراها بعيني ؟ هل هي حقاً ما أردت لها
 أن تكون ؟

لقد عادت حزيني . . هذا ما كان ينبغي انتهاء الأحكام العرفية . . ولكن هل
 أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أضيق سراحه ؟ إن مصر ما زالت
 حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئاً . .
 ولذلك بمجرد أن عاد إلى كيان كموطن حر طليق كان أول عمل
 قمت به هو تكوين الجمعية السرية . . فكيف تتحرر الدات بدون أن يتحرر
 لوطن ! ؟

كان ذلك في سبتمبر سنة ٤٥ ولم يمض على خروجي إلى الحياة سوى أيام قليلة . .
 اتصلت بعمر أبو علي شقيق زميلي سعودي حسين الطيار الذي سبق أن
 أرسلناه لروميل وضربت طائرته - وعرفني عمر بشاب اسمه حسين
 توفيق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنود الإنجليز في المعادى قبل أن ينضم
 إلينا . . ولكن هل قتل حفنة من الجنود الإنجليز هو الطريق إلى تحرير
 مصر ؟ طبعاً لا . . ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص
 ممن كانوا يساندون الإنجليز في ذلك الوقت . .

وكان علي رأس هؤلاء في طهر مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد
 الذي منعه في طهرنا من أن يفرصه الإخير بنسوة السلاح في ٤ فبراير ٤٢ . .

فلا شيء يعادل خيبة الأمل التي يصاب بها الشباب في ربيع كان يوماً مشهوداً
 الأعلى

وما زالت أذكر كيف كنا ونحن ضيق خرج إلى شارع مرتين كل يوم . .
 تنتظر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعودته منه لتراه وننتب وصفته . .
 كان بطلاً أسطورياً ورمزاً قريداً للوطية والنداء والمصدا . . أما بعد
 ٤ فبراير فقد فقد كل شيء وأصبح في نظري حلاً لحصر ولشعبي يحتمل وحده
 الوطني أن تزلزله من طريقنا . . ولذلك قررنا لشخص مه

كانت عادة النحاس أن يذهب في يسوء مولد بني إلى إحدى سمعي وهو
 مقر حزب الوفد إلى حصصه
 سنة ٤٥ فخرجت . . وبعض المرار جمعة
 جاردن سيتي إلى شارع القصر العتيق حيث يوجد لنادي
 يحرس الطريق منعاً للشغب . . فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء حصه
 رغم أن أحمد ماهر كان في الحكم والنحاس ضعفاً خرج حكمه . . ولكن
 كانت هناك قيم وأصول يحترمها الجميع في ذلك الوقت

كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال تقابل ليدوية . . وكان لدى
 سيقوم بالعملية هو حسين توفيق . . وفعلنا ألقى القذات
 ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق من جاردن سيتي
 القصر العتيق تكاد تصطدم به . . فصرخ كني سحده
 ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافية . . فعندما انفجرت القنصلة كان
 النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار . . فأصاب الشظايا عربة أتوبيس
 بها فتيات A. I. S. التابعة للقوات المسلحة البريطانية .

طبعاً كنت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية في مواقعنا نراقب العملية
 فانسحبنا في هدوء وركبنا الترام إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن)
 وهو على بعد دقائق قليلة من مكان الحادث . . حيث توجهنا إلى مقهى (أسترا)
 مكاننا المفضل الذي كنا نعتقد فيه أغلب اجتماعاتنا . .

في نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمان الذي تولى وزارة المالية طوال
 حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز في ٤ فبراير . .

ولكن لم يكن هذا هو السبب في إدانتنا لأمين عثمان . . فلم يكن له أثر يذكر في سياسة الوفد أو على النحاس نفسه . . ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز . . ومسانداً لثقافتهم في مصر بشكل لم يسبق له مثيل . .

كان قد كون في تلك الأيام نوعاً من الحزب السياسي أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن في مصر حزب سياسي واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه . كان مقر (رابطة النهضة) هذه في شارع عدلي وسط القاهرة . . وكانت لها ستة مبادئ أساسية ينص المبدأ الثاني منها على أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطاً حقيقياً . . فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجاً كاثوليكيّاً . . فحتى لو تركنا هي بنحتم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه . .

كان ذلك في يوم السبت ٦ يناير سنة ١٩٠٦ وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا فلذلك بيومين وزار المندوب السامي البريطاني لورد كيلرن في ظهر نفس اليوم وفي المساء ذهب إلى مقر الرابطة . . وكان حسين توفيق في انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة . . قبل أن يصل إلى المصعد ناداه حسين : يا أمين باشا . . يا أمين باشا التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاصاً مسلماً .

كان الظلام مازال يود القاهرة طبقاً لما كان يطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكن تصادف مرور ضابط طيران اسمه مرسى رأى حسين توفيق وشاهد العملية كلها ونبه الناس إليه . . فجروا وراءه . . وظل يجري وهم وراءه حتى ازداد عددهم واشتد حصارهم ففجر قبلته من قبلتين يدويتين كنت أعنتهما له . . فمسه لا يستعملهما إلا في حالة اضطرار . . وبعيداً عن أساس . .

وفعل عمل بالوصية فرمى القبلة داخل سور (صندوق الدين) . . وأدى الانفجار الفرض المطلوب فانصرف عنه الناس . . وعاد هو في هدوء إلى بيته بمصر الجديدة . .

كنت في هذه الأثناء أجلس في مقهى قريب فسمعت على أثر سماعي الانفجار

لأننا كد من عدم وجود ضحايا بين الأهالي . . فلما اطمأن بأني أخذت الترام وذهبت إلى بيتنا في كوبري القبة .

في الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان في البراند وكيف أن المندوب السامي البريطاني استدعى له كبير أطباء الجيش الإنجليزي في محاولة يائسة لإنقاذ حياته . ذكرت الصحف أيضاً ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامي البريطاني الذي استقبله في الظهر وتناول طعام الغداء على مائدته .

في تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامي تعتبر تشريفاً كبيراً لأي سياسي إذ كانت تعني في أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة . . ثم . . كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا . . فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية ومن يمثلها في مصر . . ولكن رغم هذا تم اغتياله . . وقد ترك كل هذا أثره في نفوس الجماهير فقد أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة على حماية أنصارهم . . بل على العكس أصبح من هو قريب منهم في موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل . .

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا لأمين عثمان . . قلبى جانب أننا نخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضيماً إلى حد كبير على أهاله التي كانت تحيط بالسلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز في نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل . .

طبعاً لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذي ذهب يتحرى في مكان الحادث فإذا بالطيار مرسى يتطسوع لمعاونتهم ويعطيهم أوصاف الفائل التي انطبقت على حسين توفيق وقد كان عندهم على شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز في المعادى فذهبوا إلى منزل والده حيث كان يقيم موجدوه على مائدة العشاء . . سألوهم أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه على ذمة التحقيق . .

صمت حسين توفيق في أول يوم . . وفي ثاني يوم لازم الصمت أيضاً . . وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلاً ماكرأ فأوعز إلى الصحف بالإشارة إلى أن

الجرعية كانت أسبابها نسانية . . وهنا انفجر حين توفيق واعترف . .
وكان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته في حب البطولة ولذلك أفلح في الكين الذي
نصبه له . اعترف حين بالكامل وبشكل لا يختلف عن الطريقة التي سبق أن
اعترف بها (أبلر) الجاسوس الألماني إن لم يكن أكثر اندفاعاً وعنفاً .

في يوم ١٠ يناير سنة ٤٦ اعترف حين توفيق ودل البوليس هو وبعض أفراد
الجمعية السرية على مخزن السلاح الذي كان في جبل المقطم . . قلت في نفسي
لقد اسى الأمر تماماً ولكن كان ما زال عدى بصيص أمل في أن يكون حسين
توفيق قد أحق أمرى عن البوليس . .

في ١١ يناير ١٩٤٦ وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة في زيارة رسمية
للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة . . فقد كان
عبد العزيز رحمه الله بطلاً شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته
للسعودية أفراد فاروق أن يزيد في إكرامه له . . هذا إلى جانب أن الملك عبد العزيز
كان يحب مصر . . وهذا تقليد عند الأسرة السعودية فهم دائماً حريصون على
تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر . . فخرجت مع غيرة من الناس لاستقبال
الملك عبد العزيز . . ووقفت في انتظار الموكب إلى أن مر أمامي في ميدان
الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتني أضحك منهم . . فنحن لا نفكر في أن نصيب
الملك عبد العزيز بأي أذى . . إن هددنا أعداء مصر لا أصدقاؤها . .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلى بيتنا في
كوبرى القبة . . فلم يكن في مقدورى أن أفعل شيئاً سوى أن أبقى في البيت ،
أعيش على أعصابي وأنتظر . .

ولم يطل انتظاري في الساعة الثانية صباحاً من ليلة ١١ - ١٢ يناير ٤٦ قرعوا
الباب ودخلوا كما فعلوا في سنة ١٩٤٢ . . ولكن هذه المرة لم يكن هناك
الإنجليز . . بارحت فرائي وذهبت إليهم . . وكان الجو قارس البرودة . .
سألت :

— هل معكم أمر من النيابة بالفتيش ؟

وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

وقال وكيل النيابة كامل قاويش : نعم أنا هنا بنفسى . . وأنا بنفسى الذى
أحقق قضية اغتيال أمين عثمان . .

فهت . . فقد كان هو الذى نصب الكين لحسين توفيق واصفوه إلى
الاعتراف .

فتشوا البيت حجرة حجرة . . وبعد التفتيش أخذوني معهم إلى محس
الأجانب . . تماماً كما حدث في سنة ١٩٤٢

٩

في سجن الأجانب وضعتني في درانة بمفردى . . سألت على حسين توفيق
فعرفت أنهم وضعوه في الزنزانة رقم ١ في الدور الأول - وهي حجرة كبيرة
جداً . . أما بقية أعضاء الجمعية فوزعوا على حجرات أخرى كل على
انفراد . . طبعاً أنا إلى سابق معرفة بسجن الأجانب وحراسه وكل من يعمل به
عرفت مهم أن وكيل النيابة يلتقى بالأولاد كل ليلة حيث يحرق معهم التحقيق
وأنة يسهر معهم إلى مطلع الفجر . . يتناولون العشاء معاً على حساب وكيل
النيابة . . المسألة أصبحت مسألة صداقة . . وخاصة . . كما علمت . . بين وكيل
النيابة وحسين توفيق . .

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجنائين وأوصيتهم بأن ينكروا
إنكاراً تاماً اعترافاتهم السابقة . . فهذه هي الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم . .
بدأ بعضهم فعلاً ينكر ما سبق أن اعترفوا به - أحس وكيل النيابة بأن شيئاً
ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق . . وأنى أنا السبب فأمر بنقلى إلى
الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين . . وفعلاً تم نقلى ولم يعد
في إمكانية الاتصال . .

بقيت في حجرتي الجديدة حوالي أسبوع . . لا تحقيق ولا اتصال من أى
نوع . . وفجأة فتحوا باب حجرتي في الساعة الثانية صباحاً وطلبوني لتحقيق . .
نوع من الإرهاب . . وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق
ونحن في يناير والشتاء قارس البرودة ؟

فتحوا المحضر وسألوا :

— أقرالك ؟

— بالنسبة لماذا ؟

— حين توفيق اعترف عليك بكذا وكذا وكذا . . .

عرفت أن حين اعترف بكل شيء . . أدق التفاصيل ذكرها . . لم ينس شيئاً على الإطلاق . . وكان عقله آلة تسجيل . .

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تميع للقضية . . ولكن بقي ركن هام لإفساد القضية إفساداً تاماً . . وهو التعذيب . . فكرت بسرعة وقلت لوكيل النيابة : —

— كل ما اعترف به حين توفيق غير صحيح على الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجهتهم واحداً بعد الآخر . . وسأرى بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكروا بعضهم . . ثم إن هناك شيئاً هاماً يجب أن يثبت في التحقيق . .

ماذا ؟

— أنكم استدعيتوني للتحقيق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

— هذا مثبت بالمحضر . .

— أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عملية تعذيب — فقد أبقتهم في النوم في حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذي فعلتموه قد أصابني بهزة عصبية شديدة .

أثبتوا ما قلته . . ثم أقفلوا المحضر وهم في غاية الاطمئنان فقد كانت القضية في نظرهم منتهية وخاصة بعد اعترافات حين توفيق وغيره . . بعد ذلك كانوا يرسلون في طلبي أثناء النهار . . ومرة سألوني :

— أليس لديك أقوال جديدة ؟

— لا . . أبداً . . على العكس أنا ما زلت أصر على مواجهة جميع المتهمين . .

وكيل النيابة وجد أني ثابت . . بدأ يهتز . . فأخذ خطأ جديداً في التحقيق . .

— تعرف عمر أبو علي ؟ تعرف فلان ؟ أجبت أني طبعاً أعرفهم جميعاً . .

فهذا شقيق صديق قديم لي . . وذاك عرفته بمناسبة كذا . . وكذا . . وجدت مبرراً لمعرفتي بهم . . ولكني أنكرت . . بل استنكرت أن تكون معرفتي بهم أية صلة بما يدعونه في اعترافاتهم والدليل على صدق كلامي أن مستمعي لمواجهتهم واحداً واحداً .

بدأ الخوف يذب إلى قلب وكيل النيابة فأنا بإصراري هذا أضدت ما قلوه فأمر بإعادتي إلى زنزاني وتركتني أسبوعاً يأكله دون تحقيق . . في خلال هذا الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه . . كيف يدينني وكنت أنا أيضاً أفكر كيف أفسد القضية . . وأهتديت في تفكيري إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذي صمد ولم يعترف بأي شيء هو ابن خالة حين توفيق وكان شاباً صغيراً اسمه محمد كامل . . اتصلت به عن طريق السجن فوجدت منه استجابة أسعدتني كثيراً . . فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معاً يمكننا إفساد القضية تماماً . . (هذا الشاب محمد كامل هو وزير الخارجية الحالي)

في هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان على اتصال دائم بحين توفيق وبقيّة المتهمين . . يسر معهم كل ليلة ويرسل في طلب العشاء لهم من خارج السجن . هو إذ أن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه . . قررت أن أسبغ .

في ليلة فجأة طلبت استدعاء مأمور السجن وقبل أن يسأل عن سبب استدعائي له فاجأته بقولي : —

— أريد ورقة وقلماً لأكتب برقية إلى النائب العام . .

أحضروا ما طلبت فكتبت برقية أطلب فيها إرسال وكيل النيابة للتحقيق لأنني أعيش تحت ضغط شديد . . ووكيل النيابة الحق يقريدي أن أعترف بأمور لم أرتكبها إطلاقاً . . ومأمور السجن وضباط البوليس السياسي يمارسون معي أقصى أنواع التعذيب . .

قرأ مأمور السجن هذا الكلام فاندحش : —

— ما هذا الذي كتبت ؟ من هم ضباط البوليس الذين عذبوك ؟

— توفيق السعيد والجزار .

- ولكن متى وكيف ؟

- هذا شأني

كان سبب هذه الحكاية التي ألفتها أنه في يسوء من الأيام قبل نفي من المور الأرضي إلى المور الأعلى فتح باب زناشي الضابط توفيق السعيد لكي أخرج رأسي في هذه السجن مدة أربع ساعة عصية كل ما فعل دحور . . . كنت أعرفه ويعرفني منذ إقامتي بسجن الأجانب في سنة ١٩٤٢ فتبادلنا التحية وإذا به يقول لي : -

- مفيش داعي يا أنور للإنكار . . كلهم اعترفوا . . وليس هذا فقط . . بل أخذونا معهم إلى مخزن الأسلحة في جبل المقطم وأتينا بالأسلحة من هناك ، بمعنى كل شيء ثابت والقضية اكتملت فقيم إصرارك على الإنكار ؟

قلت : هل تريدني أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدنى شك في أننا قتلنا أمين عثمان ؟ نعم قتلناه - لأنه حائن ويستحق الذبح !

قال مستكراً : أمرك غريب والله . . هل نسيت أن في البلد قانوناً ؟

قلت : أعرف أن هناك قانوناً ولكنه لا يبرى على الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نتولى نحن أمرهم . .

قال : على أي حال أنا سعيد لأنك اعترفت . . فالإعتراف سيخفف الحكم عليك .

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق . .

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقاً ؟ أما قلت لك هذا لأخذك وجه لوجه وبو كك معاً أنت من شهود ما قلت لك شيئاً لأن العبرة في الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود . . هل نسيت ؟

قال : لا تتعب نفسك على أي حال . . فالكل اعترفوا . . ويكرهون بحثي في شيء . .

قلت : سنرى . .

اختزلت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها في نوقت مناسب . وبناء عليه أرسلت البرقية إلى النائب العام استغيث به . . وأعطينا مأمور السجن الذي نزل بها إلى وكيل النيابة القاويش ففتح المحضر وثبتت البرقية فيه . لم يكن يملك أن يفعل غير هذا ورغم أن التحقيق كان مازال سريراً بلائمه عندما تزول السرية وأبلغ المحامين أن أرسلت برقية نائب لعمده وأنه ثبت في المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلى آخرها

استدعاني القاويش بعد ذلك فنزلت حيث رأيته جالساً وإلى جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار وابتدأ التحقيق .

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيباً وقع على .

س : من الذي عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار .

س : تركوا علامات على جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات . . يكفي أنهم شتموني

وصفعوني على وجهي وضربوني بالشلايت فهل ترك هذه أي آثار ؟

ثم لأنهم يريدون إجباري على الاعتراف . . توفيق السعيد حاول هذا

أكثر من مرة . . وقال لي لكي يغريني على الاعتراف بأنهم ذهبوا

إلى جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التي يقول لي أنفيها هناك .

بدأت الدهشة على وجه القاويش لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق والمفروض أن يواجهني هو بها . .

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا . . التف
إلى توفيق السعيد وقلت : -

- في اليوم التالي ألم تفتح باب حجرى على في الساعة الثانية صباحاً ؟ ألم توقظنى
من النوم في البرد القارس وتهجم على ؟

- توفيق السعيد أجاب : أبداً . . لم يحدث هذا .

قلت : حاول أن تذكر جيداً . .

وراح توفيق السعيد يصرب كفاً بكف ويظهر إلى باستغراب .

قلت : هذا حصل .

قال : أبداً كل ما حدث أنى قابلته في فسحة العصر ودار بيننا حديث .

قلت : أبداً . . الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل . وانت اتهجمت على

وشتمنى وضربتني . . وقلت لي إذا لم تعترف فسوف تلقى أسوأ مصير . . لأن
القضية جاهزة . . وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع .

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كفيلة بهدم القضية وخاصة عندما تخرج
إلى حيز العلانية ويتناولها المحامون ويستغلونها أحسن استغلال . .

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك . . فواجهنى بالتهمين ما عدا حسين توفيق . .
بعضهم قد اعترف وتمسك باعترافه . . أما عمر أبو على فكانت واثقاً منه . .

نظرت إليه ففهمنى مباشرة . . أنكركل ما سبق أن قاله . . جن جنون القاويش
إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتى إلى الزنزانة . . راجعت مع نفسى
كل ما حدث . . كنت مرتاحاً إلى أن عمر أبو على أيدنى ثم أنى أثبت التعذيب . .
ولكن ما زال هناك شوط على أن أقطعه . .

طلبت مأمور السجن . . حضر إلى زنزانتي . .

- ورقة وقلم . .

- مرة أخرى ؟ ما الذى جد ؟

- هذا شئ

أحضروا الورقة والقلم . . وكتبت إلى النائب العام : « أرجو إنقاذى من

وكيل النيابة المحقق . . لقد سبق أن استغثت بك من التعذيب الذى حدث لي
وقد أخذ وكيل النيابة أقوالى وأقوال من عذبونى ولكن التعذيب مازال مستمراً . .
ولذلك فأنا أطالب بوكيل نيابة آخر يحقق معى . . علماً بأننى مضرب عن الطعام
منذ هذه اللحظة احتجاجاً على ما يحدث لي . . وقد طلبت من مأمور السجن
أن يفتش حجرى ليتأكد من أنه لا طعام بها . .

أرسل القاويش وكيل النيابة في طلبى وفتح المحضر . .

- أنت مضرب عن الطعام ؟

- نعم .

- السبب ؟

- التعذيب .

- من الذى يقوم بتعذيبك ؟

- أنت أولاً ثم الجزار وتوفيق السعيد . . ومأمور السجن الذى يأمر
بحاله باقتحام حجرى في الليل والتهجم على بالى والضرب ثم يتسحبون
ليعاودوا التهجم مرة أخرى وهكذا طول الليل . .

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمهم . . طبعاً أنكروا . . وخصوصاً
مأمور السجن الذى أكد أن شيئاً مما قلته لم يحدث على الإطلاق . . تمسكت
بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفى من كل هذا تقويض أركان القضية . . وخاصة أن
محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو على غير
أقواله . . لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجهنى بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم
انحيازاً إليه وهو حسين توفيق . .

وفعلاً تمت المواجهة في الحال . . حسين توفيق أصر على موقفه . .

الفصل الثالث

نحو تحرير الذات "الزنازة" ٥٤

١

كانت الساعة الخامسة والنصف مساءً عندما وجدت نفسي داخل الزنازة ٥٤ في سجن قره ميدان . . وتلفت حولي . . كل شيء يختلف اختلافاً تاماً عن سجن الأجانب . . فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور . . ولا أي شيء على الإطلاق . . فقط أرضية الحجر المصنوعة من الأسفلت وفوق حرم منها « برش » من الليف الخشن بالكاد يكفي لكي يحمي عليه الإنسان لينام ملتجئاً ببطانية قذرة إلى أبعد حدود القسوة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت . .

أما حيوان الزنازة ففي الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تعطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها . . كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟ . . لم أعرف . ولا أعرف إلى الآن . .

هكذا عشت سنة ونصف كاملة . . لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقاً . . ففي هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالتدريج جميع المتهمين في القضية إلى سجن قره ميدان . . كل في زنزانه منفردة بطبيعة الحال . . فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق . . بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنازات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص وقاتل وتاجر مخدرات وحرامي الخزن . . ! وكان هذا الأخير - كما علمت - أكثر الناس احتراماً في نظر المجرمين . .

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يومياً ثم بعد أن قدمونا لناضي الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع ساعة صباحاً ومساءً بعد الظهر . . وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء والكلام . . وتكلمنا . . كل كلامنا تقريباً كان يدور حول ما نعيشه في هذا السجن اللعين . . وخاصة دورات المياه

واخترعت أنا قصة أفسر بها معسرفتي بحسين توفيق ومقابلاتي معه . . وطبعاً كانت بعيدة كل البعد عما حدث . . حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت . . ولكني أصروا على أن هذه هي الحقيقة وأبدت دهشتي لقدرته على تشويه الواقع وحاولت أن أوحى إلى حسين توفيق أن الإصرار على هذا الكلام معناه الإعدام . . بدأ حسين توفيق هو الآخر يهز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأبى التحقيق على الفور . . ولكي يتخلص مني . . لكي يبعدني عن بقية المتهمين حتى لا يؤثر عليهم وبذلك يتغير مسار القضية . . أمر بنقلي فوراً إلى سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومي حيث أودعت الزنازة ٥٤ .

التي كان يستحيل على أي آدمي أن يقضي بها حاجته فإلى جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن ترضي العين مثلاً . . . كان علينا عندما نضطر إلى اللجوء إليها أن نقضي حاجتنا جميعاً . . . هكذا كما يفعلون في الأدغال أو ربما في الريف . . . ولكن في الخشبة أسوأ بكثير . . . فالأرض هناك واسعة . . . ولكن هنا في السجن كانت حافة دورة المياه ألف شخص في حين كانت حمولتها دائماً ثلاثة آلاف في أي وقت . . . وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية على معنوياتنا بل لقد كان السبب في تخصيص عمر للحرب في كل سجن من سجون مصر . . . فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض . . . لأنهم ينتقلون أصلاً من بيئة قادرة إلى بيئة أكثر قذارة وهي السجن . . . فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة . . . كما سبق أن انتشر عندما في معتقل الزيتون في الأرناب . . . وهكذا بقدرته قادره أصبح لا فرق بين الأرناب والآدمي في السجن . . . (وقد عالج كل هذا بعد أن توليت) .

عشاً سنة كاملة في هذه المعاناة التي لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملها أنا بفضل نشأتي بالقرب وللخشونة التي اكتسبتها من خدمتي بالقوات المسلحة فعلى هذه المسائل لها أثرها دون شك . . .

من خلال وساطات بعض أهالي المهجين معنا من الأكابر سمحوا لنا في مرحلة متأخرة - بعد سنة تقريباً - بالأكل بالمعلقة . كما ركبوا شبايك زجاج فوق شباك الزنزانة الذي لم يكن سوى كوة في أعلى الحائط مفتوحة على الدوام لبرد الشتاء وحبس الصيف . . .

في هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك دكاناً في موحية السجن في الإفسار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والجبن أيضاً . . . لا أدكر . . . وكنت أدكر أني لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد منذ . . . لإفسار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف في الشهر . . . وكان أهلي في كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه . . .

في يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقي طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهرياً لأسرتي . . . تماماً كما سبق

أن فعلى إخواني الضباط وأنا في معتقل ماقومة بالبنيا . . . ولكن توقفت المعونة المالية بعدما اتى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى وأنا عدت إلى السجن كأن ما زال لا أثر لها على الإطلاق . . . ربما تسواساعهم بقه . . .

وأخيراً أتى الشيخ حسن البنا يعطى لعائتي عشرة جنيهات شهرياً . . . وشقيقى طلعت لا يجد ثمن إسطرى ولا حتى ثمن راحة من ملح المواكب . . . ثمناً في ذلك الوقت ١٢ قرشاً . . . وملح المواكب بدأت أنأوله أول شيء . . . وأنا في السجن وما زلت إلى الآن استخدمه . . . فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكنني فيها الاستغناء عنه إطلاقاً . . . أصف إلى هذا ثمن إيجار السرير والمنفذة والكرسى بعد أن سمحوا لنا في السجن باستعصامها ما دما تحت التحقيق ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجاراً يومياً قدره عشرة . . .

ورغم أن سجن الأجانب لم يكن تزلأؤه إلا من أسافل القنوء ورغم أن السجون العمومية هي لأبناء مصر . . . لكن التفرقة كانت واضحة . . . فهد ندفع . . . وندفع مقابل ماذا ؟ مرتبة من قش الأرز صلبة خشة وذو ربح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر . . . أما هناك فالفرش وثيرة والبور كهناتى متوفر وكذلك الطعام . . . وكل هذا بدون مقابل . . . تميز عنصري حتى في السجون بينما نحن أبناء الوطن وبين الأجانب .

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلى الأسكندرية هكذا على نفس الطراز . حتى أني لما ذهبت في ٦ أكتوبر ١٩٧٥ لأهدم سجن طره كرمز لإنهاء امتهان كرامة الإنسان وأمسكت المعول بيدي أضرب به أحست أن جدران السجن هي نفس جدران سجن قره ميدان ، فالطوب تحت المعول مثل هش من المياه التي تتخلله وحتى قبل أن أصل للطوب . وأنا أزيل الطلاء أحست بالرطوبة ورأيت الصراصير تخرج من بين الطوب والطلاء . . . جيوش من الصراصير لاحصر لها . . . كان مظهرها قبيحاً ولكني لم أترك لمعوس حفرة . . . صبت أضرب في الحائط وأعصابى مشدودة فلا بد أن أزيله . . . حاولوا أن يوقفوني . . . ولكني رفضت وقلت لهم أنا غير . . . المهم أن ترون هذه السجون ونحل عمه سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان . . . ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية . . . وفي الوقت نفسه نصلح للنتاج بحيث لا يقضى

السجن طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة على المجتمع . . بل
يجب أن نجد ويستعيد فيخرج من السجن بحرق حديدة تعلمها ونعوض المال
الذى يستطيع ادخاره في السجن مقابل عمله وفعلنا بدأنا التجربه في السجن
الذى أقنناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود على طريق مصر
اسكندرية الصحراوى وإلى جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضى بها
المسجون نهارهم يزورونها خضراً وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان
وأصبحت في مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب . .

نعود إلى قره ميدان . . في أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاويش دائم
السمى بطيعة الحال إلى إقامتنا . .

قبل أن أقل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخى طلعت ليأخذ ملابسى
للتفصيل كالعادة وكنت قد وضعت في جيب البيجامه ورقة بها رسالة باللغة
الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاويش في الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلى مكانها
بالبجاما . . أحس أخى طلعت وهو في طريقه إلى البيت أن هناك من يتبعه . .
أدرك أن هناك شيئا ما . . في البيت وجد الورقة نقل الرسالة التى تحملها وترك
الرسالة الأصلية في جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس . . وفى عودته
إلى السجن كان مرارا تحت المراقبة وكان القاويش ينتظر التبعة . فتح جيب
سجنت فوجد الورقة - الرسالة الأصلية - في مكانها ولكنها قد أصبحت عجزة . .
ذهب المستند من كان يتبعه إلى حاب أمته وأرداد حية عندما علم من رجاله
أن الرسالة لم تلبس إن أبة حية . . فقد بلغها أخى مذمت في الساعات الأولى
سحروى يوم كان واقفاً به من أن أحداً لم يفكر في أن يتبعه . .

كذلك استطعم ، أ . كنه من المديين وأما التنظيم ، ب ، فقد كان خلطاً من
لسكريين والمديين . ولكن لا أحد يعرف أن الآخر في التنظيم . .

أراك يا عمريرى القارئ تتساءل إلى من بلغت الرسالة فأجيبك على الفور . .

إلى من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف
وكيل النيابة في هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبرائتى) .

بعد عودة الملابس مباشرة أتى إلى السجن القاويش وطلب التحقيق معى
أعطائى ورقة وقلماً وقال . . اكتب وأملأنى

FORMATION A out of action all

FORMATION B got in touch with me

فهمت أن الرسالة التى بحث بها قد وقعت في أيديهم

بحروف مفردة . . ولكننى كتبها الآن بالخط المشك . . فعاد . .

بالحروف المفردة . . أنا عادتى أميل الكتابة لليمين أو أفقت في الوسط . فعصمت
أن أميلها للشمال . . كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف مفردة واشتكت فقد
كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التى عنده . ويصح لسه
مستند يحقق الأمل الذى كان يراوده وهو أن يقع في يده تنظيم الجيوش . ولكن
خاب ظنه .

لم يأتى القاويش إلى بعد ذلك الإمتحان الذى فشل فيه .

كان بقية المهمين في القضية - « الأولاد » كما كنت أسميهم - قد بدأوا
يفقدون إلى سجن قره ميدان كما سبق أن رويتم . . وكان معنى هذا أسوأ حال
تحت التحقيق إلى أن تذهب لقاضى الإحالة الذى له أن يحكم بتحويلها إلى
محكمة الجنائيات أو باعتبارها جنحة لا ترقى إلى جنائية . . أو أنها لا شئ على
الإطلاق فيفسرج عن المهمين . .

بمجرد أن عرضت القضية على قاضى الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها
المحامون فوجدوا أننى قد قوضت أركان القضية بالإنكارى وتكذيبى للآخرين
وانتهامى مأمور السجن ووكيل النيابة وغيرهم بتكذيبى . . ووجد المحامسون في
القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامى يوصى موكله بالإنكار قالوا لهم « لو أنكم
استمعتم في بداية الأمر إلى نصائح أبور السادات ٢ . إنه رجل . . أما أنتم فما
زلم صبيه صغاراً . . كان عمرى ٢٧ عاماً في ذلك الوقت أى سنة ١٩٤٦ أما
أعمارهم فكانت تتفاوت بين ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة . . كنا سبعة وعشرين منهم

في القضية وكان رفعى السابع أى كان أمامى ٦ وخلفى عشرون . . . وصع
تختلف قيمة كل منا عن نهم الآخرين ولكنها تدور جميعاً حول مقتل أمين
عثمان . . . أفرج قاضى الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة . . . بينما ظل الباقيون
وكنتم منهم طبعاً في السجن تنتظر المحاكمة .
ولكى نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى . .
ولكن بدون فائدة . .

هكذا مرت سنة ٤٦ ثم أتت سنة ٤٧ ولم يكن فيها من جديد سوى أمه
حددوا لنا دائرة جنابات . وكان موقف المحامين في هذه المرحلة طلب التأجيل
مرة بعد أخرى ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة - مجرد كسب
وقت - ونجحوا طبعاً . . فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنابات إلى
دائرة جديدة . .

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامى مصر . . وكان الواحد
يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حافزهم
في العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عضت سيادة القانون . فلم يصبح هناك
أى مجال للمحاماة أو القضاء . . وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعي اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون . .
أصبحت الحاجة ملحة إلى المحامين للعمل على رفع الظلم عن الناس . .

وبعد الانفتاح زاد الطلب على المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبي
يغد إلى مصر من أحد المحامين لكي يرفع شؤنه . . وبذلك عاد الكيان لا إلى
القضاء وحده بل إلى المحاماة أيضاً .

٢

مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته . . هما الحرب
والسجن . . وفي الزنزانة ٥٤ عشت مع نفسى . . تلازمنى والأزمها ليل نهار . .
لم تكن هذه الفرصة قد أتت لي من قبل . . فقد كنت مشغولاً بأشياء كثيرة
أعمل بالجيش واشغل بالسياسة بينما كان تيار الحياة اليومية يمر فى معي أينما

ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة ٥٤ دون أن تكونى مسد
بالعالم الخارجى . . فلا راديو ولا صحف ولا أى شيء على الاتصال
وحدة رهبة لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أغرق
نفسى . . وفعلت عشت معها ولكن رغبة هذه معاشة لم تستطع أن تلبس
إليها كأن شيئاً ما يقف بينى وبينها . .

ظلمات كنت أعانى منها من زمن ولكنى لم أدركها تمام إلا بعد أن استطعت
أن أنقلها إلى منطقة الضوء .

وعندما سمحوا لنا في السجن بالكتب ومجلات ولصحف كنت عبيد 'قرف'
في نهم وأجد في كل سطر شيئاً جديداً يفتح أمامى آفاقاً أعرفها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءاتى باللغة الإنجليزية وفى جملة العربية وعدم
كانت تستهوينى فكرة أو قصيدة شعر أو أى شيء فيما 'قرف' كنت عبيد
ما يروقنى في كراسة ما زلت أحتفظ وأعزها كل الإعتراف . . . في
السجن . . وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر على حياتى من . . .
ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءاتى المتعددة على توسيع آفاقى الفكرية ونمطية بل
لقد ساعدتني هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات . . . واستطعت أن
أتخلص من أزمة عصية كنت أعانى منها منذ زمن وكانت بسبب تقضى عن
في الساعة الثانية صباحاً في برد الشتاء القارس في كل من عامى سنة ٤٢ . ٤٦ .
لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكنى كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى
الروحى . . إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسى فطقت هذه المعاناة على السطح
تلقائياً . . أسبوع واحد في السجن يكفى لهذا . . أما كيف تخلصت من هذه الأزمة
فالفضل يرجع إلى مقال قرأته في 'الهدى' وديروز دايجست . لأحد علماء النفس
الأمريكان . . كانت خلاصة المقال أو النتيجة التى وصل إليها الطبيب النفساني
بعد تجارب ٢٤ سنة هي أن الإنسان في أية مرحلة من مراحل حياته معرض
لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شيء حوله مقلق . . وكأنه
في سجن لا باب له . .

هذا ما جعلني أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأنني لم أكن أريد شيئاً . . . لم تكن لي مطالب من أي نوع وفي أي وضع كنت . . . عضواً في مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية . . . كسب لاسم . . . أو رئيس مجلس الأمة . . . لم يتغير حيي لعبد الناصر أو تخلف مشاعري نحوه . . . فأنا إلى جانبه متصراً كان أو مهزوماً . . . ولعل هذا ما جعل عبد الناصر ينتفت حول له بعد ١٧ سنة وينتبه إلى أن هناك إنساناً لم تقم له سنة واحدة معركته يوماً ما

وهذا ما جعلني أقول إن الحب ينتصر في النهاية . . . فلم يكن من السهل أن تقول المناوئة من عبني عبد الناصر . . . وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله . . . يغم على واحي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها . . . ولكنها كانت موجودة . . . عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون . . . من فقد كسب من انفعال وانفعال . . . القلق يأكله أكلاً فقد كان يفرض شئ في كسب . . . مستند . . . وكانت نتيجة الطبيعة لكل هذا أن خلف عبد الناصر . . . وورثته رهب من حديد سوء بين زملائه أقرب من إليه أو داخل السد من جمع صانه

ولكني كما قلت وكما زلت أكرر . . . انتصر الحب في النهاية . . . هذا الحب الذي كان وليد المראה والألم في الرزانة ٥٤ . . . فلا شيء مثل المعاناة يصفل النفس ويزيل عنها الصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل . . . فقد تكشف لي أنني بطبعي وتكويني أحب الخير . . . وأن الحب هو الدافع الحقيقي لكل ما أفعل . . . وبدون الحب لا أستطيع فعلاً أن أعمل . . .

لقد مسحني الحب اليقين والثقة الكاملة في نفسي وفي كل شيء حولي . . . فحبتي للكون مستمد من حبتي لله عز وجل . . . ومادام الخالق صديق فقيم الخوف من البشر ؟ . . . إنه هو الذي يملك أمرهم وأمر الوجود كله . . .

بهذا الإحساس الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ مني . . . والذي كان كذلك طوال حياتي ولكن دون أن أعيه وعياً كاملاً . . . ارتفعت فوق المكان والزمان في الرزانة ٥٤ فلم يعد المكان الرزانة ذات الأربعة جدران . . . بل اتسع بحيث شمل

الكون كله . . . أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبي حب سيد الكون فاستول على وأصبحت أشعر أنني أينما كنت فأنا منه قريب . . . يقول تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . . . صدق الله العظيم

أصبح صديقي الذي نملأ صداقته كل كياني ونملأ فراغ الرزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة . . . فقد كنت معه أحبه وأعبد في كل ما خلقت . . . كم أصبح كل شيء مصدراً للبهجة والسعادة فالكمل أصدقائي لأن الكل من صنع الله . . . الشجرة التي أراد لها أن تكون فكانت والحبة التي نبتت بإرادته التي هي حبه . . . والزهرة والجبل والشمرة والجذور والفروع والبشر على مختلف ألوانهم وطباعهم . . . كل ما في الوجود أصبح موضع حبي . . . لأنه كان مثلي كان ويكون بحب الله له . . . وبحبه لله . . .

٣

مما تعلمته في الرزانة ٥٤ أن العاقل هو من يحرص على النجاح الداخلي لأنه سيظل دائماً متوازناً داخل ذاته صادقاً مع نفسه والصدق مع النفس يعني الصدق مع الناس . . . وأنا لا يهمني النجاح الذي يراه الناس في بل النجاح الذي أراه أنا في داخل نفسي وأرتاح إليه . . . هذا النجاح يعتمد أساساً على معرفة الذات ولذلك فمن يؤمن . . . يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ في الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل على مدى اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال . . . إن النجاح الداخلي قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأي مؤثرات خارجية على عكس النجاح الخارجي الذي يهتز ويتغير من وقت إلى آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمه دائماً نسبية .

أغلب الناس يبهروهم النجاح الخارجي . . . ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان . . . باختصار صورتهم في نظير الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإنهيار . . . فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائماً تبر

مجتمع إنساني أن يقوم بدون أن تكون في بوثة شعوره باستمرار . . . وهي أن الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهي مطلقة على الدوام ولا يمكن أبداً أن تكبر . . .

يقول تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » .

صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دوراً تميز به عن جميع الكائنات . . . ففي التوراة يقول تعالى : « إن الله قد خلق الإنسان على صورته » . وفي القرآن : « نفخ فيه من روحه » . وكل هذا يحتم على الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتهى المعنى لوجوده . . . فالأصل في هذا الوجود هو حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها . . .

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر . . . ولكنها في جميع الأحوال تهدف إلى تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حملته الأمانة . . . فإذا خلت حياة الإنسان من رسالة يؤديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكي يؤدي الإنسان الرسالة التي خلق من أجلها ، يجب عليه أن يستمد كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية . . . بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين بالولاء لما هو أكبر وأبقى من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها في هذه الحياة . . .

هذا بقين توصلت إليه في الرزمة ٥٤ وأصبح جزءاً لا يتجزأ من كياني فإذا انقضى يوم بدون أن أفعل شيئاً نحو هذه الذات التي هي أكبر مني وأشمل بت غير راضٍ عن نفسي ونساءلت ماذا فعلت بالأمانة التي أحملها يوماً بأكملها ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك . . . لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع . . . ومن زمن إلى زمن . . . حسباً بقيد مبادئ كل من وجهة نظره . . . فبراه العظم المائدة وبراه الآخرون عدم النفع . . . أو ربما كثير الضرر . . . وهكذا إلى أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان وبالتالي يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث في المجتمعات العاشية مثل المجتمع النازي أو الشيوعي حيث

تكون قيمة الإنسان مرهونة دائماً بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسح البشر أو يحلهم إلى أنصاف أمة في الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعي . . .

وفي كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة في ذاته ويُسلب حق حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشحنة المقلصة التي خلق ليضيء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتي بعده من أجيال . . .

فنعلمنا تصبح قيمة الإنسان نسييه تزول الموازين الآلية بل والوضعية أيضاً . . . إذ يصبح لا مكان لما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها سيادة بعض الأفراد ممن هم أسرى النجاح الخارجي والذي يصبح المقياس الوحيد الذي يقيسون به الناس مما يؤدي بالضرورة والختمية إلى ضياع القيم الإنسانية العليا التي من أجلها وجد الإنسان . . .

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة . . . وأغلب البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التي بناها الإنسان على مر العصور . . . وفي اعتقادي أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التي تعانيها هو العودة إلى هذه القيم والإصرار على وضعها موضع الصدارة في جميع مجالات الحياة . . . ولذلك تجددني لا أكف عن الدعوة إلى تبني قيم القرية المصرية ربما بشيء من التطرف أحياناً . . . ولكنني أرى فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع القوة الذي جربناه في مصر فأضاع القيم بأكملها . . .

في الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستي للجمهورية حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠٪ لأنها لا تتلائم مع تكويننا أو طبعنا . . . نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا . . . قام البناء على الرمال . . . وليت الأمر اقتصر على هذا . . . فأقبح ما واجهته لم يكن الوضع الاقتصادي المتدهور ولا الوضع العسكري المهين . . . بل جيل الحقد الذي نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة . . . ففي هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية ومع انعدامها يصح الشاغل الوحيد لكل فرد في المجتمع أن ينال أكبر قسط من النجاح الخارجي (الكسب أو الجاه أو القوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء على الآخرين .

من نتائج مجتمع الحقد والقوة حالة الضياع والخيرة التي يعيشها الشباب في مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيماً لمجتمع لا وجود له في ذاتهم ولا في تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الحديد وهو أحسن المجتمعات . . ومن هنا نشأ صراع داخلي مرير عند الشباب . . بين قيم جمالية ترسبت في وعيهم الجماعي على مرور آلاف السنين هي عمرهم الحضاري . . ومجتمع القوة الحديد الخالي من أي قيم والذي فرض عليهم فرضاً . . وازدادت حدة الصراع وأصبح نصيباً أماً محتوماً عندما رأى الشباب مجتمع القوة بنهار أمام أعينهم ومع ذلك صاروا يلقونهم أنه أفضل المجتمعات وأنوآها .

٥

في الرزاة ٥٤ بدأت الروابط التي تربط بمطالب الحياة تقطع الواحدة بعد الأخرى . . وما تحسنت الروح من أنفاسها تحررت الذات وانطلقت كما يفتقر نظير من ففصه إلى الفضاء الواسع . . إلى الكون بأجمعه . . إلى اللاهوتية . . مما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذلك فهو لا يمتلك شيئاً على الإطلاق لأنه سيظل عبداً لما يريد ولما يملك . . وبذلك فهو لا يكون . . فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلى ذاته يصح سدد نفسه . . فيكون .

فعندما يخرج الإنسان من الذات لضيقه بمعاناتها واضعالاتها السبوية يجد أمامه عالماً حديداً يعسره من قبل . . هذا العالم الحديد أرحب وأعني من الحياة التي أنفهم وهو أيضاً من نوع مختلف . . فيه تتحرر الذات بحيث تصبح كالمدى والجود فلا مانع ولا مكاب يحد أن يتوهمها . . وفي هذا التحرر تتحول إلى أداة من حب . . ولكن ما كان يمكن أن يعكس الضمور . . إلى سلام لا حدود له ويجد الإنسان سعده تفوق كل ما يمكن أن يسعده على هذه الأرض . .

من أجل هذا أدت السنة شهر الحيرة إلى في الرزاة ٥٤ وما زالت أسعد أيام حياتي . . فيها تعرفت لأول مرة على هذا عالم الحديد . . عام إنكار الذات . . تماماً بحيث أدت في غيرها من كدشات فتحت وانفصلت سيد الكون . .

طبعاً لم يكن هذا ليحدث قبل أن أخلو إلى نفسي وأعيش معها وأعرفها وبما لا شك فيه أيضاً أن قراءتي قد ساعدتني على اكتشاف هذا العالم الحديد أما لم أدرس التصوف ولكن ما وقع في يدي من كتب وتصوف وجد صدى في نفسي مثل لكثير من قراءتي في سجن فداي . . كما أنني أشعر به دون أن تصل درجة إدراكي إلى مرحلة الوعي العظمى . . ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التي قربت بيني وبين العالم الحديد الذي عرفته فيه السلام الروحي كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هي التي تبنى الإنسان وتحميه برب نفسه على حقيقتها . . وهذه الآلام تتدرج تحت الكثير من القيم العظيمة العليا مثلاً غدر الصديق في غفوق كل ألم آخر في الحياة . . ذلك صدم . . شيء مقدس ولذلك عندما يغدر بي صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمي . . وعندما أقرر الاستعانة عن الصديق لغدره في أشعر أن جزءاً من كبريائي قد اسلخ عني . . وأعاني من الآلام ما لا طاقة لشير نحمله . . من أجل هذا وما هو السيل إلى دفن أحزاني ؟

لم يعد هذا حالي بعد أن تعرفت على عالمي بالحديد وعشت فيه . . لذلك . . فالوجود الوحيد لذات الكون ولدت حب .

كان هذا العالم بالحديد فتحاً حقيقياً بالنسبة لي . . فيه عرفته صدق هو وحده عز وحل الصديق الذي لا يمكن أن يحوس أو يتحلى عشت . . في خلقك وكونك وحملك الأمانة وأعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا حب . . لا حدود له والخير الذي ليس بعده خير .

وهو يريد للحياة التي خلقها أن تسير شريفة . . قوية . . حبيبة بعدما عرفت صداقة الله . . تغيرت كثير . . فم أعد أحسن . . بل أن الخوف وأصبحت الحياة بالنسبة لي أرحب وأجمل وأوسع وراحت فترتي عن نحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التي على أن أحسها . . وصار لهم هدف في الحياة إسعاد الآخرين وأصبحت السمة على أية شدة وحكمة سرحة في قلب أي إنسان تسعدني كما لو كان قبي هو الذي يخلق فرحاً . . ومعد . . أو الحقد أي مكان في نفسي . . وأصبح يأتني بأن الخير دائماً يتصر حرة لا يتحرراً من وحداني . . وزاد إحساسي بحمد الحب وهو الأحسن حتى

صورته لى نشأتى بالقصرية كرباط يجمع بين الناس فى العمل والحياة . .
ثم غدته فى أمى خلال مراحل حياتى . . إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب
للحب . . كان هذا تكوينها الطبيعي . . مجموعة انفعالات حب لا يعرف
الحدود .

ولذلك فعل أكثر ما عانيت منه فى الزنانة ٥٤ هو شعورى بالفراغ العاطفى
فلكى يكون الرجل مكتملاً لابد أن تكون له رفيقة . . تحب ويحبها . . هذه فعلاً
أعظم نعمة فى الوجود . . فعندما تمتلئ نفس الإنسان بالحب يستطيع أن
يتم رسالته . . وبدون هذه العاطفة يعيش إلى أن يبلغ منتهى العمر وهو يشعر أنه
يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعورى فى جميع مراحل حياتى . . لم أشعر أبداً أن الحب كقيمة
إنسانية علياً قد تغيرت فى نظرى يوماً ما . . بل على العكس إذ اكتشفت أن
الحب هو المفتاح لكل شيء . .

حدث هذا فى الزنانة ٥٤ عندما تجردت من ذاتى فتمت بصداقة الله . .
وعمر قلبى بحبه . . وأصبح ظله سبحانه وتعالى يحترقنى . . وعندما أدركت أن
الحب قانون تستقيم به الحياة وتزدهر وتثمر وأن بدون كل شيء عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب . . وعندما أكرت هذه الذات وأذهبتها
فى ذات الكون . . أصبح الحب الشمولى لمصر - للكون - للخالق عز وجل -
هو المنطلق الذى مارست منه وما زلت أمارس واجبى فى الحياة . . فى الشهور
الأخيرة لى فى السجن . . بعد خروجى منه . . عندما كنت عضواً فى مجلس قيادة
الثورة . . والآن وأنا رئيس جمهورية مصر . .

هذا ما يجعلنى أدعو دائماً إلى الحب . . فهو المظلة التى تحمى الإنسان
من كل الأزمات . . كل من عرفه لن يعرف الجلب بل النماء والإزدهار لأن
الحب عطاء ولعطاء دائماً يبنى . . على عكس الحقد الذى ساد حياتنا فى الثمانية
عشر عاماً الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما فى طريقه هدماً ما زلنا نعانى
من آثاره إلى اليوم .

« وفى قد طويت من عمري صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتى

هذه أدعى للخير وأخلى من الشر . . وزينها بالحق وبرها من الباطل . واجعل
فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقينى أفضل اليقين . صحح
بما عندك يقينى . . هكذا كنت أناجى ربى كصديق . . فى الأسبوع الأول .
وفاة عبد الناصر قبل ولايتى . .

٦

كان من الطبيعي بعدما عشت عالمى الحديد حيث تخلصت الروح من كل
واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تنضح فى بعض
بعض مفاهيمى للحياة وأن يصيب التغيير نظرتى إلى كثير من الأشياء

لم يعد الحب بالنسبة لى عملية احتواء للحبيب بل عطاء وفناء فى ذات من
تحب . . وليس هذا الفناء معناه العلم . . فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة على
إزالة الحواجز بين الروح والمادة . . بين ما ترى وما لا ترى . . بين الذات
وخالق الكون . . وبدون الحب يعنى بصرتنا عن أن نرى « غيرانية » الغير .
فيتعذر الاتصال ونفقد أنفسنا فى أنفسنا . . ولا يقتصر الأمر على هذا بل يضيع
السلام الروحى . . وهو دعامة كبرى من دعومات الحياة فبدونه يفقد الإنسان
توازنه الداخلى ويدخل فى صراع مع نفسه لا يعلم متى ينتهى . .

عندما أنظر اليوم إلى الثمانية عشر عاماً الأولى من الثورة قبل أن أتولى
الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتى كانت فترة معاناة لم أدرك . . فى
الوقت ، فقد ظلت كامنة فى العقل الباطن . . ولكنها أحدثت خلافاً فى
توازنى . . عبد الناصر كان صديقى دون شك . . وعندما خرجت من السجن كنت
حريصاً على أن أبقى على السلام الروحى الذى اكتسبته فى الزنانة ٥٤ . . ولكن
حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خلافاً فى توازنى الداخلى وأنى
فى طريقى إلى أن أفقد سلامى الروحى . .

كان لابد من المحافظة عليه . . ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل وجسد وروح . . ولابد من الفسلاء لكل من هذه العناصر
حتى يتحقق السلام الروحى . . بلأت إلى المعرفة أهل معها ولا أتوقف عن القراءة

يوماً . . فهذا غذاء العقل وبالإيمان الذى لا يعرف الحدود ووضعت روحى
أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشى على الأقدام أربعة كيلو مترات
كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ على السلام الروحى الذى اعتقد
أنه ضرورة لا بد منها لكلى يؤدى الإنسان رسالته على هذه الأرض كما يجب
أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذى هو ثمرة السلام الروحى يعنى
الاستسلام للأمر الواقع أو على الأقل تقبله . . ولكن هذا غير صحيح فأنا
لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائماً تطويعه والسمو به إلى ما هو
أفضل . فنى اعتقادى أن الإنسان يجب أن يعمل دائماً ونصب عينيه مثل أعلى
يريد أن يبلغه . . فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة . . وإذا
خلت الحياة من الرسالة فلماذا نحياها وأى معنى لها ؟

وفى الزلزلة ٤٤ كانت المعرفة قريبة منى كما لم يحدث من قبل . . ويبدو
أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة والحياة الروحية . . فكلما نهلت من الواحدة
ازدادت الأخرى تضجاً - منوال دائم لا نهاية له . . ولكنه يؤدى إلى المزيد
من معرفة الذات ، وكلما ازدادت روية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته
على فهم ذاته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر محرراً وانطلاقاً بحيث
لا تهدف إلى منفعة ذاتية بل إلى طلب الكمال المطلق فى كل شئ .

وهكذا أصبح الجمال يلح على كل ما أرى وما أفعل . . أطلبه فى
جميع نواحي الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتى إلى المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التى هى فى الواقع ليست إلا سعيًا دائماً نحو الجمال . .
هذه المثالية التى أنحرو إليها بكل كيانى جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون
فهمى . . وغضبت بعض تصرفاتى فى عيونهم .

يسألني البعض ما هى السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرنى . . فانا لا أدعى أنى
درست السياسة وتخصصت فيها . كل ما أعرفه أن شئت بميول وآمان وأحلام
معبئة هى التى كونت شخصيتى منذ الطفولة إلى أن أصبحت رئيساً للجمهورية . .

هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلى هدف واحد هو تخليص مصر
من المعاناة والسير بها دائماً نحو الجمال والكمال . .

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكنى لا آخذ بهذا التعريف فإذا
قسناه على حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هى فن المستحيل . . فأيهما
أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه فى السياسة ولم أتبحر فى علومها . . أنا مجرد
إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسى فى كل ما أقول وما أعمل
والمعاملة بينى وبين الناس تقوم دائماً على الصدق . .

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدوننى رجلاً سياسياً يقول فى
نفس الكلمة التى يقولها أمام الميكروفون . . ولا يستل موقفاً
رخيصة . . أو لهتاف الجماهير . .

فأدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعيه
لا ذاتية مطلقة . .

ولذلك فالسياسة - فى رأيى - هى فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق
هذا الكون وهى العمران . . فى هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد
مطلقة لا يحدها سوى ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبت
من المجتمع نفسه فهى ثمار حضارته . . والحرية نفسها أجمل هذه الثمار
وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد فى هذا المجتمع أنه تحت رحمة
أية قوة من قوى القهر . . أو أن إرادته مرهونة بما يريده الغير . .

وبالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة . . ولكنها الدعامة
الكبرى لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور
والإيمان وبالتالي تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يشيد
من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله .

ولكن لكلى يقوم هذا المجتمع لا بد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا
مسئولية تنبع أساساً من وجدانهم الإنسانى وأن لا تكون أفعالهم مجرد
ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أجداد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلاعب

برؤوسهم . . . كما كان الحال مع هتلر وغيره . . . ففي مثل هذه الحالات لا مكان لجمع الحق والخير والجمال . . . لأن كرامة الإنسان لا تصح وضع أى اعتبار . . . بل على العكس تبرز حين يهدون قيمته المطلقة كإنسان ويحولونه إلى شيء من الأشياء . . .

أنا أنكلم من واقع التجربة والممارسة . . . فتورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جامعة إلى أن تنقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الحضارية التى يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم يحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية . . . ومنها أيضاً عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافى لا فى وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية . . . فقد كان بطبعه كثير الشك . . . ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأثمن ما فى الوجود وهو الإنسان . . . وليت الأمر توقف عند هذا الحد . . . ففي غمرة شكوكه وانشغاله بأمنه تحدثت آفاق الإنسان المصرى وأبعاده . . . وهكذا حدثت فى مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه . . . وهو آدمية الإنسان وإنسانيته .

٧

فى الزنزانة ٥٤ لازمنى الاحساس بأننى منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر . . . كان إحساساً صادقاً ، فقد حدث أن واجهت المخاطر فى جميع مراحل حياتى منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلى آخر لحظة قضيتها بالزنزانة ٥٤ . . . عندما بدأت بالنهجد لوجود رأى عام بالجيش . . . ثم جهودى لحماية مصر من غزو قوات هتلر والى أدت إلى فصلى من الجيش واعتقالى . . . وبعد ذلك محاولتى للتضامن على أصوان الاستعمار الإنجليزى وقضية أمين عثمان . . . والزنزانة ٥٤ حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل وحقاً كما كان يدولى . . .

كيف تنتهى القضية ؟ لم أكن أعلم . . . كل ما كنت أعرفه أن تربيتى فى الإتهام كان السابغ . . . وأن تهمنى يمكن أن تؤدى إلى الإعدام أو الأشغال

الشاقة المؤبدة . . . ولا وسط فى العقوبة . . . فلما أن تكون هكذا أو لا تكون على الإطلاق . . . أى البراءة . . . ولكن كيف ؟

. أثناء وجودى فى السجن قامت حرب فلسطين . . . كان ذلك فى منتصف عام ٤٨ . . . ويعلم الله كم عانيت وتألمت من الغارات الإسرائيلية على القاهرة . . . مصدر ألمى ألى فى النجى لا أملك أن أفعل شيئاً . . . وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس . . . شهر رمضان . . .

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسية . . . لا أكثر . . . وزاد فى اطمئنانى أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلى نصر أكيد . . . ولكن فحاة عقد الست عبد الله الهدنة التى أنقذ بها رقبة إسرائيل . . .

تم هذا طبعاً بالاتفاق مع الإنجليز . . . وكما أثار ما فعله الملك عبد الله غضبى ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جنرالات سجين فى الزنزانة ٥٤ ؟ لماذا عهدوا إلى الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذى دعاهم إلى هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟

رحلت أتناول مع نفسى وقلبى ينفطر مرارة . . . من أجل ذلك . . . وحتى لا يتكرر ما حدث . . . لا أكف اليوم عن الدعوة إلى أنه لا مجال للمعاجلات . . . وأنا يجب أن نضع النقطة فوق الحروف فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا وأنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه العبث بمصيرنا .

استغرقت محاكمتنا ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس سنة ١٩٤٨ وأذكر أنه عندما آتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة ، حاولوا وضع (الكلبشات) فى أيدينا فرفضت وقلت : إذا حكم على قافعلوا ما تشاؤون . . . ولكن الحكم لم يصدر بعد . . . وهذا الذى تحاولونه لا أقبله إطلاقاً . . . طعماً حدياً لولاد حلى . . . فاكنتى البوليس بأن يضعنا كلنا فى (لورى) كبير ليأخذنا إلى المحكمة ثم يسود بنا إلى السجن .

فى هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة - قليلاً - فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت . . . وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسنانى عند طبيب أسنان

أعرفه في الجيش اسمه أحمد علي - فمحوالي . . كانت الرحلة من القبة إلى مستشفى الجيش في كوبري القبة طريقة للغاية . . إذ كنت أقطعها في التاكسي وأمر سبي بمرمخ - مسرعة وسرعة - من القبة إلى المستشفى . . في المرة سابعة كاملة على الأقل في كل مرة . . نعم كان إلى جوارى دائماً أحد ضباط البوليس ولكن ماذا بهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض . . حتى تمتد الرحلة وتكرر . وفي كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . . ولكنه لم يقف ضاعاً إلى أن الطبيب كان يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا لصرص موضع الداء . . ما زالت متعني بهذه الرحلة عاتقة بهذا كرتي . . فقد كانت نسمة الخيرية لطيفة رغم قصرها . . وأحياناً كنت أتهز القرصة وأزور والدي الذي كان يعمل بمشنى الجيش . . ونشرب الشاي معاً .

. . . قدم متعني ضويلاً فتحة هرب حين توفيتي - وهو المهتم الأول - من السجن وكان . . شعر المباشر أن أوفيرا اخروجا مهما كان السبب .

واستمرت المحاكمة يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . كان الرأي العام كله معاً . . وكنت قد شككت في سلامة القضية بما يكفي كما سبق أن رويت . . هذا إلى جانب أن القضية كانت في أيدي كبار رجال المحاماة في مصر . .

تنت المحاكمة في أوائل يوليو ١٩٤٨ . . ثم جاء النطق بالحكم وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩٤٨ ، فذهبت إلى المحكمة وأنا لا أرتدى سوى بطلون رمادي واث وحائكة بيضاء . . فقد كان هذا كل ما عندي . . بدأوا طبعاً بالمتهم حين توفيتي . . وبمجرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غيائياً طبعاً) جافني إحاس بأنهم سيحكمون علي بالبراءة . . وفعلوا عندما أتت دوري أعلنت المحاكمة المهتم رقم ٧ ببراءة .

صدر الحكم في الظهر . . ولكن كانت التعليمات تقضي بالبقاء في السجن حتى الساعة الخامسة مساء فعدت إلى السجن وبقيت به إلى الساعة الخامسة مساء ، حيث سمحوا لي بالخروج . .

فررت الذهاب إلى حلوان وهناك بحثت عن بنين وخبص يتناسب مع ما معي من نقود قليلة . . وعشت أعالج معلق بمياه حلوان المعدنية وأنظر الأيام . .

الفصل الرابع

العمل من أجل قيام الثورة

كان من الطبيعي بعد أن قضيت ٣١ شهراً متواصلاً في السجن . . أن أشعر كأي قد ولدت لتوى في عالم جديد لا أعرفه . . ولذلك كنت أقصى وقتي متنقلاً بين البنسيون الرخيص الذي سمحت لي نقودي القليلة أن أقوم به . . وبين الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخي على أحد مقاعدها الخشبية أقرأ في صحيفة أو كتاب بعيداً عن الناس . . قانعاً بخلق . . أنامل ما أنا فيه . . وما حدث . . وما قد تأتي به الأيام . .

كنت أتعاشي الجلوس مع الناس أو الكلام معهم . . فلو أنني حاولت هذا لتطلب مني جهداً لم يكن في مقدوري أن أبذله ، فقد أصبح ما كان مألوفاً من أمور الحياة العادية عالماً غريباً بالنسبة إلى لا بد أن أتألم معه . . حتى أشعر أنني واحد من سكانه . .

أذكر أنني بعد شهر تقريباً من خروجي من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسي ورغم اتقائي القيادة فقد هالني أن أجد أنني لم أكن أعرف كيف أمير في شوارع القاهرة . . وانتهى بي الأمر إلى حادثة تحت نفق الجزيرة . . هكذا قضيت أيامي في حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء معلق بمياهها المعدنية إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلي وصديق القديم حسن عزت الذي بحث عني في كل مكان إلى أن أهدى إلى مقامي . .

كنت أصلي النجر عندما هبط علي . . وكانت نقودي قد نفذت تقريباً ولم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى .

- ما الذي يفعله هنا ؟ قم معي - تعال . .

قالها لي حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدوان الحجرة البالية التي كنت
أقطن بها . .

قلت : إلى أين ؟

وأجاب : إلى بيتي في السويس - هيا بنا . .

وارتديت ملابسى . . الجاكته البيضاء والبنطلون الرمادى - نفس الملابس
التي خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن عزت أن البنطلون
قد بلى من الخلف ، فقلت له ليس عندي غيره وحتى لو ذهبنا إلى بيت والدي
ما وجدت بديلاً عنه .

قبل أن توجه إلى السويس ذهبت مع حسن عزت إلى القاهرة حيث اشترينا
قمصان وفصلت بذلتين وكانت هذه أول مرة أرى فيها الجوارب السوكيت
التي يبدو أنها ظهرت وانتشرت في الأسواق وأنا في السجن - فأعجبني
واشترى لي حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعدما ركبت معه
سيارة وذهبنا إلى السويس . .

في بيته هناك التقيت لأول مرة بجيهان - زوجتي - حيث كانت في
زيارة لابنه عمتها زوجة حسن عزت - قضيت معهم بعض الأيام ، تبنيت خلالها
أب حسن عزت لم يبحث عني وياتي في إلى السويس لوجه الله . . فتدكان على خلاف
مع شركته في عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس - فأراد أن
يخفيهم بيطل قضية أمين عثمان حديث كل المجلات والصحف . . الذي
هو أنا طبعاً . . واشتركت معهم فعلاً في بعض الصفقات وكان نصيبى منها كما
علمت بعد ذلك ١٨٠ جنيهاً من الذهب أعطاني منها حسن عزت ٦٠ جنيهاً
وأخذ الباقي لنفسه وكان الخيئة الذهب في ذلك الوقت يساوى ستة جنيهات مصرية . .
ولذلك عندما عدت إلى حلوان لأستأنف علاج معدني . . وضعت المبلغ
في خزانة اللوكائنة حتى لا يسرق - وطبعاً لم يحدث هذا . . الذي حدث أن المبلغ
صرف عن آخره على إقامتي بحلوان . .

انتقلت بعد ذلك إلى بنسبون في وسط البلد بالقاهرة عاطلاً بدون عمل
بينما تراكم الديون على يوماً بعد يوم . . فذهبت إلى إحسان عبد القدوس وهو

صديق قديم لي . . لبيحت لي عن عمل . . قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن
بها مجالات للعمل - فاقترحت روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزاً لا تتحملنا
نحن الاثنين - وكان إحسان وقتها يعمل برور اليوسف وبتدار الهلال كعبا
للصياغة Rewriter وفي جريدة الزمان . . في ثلاثة أماكن في وقت واحد . .

ولكن حدث أن استغنى إحسان عن عمله بتدار الهلال ، فأخذني وقدمني لأصحاب
الدار . . الذين اشترؤا مني مذكراتي التي كتبها في السجن وبدأوا نشرها . .
ويبدو أنهم أرادوا اختباري للتأكد من أن المذكرات بقلمى - فأتاني شكرى
زيدان أحد أصحاب دار الهلال - وأشار إلى جزء من المذكرات وقال إنه
بحاجة إلى تطويل بما يساوى عموداً ونصف ، فقلت بكل سرور . . قال
إليك المكتب ولكن عليك أن تنتهى من الكتابة في خلال ساعة ونصف وهو
الزمن الباقى على إغلاق المطبعة .

فعلت ما طلبه وسلمته إليه قبل الزمن المحدد . . فقرأه وشكرنى وانصرف .

لم يخامرني أى شك في أن هذا كان نوعاً من الاختبار . . إلى أن أرسل في طلبى
صباح اليوم التالى ، وطلب منى أن أعمل معهم في دار الهلال بصفة مستديمة
وأن أحدد المرتب الذى أريده . . كان هذا أمراً مذهلاً لي . . فقد كنت أعرف
أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعاً بالقطعة .

قبلت العمل على الفور وأخذت مكان إحسان كعبد للصياغة . .

واستمر عملى هذا إلى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها - وعلى وجه التحديد

في ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ - قد تقدمت لخطبة جيهان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملى بتدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف

حسن عزت مع شركته في السويس فنقل إلى مصر . وطلب منى أن أشركه في

الأعمال الحرة . . لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهو زميل كفاح -

ثم إنه هو الذى خلصنى من الأزمة المالية التي كنت أعاني منها عندما تقدمت

نقودى في حلوان وقبل هذا وذلك كانت عندي نقطة ضعف نحو حسن

عزت كصديق يحبني ولا يخفى عني شيئاً ويعتبرني ضميره .

طبعاً لم يكن خروجي من دار الهلال أمراً سهلاً فقد تصوروا أني أريد أجراً

أكبر وعلى هذا الأساس بدأوا يساموننى ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت
العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صخرى في ٥٧ قرية من قرى محافظة
الشرقية باسم حسن عزت طبياً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل ..

انتقلت إلى الزقازيق عاصمة الشرقية .. وكنت قد تزوجت جيهان في
٢٩ مايو ١٩٤٩ م . فأخذتها معي حيث قضينا شهر العسل وما بعده في لوكانده
متوسطه الحال من لوكاندات الأقليم هناك .. التزمت بجدول زمني اثنيننا بمقتضاه
من العمليات في نصف المدة المقررة وفعلنا هذا .. فقد كنت أخرج من
الصباح الباكر لأعمل ١٥ أو ١٧ ساعة في اليوم .. ثم أعود في المساء إلى
زوجتي في اللوكانده .

أتمت العمل في ٦ شهور فخرجنا بربح يساوى ٦ آلاف جنيه وأعطينا
الحكومة شهادة تقدير طبياً باسم حسن عزت .. فرست علينا ٨ عمليات
مياه كبرى في المنيا بمبلغ ٦٠ ألف جنيه وكان هذا يعنى بالمعدل الذى سرنا
عليه .. ربما ما لا يقل عن ٣٠ ألف جنيه ..

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا في نوفمبر ١٩٤٩ . ولكن قبل أن نبدأ
العمل قلت لحسن عزت إننى أريد أن أستقر مالياً .. ففى المنيا لابد أن تكون
لى شقة أعيش فيها مع زوجتي .. ثم إن على التزامات مالية أخرى نحو أولادى من
زوجتي الأولى التى انفصلت عنها رسمياً في مارس ١٩٤٩ . راوغ .. ثم وافق .. ثم
قال إننى أنفقت في الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبياً لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من
الصحة .. ففى الزقازيق لم تكن عندي أى تكاليف إلى جوار اللوكانده المتواضعة
سوى ثمن السجائر - ولكن حسن عزت أصر .. عرفته على حقيقته وأشمازت
نفسى منه ومن السوق والعمل به فتركته وفى جيبى ١٢٠ قرشاً وكان لى عنده
٣٠٠٠ جنيهاً هى نصيبى من عملية الزقازيق ولكننى لم أطلبها منه .

كان كل همة أن أبتعد .. أن أنجو مما وقعت فيه .. فما قيمة المال إذا أصبح
دنساً يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا وآمال الشباب
والمبارك التى خضفها من أجل تحرير الأرض ؟ هل فعلت كل ما فعلت لكى

أصبح فى النهاية رجل أعمال كل همه أن يكسب من العمليات التى يقوم
بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التى عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أنى بعيد عن
نفسى .. غريب عن ذلك الإنسان فى داخل الذى عشت معه - وعرفته -
وارتمت إليه وكنت شديد الاعتزاز به فى الزنزانة ٥٤ ..

كنت حل ثقة من أنه لم يذهب بعيداً .. ربما لعبت الظروف دوراً فى
ابتعادى عنه .. ولكننى كنت شديد السعادة عندما وجدتنى أقول لحسن عزت
هند فراقنا .. كم أتمنى أن يكون عندك ١٠٠ ألف جنيه وأنا لا أملك شيئاً ..
لسوف أكون دائماً أكبر منك بما لا أملكك .. وأنت أقل منى بكل ما تملك .
لقد عادت ذاتى إلى .. وفى نفس اللحظة .. قررت أن أعود إلى الجيش ..
الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التى كانت بالنسبة إلى كل شئ ..

٢

هناك على شاطئ البحر الأبيض بلاج فى غاية الجمال كانت تشغله فى
سنة ١٩٤١ وحدات من الجيش المصرى وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات
وهناك فى الجراولة كما كانوا يسمونها .. تعرفت إلى ضابط طيب اسمه يوسف
رشاد كانت خيمته إلى جوار خيمتى وتصادقنا .. كان لابد من ذلك فهو دمث
الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غلبونه يفارق شغفيه ولا يكاد الكتاب يفارق
يده .. وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكان لا نكاد نفترق إلا ساعة النوم -
نظهور طعامنا معاً - ونأكل معاً .. وتحدث وتفكر ونقرأ معاً .. وما زلت
أذكر اليوم الذى أعطانى فيه كتاباً ترك فى نفسى أثراً صيقاً وهو كتاب
من تأليف « جون ستوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولى والحرية والحكم النيابى
وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر - ولكن صداقتنا ظلت كما هى -
لم يخذلنا شئ ..

يوسف رشاد هو أمل الوحيد فقد أصبح طبيباً فى الحرس الملكى ولا أعتقد

أنه سيرد لي طلباً . . فانتصت به تليفونياً وطلب منى زيارته في بيته . .
هناك شرحت له حالى - وكيف أن النيابة استأنفت ، وأن الاستئناف
قد نظر في أواخر عام ١٩٤٩ وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن
ما يمنع عودتى إلى الجيش .

واستمع إلى يوسف رشاد وهو يدحن غليونيه في هدوء وبدمائه المعهودة
وعندما استنصرت في أقرب وقت . . وماهى إلا أيام قليلة حتى اتصل بي يوسف
رشاد . وكان ذلك على وجه التحديد يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ وطلب منى أن أقابل
جيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان جيدر باشا في انتظارى وما أن رآنى حتى انهال على بالسباب . .

- أنت ولد مجرم . . تاريخك أسود . . و . . و . .

حاولت أن أتكلم . .

- لا داعى للكلام . . لا تفتح فمك على الإطلاق - وفجأة دق الجرس
فدخل كاتم أسرار .

- أقدم يا باشا . .

- الولد ده ترجمه الجيش النهارده . .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير
١٩٥٠ برتبة يوزباشى - وهى الرتبة التى خرجت بها - وكان زملائى في الجيش
قد سبقونى في ذلك الوقت برتبين . . رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارنى مهتماً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر . . علمت
من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً وأن قوته
تشهد يوماً بعد يوم . . وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن يختبر
هذه القوة - طلب منى أن أتقدمه لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من
رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى . . فسمها
كان شأنها سبيلها التنظيم وينخطاها . . وفعلنا هذا . . وحصلت على رتبة
بكباشى في وقت قصير .

طلب منى عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسى واضح . . لأنى بسبب
تاريخى النضالى لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال
من أن يكشف لى عن خريطة الضباط الأحرار في وحدات الجيش المختلفة ،
فكنت أزورهم وأبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لاعلاقة
لها بالسياسة . . فلم يكن من المفروض في التنظيم أن أكشف لهم عن نفسى
أو أن أشعرهم أننى أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصريوم تسلمه التنظيم من بعدى عمداً
قبضوا على في صيف ١٩٤٢ - وهى أن يظل تشكيل كل خلية سرا لا يعرفه
إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثانى بعدى في ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى ظل
على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين - والذى كان على
اتفاق تام معى في أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لآى
تنظيم حزبي لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأكملها لا فئة معينة . .

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال في السودان ولكن بمجرد
نزوله بكتيته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف
لضمه إلى التنظيم - فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين - وكانت هذه
هى القاعدة التى أرسيتها . . أى أن لا يضم إلى التنظيم إلا من كان متميزاً في عمله
بالقوات المسلحة . . فالضباط الممتاز موضع ثقة الجميع . . ومن السهل
أن ينقاد إليه الآخرون . .

استجاب عبد الناصر على الفور . . ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك
أن يزيح عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا
منه .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتى ، فقد
لجأ إلى تكوين خلايا سرية في الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخرى . . وتكاثر
الخلايا يوماً بعد يوم ، حتى شملت القوات المسلحة بأكملها وخاصة المناطق
الحساسة فيها مثل إدارة الجيش . .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد و... مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون من قائد التنظيم أو قاده... بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي بوليس السياسي... والمباحث الجنائية... والمخابرات الحربية للجيش... والمخابرات الخاصة بالإنجليز وال C.I.A. الأميركية التي دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية... هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة.

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حين وصلاح سالم ومن له صداقة عمر معه - عبد الحكيم عامر - ثم ممن كانوا أصلاً قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محيى الدين وأنا... .

قد يبدو اختيار عبد الناصر لى دليلاً على الوفاء - صحيح أنني كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار - ولكنني بقيت بعيداً عن التنظيم ثماني سنوات وهي الفترة ما بين فصلى من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى إلى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر... ورغم أننا تعارفنا إلى بعض وعمرنا لم يتجاوز الـ ١٩ سنة... إلا أنني لا أستطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وقمة من جانب كل منا... وليست صداقة على الإطلاق... .

فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائماً - الحذر - الملىء بالمراة... العصبى المزاج... لا أقصد بهذا تحريد عبد الناصر في اختياره لى من عامل الوفاء ولكنني أضيف إلى هذا عاملاً آخر وهو الذكاء... فمن خط سيرى في القوات المسلحة ومن عثمته منذ أن تقالنا في مقتل العمر أنى رجل ذو مبادئ وقيم... لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد على وأن إضافته لى إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلنى مدى العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه... .

وما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائماً بتكوينه كان واقعاً كل الثقة أنني سأقف إلى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها... قوة ستأيده في الصراعات التي بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة... ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة في أجارة ليشرح لى المصاعب التي تواجه بعض الأعضاء... وعندما تعود لى لداكرة لى نيك الأمام بعيدة لا مع... . إن عبد الناصر كان يقضى معى حمسة أيام كمنه لى كل... . نكن تنعدي الأسبوع... وكنا كل مرة نشارك في... . والمشاكل التي تواجهنا... هذا إلى جانب أن عبد الناصر كان يضع... . تقدير... أذكر مثلاً أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة احتياط واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : غلط يا جمال... ما هي النتيجة... إلى أين ستصل ؟ إن الجهد الذى يبذل في حركة الإغتيالات يساوى تماماً الجهد الذى يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم... . وليكن هدفنا المباشر هو الثورة... .

وقد اقتنع بهذا الرأى فوراً وأخذ به... ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها... مثلاً في سنة ١٩٥٣ عندما بدأت الصراعات تشتد وتمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً على الثورة وعلى مصر... أذكر أنى ذهبت إلى منزله في ذلك الوقت وقلت له : - يا جمال الثورات تأكل نفسها وتأكل أبناءها... ونحن لا نريد أن نصل إلى هذا المدى... فلماذا لا تضع حداً لكل هذا... لماذا لا تواجه الزملاء ونقول لهم... فليبق معنا كل من هو من رأى وفكر واحد أما من يريد أن ينفرد برأى فليتركنا... لقد أنجزنا المرحلة الأولى وهي قيام الثورة وهذا عمل تاريخى رائع يكفى كل من ينسلىح عنا الآن فخراً أنه ساهم في قيام الثورة... . كان ينصت إلى بكل إمعان وتابعت كلامى :

- بعد ما نصل إلى السلطة تتغير أمور كثيرة - ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب مصر - لقد انتخبناك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن... ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعليه أن يعتزل... .

ولا أستطيع أن أكل حديثي فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعني محتداً -
عاصياً - ساعراً . . . وكأني أقف ضده لا معه . . . كانت ردوده كلها
تشير إلى ذلك مبنية بالمرارة التي انفجرت فجأة في صدره وكأنها حمم يركان
بفدعها في ثورته . . . حادثة المرمي . . . تهب وتؤدي بلا سبب ودون أي اعتبار . . .
قائمة وحده يعم . . . هدى من الحديث معه كان تحيب البلاد انعكاسات الصراع
الذي كان يشتد كل يوم بين من ييدهم الأمر مما جعل ثورة ٢٣ يوليو رغم
إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلى مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة ٩٧ التي كادت أن
تحو كل ما حققته الثورة .

٣

لم يكن دوري في التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً على إسداء النصيحة لعبد الناصر
كما أمكن ذلك أو على مساندته في مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة في الهيئة
التأسيسية أو على توزيع منشورات الضباط الأحرار في المناطق المخصصة لي -
فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة . . . وكان على أن ألحق بركب الأحداث
وأن أكيف نفسي وفقاً لطبيعتها . . .

في أكتوبر عام ١٩٥١ ألقى النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا
عام ١٩٣٦ . وبدأت حركات القديسين والإخوان المسلمين في القتال واشتركت
فيها بالتدريب وبالإمداد بال سلاح والذخيرة وأصبح الجو العام يبشر بأن
الهدف الذي كنا نعمل من أجله لم يعد بعيداً فاجتمعت الهيئة التأسيسية
للضباط الأحرار في أوائل يناير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر عام ١٩٥٥ . .
ولكن ما هي إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ .
لم يعرف حتى الآن من الذي دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدى
الجميع . فما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيراً
عياً عما يلاقيه أكثر من ٩٥٪ من الشعب - وهي القاعدة العريضة التي حرمت
في كل طبقة طبق رأسمالي صارخ من كل شيء وأصبحت الأحزاب
السياسية هي الأخرى أداة في يد الملك والإنجليز وأصبح كل همة أن تحالف
مرة مع الإنجليز ومرة مع الملك لكي تحقق لنفسها المكاسب على حساب
الشعب

وكان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت
لهدمت وأحرقت كل شيء ، ورغم أن الفاعل كان مجهولاً إلا أن الهدف قد
أصاب فأضعف من مركز الملك .

في ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين
نقف بالضبط - وهنا تذكرت يوسف رشاد الذي أصبح طبيب الملك الخاص
وصلة الصداقة التي تربطني به . . . لقد آن الأوان حتى أستخدم هذه حصة من
الفضة التي نعمل من أجلها . . . واتصلت بيوسف رشاد وكان في ذلك الوقت
صديقاً شخصياً للملك كما كان على رأس جهاز المعلومات الخاص بالسر .

وجدت يوسف رشاد يأخذ كل ما أقوله له أمراً مسلماً به . . . فلا جدال
ولا مناقشة ولا شك من أي نوع . . . الطريق مفتوح إذن لتضليل الملك وتخديره
حتى يقوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت . . . فكنت أقدم له معلومات خاطئة . . . وعندما
كان يعرض على منشورات الضباط الأحرار ، كنت أوهمه أنها من صنع
خيال ضابط معروف بحب التظاهر والعظمة ولكنه في الحقيقة لا حول
له ولا ملول . . . وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمل جاهداً
على تصويرها في عينيه على أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحة .

ولم يكن هذا كل دأبي . . . فقد كنت دائم السعي لتحاييل التعرف على
أخبار الملك وخططه ونواياه . . . ونجحت إلى حد كبير في تحقيق هدي ، فبعد
حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان
في مصر . . . بل وأعد قائمة بأسماء من سيصاحبونه في المنفى ومن بينهم يوسف
رشاد طبعاً . . . كما أنه بدأ يرسل الذهب في طائرته الخاصة إلى بنوك جنيف
الأمر الذي جعلني أنا وعبد الناصر نقنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد
مقاومة تذكر من جانب الملك . . . فقد كان واضحاً أنه قد بدأ ينهار فعلاً وبناء
عليه جمعنا الهيئة التأسيسية في فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة في نوفمبر ١٩٥٢
بدلاً من نوفمبر ١٩٥٥ . . . لماذا نوفمبر ؟

لأنه في نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الإسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا في القاهرة . .

باستثناء عبد الناصر لم يكن أحد يعلم باتصالنا بيوسف رشاد الذي ظل سلاحاً من أهم أسلحة معركتنا . . ولم نتوقف عن استخدامه إلى أن بقينا هدفنا بالكامل . . أذكر أنه في أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقصى إجازتي الشهرية بالقاهرة وفي حديث لي مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتي الفوكس هول وتوجهت إلى الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد في نادي السيارات بسيدي بشر وعلمت منه أن الملك قرر لزيادة منشورات الصراط الأحرار . . طمأنت به ونسبت المنشورات كما أعدت أن أقبل إلى أحد الضباط الذي كان مولماً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم . . وكنت قد تنكرت بعض العنصومات الحاطة المضلة . . فحكيتها ليوسف رشاد وبعد أن أطمأن بالي إلى أنه نقلها إلى الملك . . ركبت عربتي وتوجهت إلى القاهرة حيث أضعت عبد الناصر على نتائج رحلتي وكانت إجازتي قد انتهت فعدلت إلى مقر عملي في رفح .

فوجدت بعد ذلك ١٨ يوليو بالملك يصدر أمراً بالغاء انتخابات مجلس إدارة نادي الصراط وهي التي كان التنظيم قد كتبها من الضباط الموالين للسر . . است قد بدأ يتردد أناسه إذن . . بل ويتحدى . . وفي نفس الوقت أبلغ أحمد أبو المنيع (الضاحي الوفدي) حملاً عبد الناصر - وكان صديقاً شخصياً له - بأن الملك يعزم تغيير الوزارة وأن وزير الحربية في الوزارة الجديدة هو اللواء حسين ميري عامر الذي يعرف الكثير عن الصراط الأحرار والذي سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضي عليهم ويجهض كل مشروعاتهم بنجره توليه الوزارة لكي يشت لعمته قوته وولاه .

وبتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلى حقيقة تفرض نفسها علينا وعلى مستقبل الثورة والدولة . . إما نحن وإما حسين ميري عامر الوزير القادم والذي يعرف الكثير عما بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين نعملوا فيها بعد إلى مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد اتخذ قرار قيام الثورة قبل تولي هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يغت زمام المبادرة .

وكان معنى هذا أن تقوم الثورة في يوليو بدلا من نوفمبر ٥٢ .

وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة لي مع حسن إبراهيم تسلمتها في مطار العريش يطلب مني فيها أن أنزل إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس . . وفلا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو . . ولكنني لم أجد عبد الناصر في انتظارى على محطة السكة الحديد كعادته . ففتت في عسى لا يجدني وقت لا يجدني . . فالتفتت إلى بيتي واصطحت زوجتي إلى لبيد . ولكنني عندما عدت إلى بيتي في مساء الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب مني فيها أن أقبله في ميري عامر الساعة ١١ مساء . . وعلمت من البواب الذي سلمني هذه البطاقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتي مرتين . . مرة في الساعة الثالثة مساء ومرة أخرى في العاشرة .

غيرت ملايبي وأخذت مسلمي معي وتوجهت إلى منزل عامر وطبعاً لم أجدته فذهبت إلى ثكنات الجيش في العباسية . . لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فنحن من الدخول وعندما تبينوا رتبتي طلبوا مني أن ألزم بيتي . . فهذه هي الأوامر بالنسبة للضباط العظام . . ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة - كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عيني وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كرست كل حياتي لهذه اللحظة بالذات . . من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت . . في كل مرحلة من مراحل العمر . . فقيم كان كفاحي وقيم كان كيانى . . وأنا أقف موقف المتخرج مما أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده ؟ ناورت وحاولت مرة أخرى وعدة مرات إلى أن التقيت بعد الحكم عامر وهو ينظم مرور القوات . . ناديت عليه . . لم يكن في موقف يستطيع فيه أن يراني ولكنه تعرف على صوتي . . عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمنا قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمى على اسم أحد

الأمريكيين) وعلى رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد
قد حددت إقامته أما بنية القادة فكان عامر يقودهم إلى المعتقل في مقر الكلية
الحرية حينذاك .

أخذت عربتي وتوجهت إلى رئاسة الجيش حيث كان عبد الناصر الذي طلب
منى أن اتصل تليفونياً بجميع وحداتنا لأرى إذا كان كل شيء يسير حسب
الخطّة الموضوعة . . نزلت إلى حجرة التليفونات بالطابق الأرضي . . ولكني
وحدتها حاية . . ناديت على العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد - ألححت
في النداء ورحت أصمتهم فظفروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا على وحدات
موسم عادوا إلى عملهم تحت إشرافي وبدأنا التعميم على جميع وحدات الجيش في
صيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفع .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحرية في ذلك الوقت يطلب توصيله
بالضابط التوتيجي فأوصلته بعبد الناصر - لم أسمع المكالمات ولكني عرفت
أنه لعب دور الضابط التوتيجي وقال لحيدر باشا رداً على تساؤلاته أنه لا توجد
أية تحركات في الجيش وأن كل شيء على ما يرام . . بعد قليل اتصل حيدر
باشا بنا مرة أخرى وطلب توصيله بسلح الممرعات (السوارى) فأصدرت
أمرى إلى العساكر بإهماله .

في الساعة الثالثة صباحاً أتت جميع التعميمات من جميع الوحدات فأبلغنا
عبد الناصر والرؤساء أعضاء مجلس قيادة الثورة . . وفي الحال اتصل عبد الناصر
تليفونياً باللواء محمد نجيب في بيته بجمعية الزيتون وأرسل عربية ملوثة
أنت به إلينا في الفجر . .

في شرقة القيادة ونسيم الصيف الرقيق يلفح وجهي . . وقفت أنا مل
الشارع التسبح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تتدفق إليه
من مصر الجديدة ومنشية البكرى وتتجه إلى قلب القاهرة . . المدفعية -
والمشاة - والدبابات . .

كل شيء هادئ في ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت . .
أخيراً تحقق الحلم الذي عشت به وله سنوات عمرى . . تحول إلى حقيقة . .

يزخر بها صبرى . . تستولى على كيانى . . فيتضاءل إلى جانبها هذا الكيان . .
كل شيء في الواقع يتضاءل . . يصبح وهماً . . إلا هي . . الحقيقة
الوحيدة . . شائعة مهية تحجب الرؤية عن كل ما عداها . .

هكذا كانت فرحتي بها . . أكبر وأجمل من أن أحملها وحدي .
ولذلك ما أن طلع صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى هرعت إلى الإذاعة أعلن ميلاد
الثورة ليشاركني الناس ما أنا فيه من سعادة . .

٥

العجلة تدور . . لا تتوقف لحظة . . هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم
أن ندبرها نحن . . نتحكم فيها . . نوجهها الوجهة السليمة . . وهذا ما فعلناه ،
أو على الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكي نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفي فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا في الاتصال
بالأمريكان لنعطيم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها . . فقد كانت صورة
أمريكا في أذهاننا مقترنة بحماية الحرية ومناصرة حركات التحرر . .
وكنّا نهدف من هذا الاتصال أيضاً إلى تحييد الإنجليز . . ولكن كيف نتصل ونحن
لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هذان البحث إلى ضابط مسئول عن عبارات
الطيران اسمه على صبرى ، وكان في ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكري
الأمريكي . . فأرسلنا في طلبه وحملناه رسالة إلى صديقه . . الذي نقلها بدوره
إلى مستر كافري السفير الأمريكي في ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو . .
اعتبر السفير الأمريكي كافري هذا لئمة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً
شخصياً لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية
علاقة طيبة بيننا وبينه . . حتى أنه في الوقت الذي كان فيه الإنجليز يذلون كل
جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكي قد دعانا إلى العشاء
في بيته بالسفارة ، فليينا جميعاً دعوته . . أعضاء مجلس الثورة جميعاً . .

كان من الواضح أن البلاد كانت مهتزة للثورة ، فقد فقدت الناس ثقتها
في الأحزاب . . أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة

الرفض والكرهية . . . ولذلك التفت الجماهير حول دبابتنا في كل مكان ،
ترقص وتغنى وهي في قمة السعادة
كان عيباً أن يواجه مسئولينا وأولها تكليف وزارة بإدارة شؤون البلاد --
ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تقدم طويلاً ، اتفقا جميعاً على أن أصلح الموجودين هو على
ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحزم .
« يا أنسور ، حاطبى جمال عبد الناصر قائلاً : « دانت طول عمرك بتشغل
بالسياسة ، روح شوف لنا على ماهر وكلفه علشان يشكل الوزارة » .

لم أكن أعرف بيت على ماهر . ولكن حدث أن إحصان عبد القدوس وهو
صحفى مهم بجمالاته الصحفية لنبأ ثورة وصادق عملت معه في الصحافة كان
قد أتى ليريئى في تبادلة . ولم أكن أعرف بيت على ماهر توجهها معاً إليه .

استقبلنى ماهر بترحاب . وجلساى شرقاً للدور الثانى حيث
كانت حرارة الجو محتملة بعض الشيء . . . أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له
برئاسة الوزارة . . . اضطرب ولم يقل شيئاً . . . مهمت أنه مخرج فالتكليف يأتي
من الملك . . . ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكسب لها النجاح . قلت له إننا
قد سيطرنا على الموقف تماماً . . . وأثناء حديثنا مرت في الجو أربع قاذفات قنابل
على الرنح - محمض . . . فأتنى إذا كانت الطائرات تابعة لنا . . . قلت : نعم ،
لهم فى ذلك بما سيطرنا على كل شيء ؟ منذ الفجر وبقوات المسلحة فى أيدينا . . .
وكذلك جميع المرافق الحيوية . كل شيء أصبح فى أيدينا . . . نحن نطلب
منك أن ترأس الوزارة . . . هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذى هو صاحب الكلمة
وحيدة فى مصر الآن .

سأنى ماذا ستفعل يا بيت . . . قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء . وعلى ضوء
تصرفاته سمعته . . . هذه محطة دق حرس التليفون فى الحجرة المجاورة
وتعيب عن ماهر نضع دفتى ثم عاد لينقول إن الملك قد اتفق به وإياه موافق
على تعيينه رئيس وزراء ويستقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية . . . مبروك ؟
قلت له وحدث إلى حوائى بالقيادة أنهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السامى بتشكيل الوزارة بدلاً من أن تشكل وزارة من
العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لنولى الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية
واقصاء الملك والأحزاب والإنجليز .

إلى هنا كما قد كتبها الجولة الأولى . لكن ما رأت هناك جولات أخرى أو
انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلى الإسكندرية فقد كان استى بخصى شبيب
بها كعادته رسمياً . ولكن لكى يتم هذا لابد لنا من بعض الوقت . . . ومع
من سبيل إلى هذا سوى أن نضطلع بعض المطالب من الملك . . . كتباً للوقت أولاً
ولكى لا يشك فى حقيقة نوايانا نحوه ثانياً . . . فاتصلنا بعلى ماهر نطلب منه
انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتى يحمل مطالبنا إلى
الملك .

كان مطلبنا الحقيقى الوحيد هو وحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا
أن نخفى هذا إلى أن يتم انتقال قواتنا إلى الإسكندرية فى هلسوء . . . وبناء عليه
اصطنعنا بعض المطالب التافهة - ست مطالب على ما أذكر . . . وذهبنا بها
أنا وعبد الناصر ، إلى على ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلى الإسكندرية
بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفى الليل اتصل بي على ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل
طلباتكم كلها . . . وأسقط فى يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ . . . وبناء عليه
فهو يرى - أى على ماهر رئيس الوزارة الذى فرضناه على الملك - أن يحضر
إلى الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما فى دفتر التشريعات . . .
« شكراً للملك على الاستجابة إلى مطالب الجيش » قلت له : « سأدوس
الموضوع مع زملائى »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفى صباح ٢٥ يوليو بدأت تتحرك . . . علم الملك
فأبلغ على ماهر الذى اتصل بي ليستفسر . . . فقلت له إن هذه القوات قادمة
إلى الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا فى القاهرة . . . ولا داعى للقلق ثم إننى
شخصياً سأحضر إلى الاسكندرية فى المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .
عبد الناصر قال لى فى ردة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور

خلصنا بق من الخندق دا بسرعة . . اديله لإنذار ومشيه . . عاوزين نخلص منه بسرعة عشان نستفرأ الوضع في البلد . . قلت له : طب . . أثناء حديثنا مر بنا محمد نجيب فلما علم بموضوع الحديث طلب منا أن يذهب معي . . ووافعا . أخذت مع محمد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة وصعدت مع مظار لرحلة الإسكندرية ومن هناك توجهنا إلى بولكلى . وهو مقر رئيس الوزراء نصيب في الإسكندرية . حيث دحنا على رئيس الوزراء على ماهر . . وحده مضطرباً بسبب القوات المتجهة إلى الإسكندرية . . طمأنته بأنه . . كما فعلت من قبل ، وأكدت له أن الغرض من القوات هو تأمين المرافق والأمن . . خاصة وفي الإسكندرية كثير من الأجباب . . فقد يفتعل بعضهم شيء تعرض البلاد للخطر وبالذات كما نحب حساب أى عمل من جانب المخابرات البريطانية . .

عند خروجي وجدت مقر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلى مسائلاً عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقي برئيس الوزراء مرة ثانية في السادسة مساء .

لا أعلم إذا كان من حسن حظي أو العكس ، أنني كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة لدى كنت عليه مواجعة جميع الأحداث ، منذ إعلان قيام الثورة إلى خروج سيد من مصر . فقد تسببت في خلق حساسيات كثيرة بين وبين زملائي في مجلس قيادة الثورة خاصة وأنا كنت الامم الوحيد المعروف بينهم لدى الجماهير نتيجة لنضالي السياسي الطويل وبعد أن خلقت مني الصحف والمجلات بطلاً أسطورياً في قضية مقتل أمين عثمان .

م أتيت من هذه حساسيات في يدي الأمر . فقد كنت أقوم بكل ما أعله في عضوية ووفرة من بدأ عملاً كبيراً . . لا يهيم إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أى شخص آخر . هكذا كنت أرى الأمور ، واتصرف وفقاً لذلك . ولكني عندما كنت في كثير من هذه الحساسيات التي لم يكن في يدي من دور . . إلى ولم تكن حتى عن وعي بها ولكن هكذا شاءت الظروف . لا أعرف ما الذي عاد بذاكرتي إلى تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تترك

أى أثر في نفسي حتى عندما تبيتها وأصبحت واضحة لي كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضاً أنها أثرت على الآخرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتعجز أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذي قمنا به . . ولذلك أعتقد أننا ينبغي أن ننشئ أبناءنا على استبعاد الذاتية في كل ما يفعلون لتحل محلها الموضوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيري الذي بنى البيت ، الأهم من هذا كله . . بل الشيء الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

7

بعد أن تركت على ماهر ، توجهت إلى فشاقي مصطفى باشا مقر قيادة القوات العسكرية بالإسكندرية ، حيث كان زكريا محيي الدين . . كان جزء من قواتنا قد وصل والباقي في الطريق . . ولكن زكريا أخبرني أنه لن يكون مستعداً لمحاورة قصر رأس التين وقصور الملك الأخرى قبل أن توجه له الإنذار إلا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ٢٦ يوليو ، إذ أن الجنود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهرة إلى الإسكندرية ، لا بد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢٥ يوليو ، وهو الميعاد الذي حددته لمقابلة على ماهر ، وإبلاغه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مقر من التأجيل ، فاتفقت بعلى ماهر ، وطلبت منه تأجيل ميعادنا إلى الساعة التاسعة صباح ٢٦ يوليو . . ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواته مقر الملك حينذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحرس الملكي . . أصيب فيها عدد من الحرس . . انزعج الملك . . فسحب قوات الحرس ، واتفقت بعلى ماهر . كما اتصل بالسفير الأمريكي يستنجد به خوفاً من القبض عليه وقتله ، ولكن كافر كان حريصاً فأرسل له سكرتيره الخاص خوفاً من خلق حساسية معاً ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسر المعركة .

في التاسعة من صباح ٢٦ يوليو ، اتجهت ومعى اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ،

كان في البهو المؤدى إلى حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل يتطلع إلى ويسأل ما الأخبار ؟ وضجة تقدم من رجل عرفت منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألني وهو في حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك في قصر رأس التين وكيف حدث إطلاق النار . . . إلخ . . . نظرت إليه بلامبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم مني رجل آخر . . . مصري هذه المرة . . . وهمس في أذني « حاجة مهمة يا قندم . . . الدكتور يوسف رشاد على التليفون ويلح أنه يكلمك قبل ما تدخل عند على ماهر » .

كان واضحاً أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أني كصديق ليوسف رشاد يمكنني مساعدته ، فالتفت إلى الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر . . . العجلة دارت ولن تعود مرة أخرى إلى الوراق » .
لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقاً عزيزاً استخدمته في تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنتهي معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شيء في أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلى هو الصديق الذي أحبه وأحفظ له وقوفه إلى جانبي في ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب مني مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجيء بمجلس قيادة الثورة بي وأنا أدخل الاجتماع ، أحمل في يدي حقيبة ملابس . . . وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذي تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا . . . عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلوني معه . . . وأنا على أتم استعداد لذلك كما ترون . . . فمعي حقيبة ملابس . . . فهذا أمر خلقي ومبدئي بالنسبة لي » . ولم يعتقل يوسف رشاد وتركوه وشأنه إلى أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة على ماهر . . . لم أضيع وقتاً ففتحت الحقيبة التي في يدي ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة - وهو بخط يدي - إلى الملك وبدأت أقروءه ، طلباً فيه مغادرة الملك للأراضي المصرية في الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسؤولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة على وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات ، وأخذ الإنذار ليبلغه إلى الملك .

وفي العاشرة والنصف أي بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بي على ماهر رئيس الوزراء من مقره في بولكي بعد عودته من مقابلة الملك . وأبلغني أن الملك قد قبل الإنذار ورجاني أن ألحق به في مكتبه للاتفاق على صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا في الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلى مكتب على ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا على صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان في ذلك الوقت طفلاً صغيراً . ووافقنا على الصيغة ، ثم أرسلناها إلى الملك . فوقعها وعلى الفور اتصلت بقائد الحراسة تحت الملك الخاص وطلبت إعدادة للإبحار بالملك وأسرته في السادسة مساء على أن يعود اليخت إلى مصر بمجرد أن ينتهي من مهمته .

في قشلاق مصطفي باشا جلست مع إخواني في القيادة ممن كانوا معي في الاسكندرية ، نتلقى التهانئ من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجاً يطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطاني وفي صحبته الملحق العسكري في السفارة البريطانية وطبعاً كان الملحق العسكري يرتدي زياً رسمياً على طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التي كانوا يرهون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطاني في إجازة . . . استقبلناهما . . . قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا ، فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية ، ويطلبون كذلك فرض حظر التجول لحماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه قرصة لكي نلقنهم درساً كنا نتوق إليه طوال عمرنا . . . التفت إلى الرجلين وقلت : -

« الهند الأول ، أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية . . . ما دخلكم أنتم في هذا ؟ هل هي أسرة إنجليزية ، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب ، فيجب

أن تعلموا أن هذه بلدنا . . وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن . .
ونحن فقط . . أفهمتم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف . . بأية صفة يقولون هذا الكلام ؟ هل هي صفة رسمية ؟
إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوباً وموجهاً من الحكومة
البريطانية حتى نستطيع أن نتخذ موقفاً من حكومتكم . .

تراجع القائم بالأعمال البريطاني على الفور وقال إن الورقة التي قرأ منها
الكلام . . ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئاً عنها أو عن زيارته لنا ، وأنه
قد أتى إلينا كصديق فقط . . وليس بأية صفة أخرى ، ورجاني أن اعتبر الزيارة
كأن لم تكن . . باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التي يمكن تصورهما .
بمجرد خروجه . . أبلغت إخواني في القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع
بريطانيا قد وقع في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٦ يوليو ، وأنه انتهى بانسحاب
بريطانيا وتراجعها تراجعاً كاملاً .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لليخت
المحروسة ، وإحراوات خروج الملك على ظهرها - أصدرت أوامري لمدفعة
السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليمات لسلاح الطيران
بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مباحثته المياه المصرية .

وهكذا في السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضي
المصرية . . وكان في وداعه من رجال الثورة على اليخت محمد نجيب وجمال
سالم وحسين الشافعي . أما أنا فقد وقفت على ظهر البارجة إبراهيم في الميناء ،
أكبر قطعة بحرية عندنا في ذلك الوقت . . أراقب الطائرات وهي تحوم فوق
المحروسة تحيي الملك مودعة . . لفنة بسيطة - هكذا قلت لنفسى - ولكنها تحمل
من معاني الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس

الشوار يحكمون

في مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أى بعد خروج الملك بيوم . .
- مجلس قيادة الثورة - إلى الاجتماع في القيادة . . وافتتح الاجتماع قنلاً .
المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس
المسؤولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قراراً في أمر مهم جداً . ولكن
قبل أن نتخذ هذا القرار . . يرى من واجبه أن يتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ،
فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسمنا مجلس قيادة
الثورة .

لم أرى أى معنى في كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما التفريق بين
رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فلماذا يهم بعد
ذلك ، وما الداعي إلى تغيير الأوضاع والمسمايات ؟

كان من الصعب على في تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر . .
فبالنسبة إلى - بنجاح الثورة ودخول مجلس قيادة الثورة - انتهى كل ما كنت
أطمح فيه منذ أن كنت أستمع إلى موال زهران فوق سطح القرن في
ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وحلال سوت
السجن والجوع والتشريد . . عمر جيل بأكمله من كفاح والخير . . في
سبيل تحقيق رسالة . . لا أغالى إذا قلت إنه بدونها لم يكن في الإمكان أن يكون
للحياة أى معنى . .

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل في تحقيقها فأست ميلاد الثورة
وأخرجت الملك من البلاد . . وواجهت بريطانيا التي كانت تمثل عدو شعب
رقم ١ . . وعلمته درساً كنت أتوق إليه من زمن . . عندما أتى إليها القائم بالأعمال
البريطاني ومعه الملحق العسكري في فاشلاق مصطفى باشا بالاسكندرية فأعست

بكل وضوح وعزم وتصميم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لناصر ، ومصر وحدها . .
فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأى شيء بهم ؟ حتى ولو لم أدخل مجلس قيادة
وحتى لو لم يكن لي دور ملموس في قيام الثورة . . يكفيني أن الثورة قد قامت
وحسب فتحت بذلك حلم حياتي . .

كانت هذه حقيقة مشاعري منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون
قيامها إلا لناصر ، ولحقيق قيم الخير والخير التي كنت أتوق إليها منذ
الصبا . . فلتسركا نشاء ولتتخذ قادتيا من القرارات ما يرون اتخاذها ، فالخليفة
في النهاية هي خير مصر والمصريين .

ولست ذهنت عندما تفقد عبد لناصر باقتراحه بانسحب واعتزمت عليه .
وكنه ليح وتصمم على أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . . وفعلنا اعتدنا اتحبه
والجميع رئيساً مجلس قيادة ثورة . . لم يكن عهدى بعد الناصر أن
ينسحب أو يفعل شيء اعتدنا . . فسادا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد لناصر
بأرحم مني لندي يمكن وصفه بالثبات . بل كان في الحقيقة عميقاً في نفسي
حس . . كثير الشك . . به مراودة تجعله يلتزم الحذر في كل خطواته . .
فلا بد من سحب لاصراة على فتحيه عن الرئاسة . وإعادة انتخابه رئيساً مجلس
قيادة ثورة . . وهناك كثرت بعض الصراعات التي قامت بين بعض أعضاء
هذه الجمعية . . صراعات عن المنصب بظيعة احاد . . ولكن بعد أن قامت
ثورة مصر . . سألت نفسي هذا السؤال أكثر من مرة إلى أن انتهيت
إلى حل . . بل إلى طريق لإدراك ما يدور حولي . . لقد جاءت الثورة بالنسبة
إلي . . تحسب حذراً كثيراً عما حدث لهم جميعاً . . فالثورة بالنسبة إلى
ومعاصرة للتكرار ، كانت تجربة كثرها عبرة . . ولذلك فيحكم ما أدين به
من قيم ومثل ، ما ان نجحت الثورة حتى أصبحت لا أريد أي شيء ، وأصبح
أي شيء في نظري يساوي أي شيء آخر . . ولذلك كنت دائماً أفت بعيداً عن أية
مادة تدور بينهم . . وكان تفسيرهم لسوكني هذا أني عديم الاهتمام والمبالاة بكل
شيء . . في قدر من الت في الأمر . . ولم يحطروني بأنهم أنني أبتعد
بعضاً لا أعني . . ملامحة لاصراة لا غوما . بل حرصاً على الثورة .
وحرصاً على أن تسير الجمعية مناراً لأن هذا لا بد أن يعكس على البلاد . .

وتعالياً على صفائر الأمور وفي مقدمتها السلطة . . واقتناعاً مني بأننا ما دمنا قد
صنعنا الثورة فلا شيء بهم بعد ذلك . . أما هم أي زملائي من أعضاء مجلس
قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا من قبل الثورة . .
مكاتبهم في القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من قبل الثورة . .
الجوع أو التشرد ، لم يتعرفوا . .
واللهفة والإحباط . . ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وحدوا أنفسهم . .
فجأة من مكاتبهم ومراكزهم في الجيش إلى مركز السيادة . .
يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان . .
الشيء الذي لم يحطروني بيالي في أي وقت من الأوقات . . ولذلك خلد كل
أفعالي طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمأى عن هذا الصراع
أي الصراع أو الرغبة في السلطة أو المزاومة على الماص .

لو لم أر هذا بنفسى لما صدقته . . ولكن لم يكن الأمر كذلك مع
عبد الناصر ، فقد كان على وعي كامل بالصراع على السلطة ، وكان بعد
لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلى انتخابنا له رئيساً لمجلس قيادة الثورة ،
طرح علينا أمراً وصفه بأنه في غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن
طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذي يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قست في نفسي . .
فقد كنت على ثقة من أننا جميعاً بل والشعب الذي أيد الثورة يهدير رهيب
وأولنا عبد الناصر قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعت بنا وبالبلاد ديمقراطية
الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك وللإنجليز . . ثم إننا جميعاً
ضباط ، وقد تعودنا في العسكرية سرعة الإنجاز . . هذا إلى جانب الهدف الرئيسي
الذي قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد في أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر
على رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذي
يبدأ بدم لا بد أن ينتهي بدم . . وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان
الحزبي القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرقض المطلق لها من

جانب الشعب ، على أن تلجأ إلى أسلوب الديكتاتورية . . فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها في ديكتاتوريةنا ؟
هذا إلى أن الأحزاب كانت تخاف من الملك ومن الإنجليز . . أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد . .

لكم الجمع وردت كثرة أكثرهم حماساً . فقد كان ددعى من مطلق الحرس من مصلحة مصر . فاشىء الذى يحره باعتريق الديمقراطية لسة يمكن احده عن طريق الديكتاتورية في يوم . . ولم يفتقر ببال مطلقاً في تلك المحطات أن نسأله عنها ليست إلا احتجاً لنقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف في بداية رئاسته لمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار .

احترم الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساماً يضرب وحدتنا فنسحت . وبدأت أخص الكلاء الذى قبل بهدف تميع الموقف ، وإذا بعبد الناصر يقاطعني بحدة وعنف قائلاً : -

- أنت قد تخلص كلام الأعضاء وتكلم كلاماً لا معنى له . . وتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة . . ما هذا الذى تفعله ؟
قلت له مدهنياً : يا جمال أنا آسف . . أنا بأحاول أجد حل وسط . . أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شئ من هذا القبيل . .

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر . . سبعة أصوات منا مع الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر .
عندها وقف محتجاً وقال في حدة : -

ه أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذى هو قرار الديكتاتورية . . هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد ، وأنا مستقيل من جميع مناصبى .

و مع زيادة مع باب المناقشة المرة الثانية وأخذ الأصوات في نهايتها فإن نتيجة لم تغير سعة الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجميع حكام ورافقه وأدى استقالته من جميع مناصبه مناصباً لنا التوفيق ولكنه كما قل

طريق خططر على البلاد سيثبت لنا خطوه وغادر القاعة إلى منزله في الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وأسقط في يدنا جميعاً بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورايت فترة من الصمت . .

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتعلبت روح الوحدة على روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذى لم تتصور أبداً أن يبدأ العمل في إعادة البناء بدونه واتخذنا في نهاية المناقشة قراراً بأن يعود جمال ولما فيه كل الثقة وذهب إليه في منزله اثنان منا ليلغوه . . وفي فجر عاد جمال متصراً . . بتوبيض منا . . وكان قراراً تاريخياً مهماً اختلف الآراء عليه .

٢

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق على قانون الإصلاح الزراعى الذى هو مبدأ أساسى من مبادئ الثورة . . فيه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع . . وهذا ما كنا نبغيه . .

وأصدر مجلس الثورة أيضاً في نفس الوقت قراراً بإجراء الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥٣ أى بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة حينما هاجم على ماهر - رئيس وزراء الثورة الذى فرضناه على الملك - عندما هاجم الأحزاب في بيان لم يذكر فيه تاريخ الانتخابات الذى حددناه في مجلس الثورة أن فبراير سنة ١٩٥٣ أوقفنا مطابع الصحف وأصدرنا بيان من مجلس الثورة يؤكد التزم بإجراء الانتخابات الديمقراطية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفقة لرئيس الوزراء .
بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء في كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب . .
كانت طبعاً مسألة شكلية بخنة . . أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعى . .

فقد رفضته الأحزاب جميعاً كما رفضه على ماهر رئيس الوزراء في أول حكومة
لثورة .

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظيم
الحزب من حيث النتيجة . . . تنهت الأحزاب القديمة طعماً وتقدم
معها ٢١ حزباً شكوي أحزاب جديدة . في نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع
من قيام ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ صدر قرار من مجلس قيادة الثورة قد بلغت حداً يحتم
به عدم جديده على أن يخفف ذلك من حدة الصراع . . .
و فعلاً ضممتنا إلى المجلس خمسة أعضاء كان عن رأسهم محمد نجيب الذي عهدنا
إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمال نظراً لأنه كان أكبرنا سنًا
وأصبح أعضاء المجلس ١٤ وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولي الحكم - كانت
فكرة صديقنا شيخ نور الدين نضال في نفسنا أن نقيم في مصر
حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم
سابق في السوابق ومن حيث صفاته . أما نحن كحزب فتنجس في
الخفية . نراقب سير الأمور إلى أن تصل البلاد إلى بر الأمان وتوصل الحرية
والاستقلال . . فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن . .

لم تكن الوزارات مطمئنة فحين لم نعد أنفسنا لها بل ولم نعد برنامج حكم
معين . ولكن رغم هذا كله حدث أننا في أحد اجتماعاتنا قلنا لقد آن الأوان
لكي نوزع أنفسنا لمناصب أعمال الوزارات بمعنى أن يصح كل واحد منا
مثولاً عن وزارة أو مجموعة وزارات لكي نعطي للعمل دفعة جديدة . .
ليس وحيداً بل معاً في نفس هذه الوزارة إلى أن
أتى دوري قتلتي : - لا اعتقد أنني بحاجة إلى وزارة - فأنا لا أفهم إلا في
السياسة . . .

وسأني صلاح سالم منهاك : -

وما هي السياسة التي تفهم فيها ؟

قلت : - أنا أقصد بالسياسة . . كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع
طريق إلى أماننا . . وأن نكتب لمصر تاريخاً جديداً . . هذه هي السياسة
في عروفي . .

ما أن قلت هذا ، حتى خيل إلى أنني ارتكبت جريمة . فقد هاجمني صلاح
سالم على الفور واشترك مع بعض الحاضرين وعلى رأسهم عبد الناصر . لم يهجم
هجوم صلاح سالم فقد كان معروفاً بحب الظهور والتهجم . ولكن هاتني
أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطني به رباط من الاحترام . منذ
منذ أن كان عمرنا تسعة عشر عاماً . . لم أجد مبرراً لهذا الهجوم المتجنى .
فقد فعلت ما في وسعي منذ قيام الثورة وقل ذلك للحفط على عبد الناصر .
مهما كلفني الأمر . . فإني أدرك هذا الهجوم والتهم والسخرية وكنتي أحيل بريد
أن يسلمهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم . . ؟

حزنت لا لفسى . . ولكن لعبد الناصر وهم . . وبعد تلك اللحظة
إلى نافذة عالية أطل منها عليهم وأضحك على صراعاتهم . . فقيم يتصارعون ؟
سألت نفسي أكثر من مرة إلى أن تكشف لي أننا لسنا إلا بشر ، وبشر من المرتبة
العادية . . ولكن هذا الاكتشاف لم يعنى من أن أفضل أي واحد فيهم على نفسي
لأنني . . إلا انطلاقاً من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذي قضا به نضال من
أجل الملايين . . ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتي في ذاتهم مهتدياً بالقيم والمثل
العليا التي نشأت عليها . . ظل السؤال حاثراً في رأسي . . فإني المهجوم على ومن
عبد الناصر بالذات ؟ وفيما ارتياح الآخرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجده
الإجابة في ذلك الوقت ولو أنني أدركتها فيما بعد . . فعندما قامت الثورة وفي
أيامها الأولى لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالها سوى أنور السادات
بطل قضية أمين عثمان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة
نضاله الوطني الطويل . .

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التي مرت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبني
عبد الناصر وبعض الآخرين عليها ؟

لم أكن قد عرفت بعد كل جوانب شخصية عبد الناصر . . فقد كان حيي

له يحجب الحقيقة عن عيني ، ثم إنه من المتعادي أن نحكم على غيرنا بما جبلنا عليه من طائع وخصال . .

أما مثلاً أتى في كل إنسان إلى أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك في كل إنسان وفي كل شيء إلى أن يثبت العكس وفي ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلاً ما يثبت العكس . .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تحارب سنوات وسنوات ، أما في تلك المرحلة المسكرة فلم يكن من السهل على أن أتقبل أو أنصور أن يشك جمال في وأنا الوحيد الذي لم يدخل معه معركة . . أو يطلب شيئاً لنفسه . . ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفي الأيام الأولى للثورة دخلت برجاً بعيداً وعشت فيه . . أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الإصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف لكل شيء يتساوى عندي مع أي شيء - حاولوا مزاراً أن يعرفوا سر سلوكي هذا . . قالوا إنه ضئيف وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى الحقيقة .

لقد اكتشفت ذاتي داخل الزنزانة رقم ٥٤ في سجن مصر العمومي ومن يومها عرفت أن نفسي أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب . . فقيم الدهشة إذن لابتعادى عن هذه الصراعات البشرية ؟

إن ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالي . . فوجدت فيها نفسي . . وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

٣

في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد انضحت أمامنا . . فقانون الإصلاح الزراعى مرفوض من رئيس وزراء الثورة على ما هو ومن الأحزاب جميعاً . . ونظير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط . . يجب إذن أن تتولى السلطة . . وهذا فعلاً ما كان . . فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلى على ماهر في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقتلنا له شكراً . . لقد أدبت مهنتك على

أحسن وجه . . فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة على أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين .
هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة .

كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة . . أما هو فيكبرنا بكثير . . ولكن للأسف فإن الذى حدث هو العكس . . فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب . . وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضدى يقودها محمد نجيب وصالح سالم كما أخبرنى عبد الناصر في ذلك الوقت .

لم يكن هذا بالأمر الذى يهينى أو يشغل بالى ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نقاجاً باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً . . وهو أن الأحزاب التى كانت تتصارع على الحكم بالتقرب إلى الملك تارة وإلى الإنجليز تارة أخرى أو إلى الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة في الأيام الثلاثة الأولى لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيقة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة لدى بنكسور من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعنى آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلمماذا لا تحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز ؟

وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع الجديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن . . وكان لابد من اتخاذ إجراء قووى لتأكيد هذا المعنى . .

وضعنا السياسيين في المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا عاكمة عسكرية ، وفي ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بإلغاء الأحزاب ووضع السلطة

التنفيذية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهى في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

ها بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح . . فصدر قرار من مجلس الثورة بجل الجماعة ، ولكمهم ظلوا على نشاطهم إلى مارس ٥٤ ثم إلى أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية . . المهم أن الأحزاب كلها ألفت وأخذنا سلطة السيادة ولكننا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات . . وقد كان . . في ١٦ يناير سنة ٥٦ أعلن الدستور المؤقت . . ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً .

وعندما تعود إلى ذاكرتي إلى تلك الأيام البعيدة ، أرى نفسى وأنا أكتب استقالتي من مجلس قيادة الثورة . . وأطلب جوازات سفر لي ولزوجتي لكي نعيش في لبنان . . لماذا لبنان ؟ لأنى كنت أسمع أنها بلاد جميلة . . غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال . . ويسعدنى أن أعيش مع الطبيعة . . أما سبب استقالتي فقد كان محمد نجيب . . والحرب المستمرة التي أخذ يشها على سراً وعلناً . . وبدون مبرر من جانبي على الأقل . .

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخابرات الذين اشتركوا في الحملة ضدى أن السبب كان ما سبق أن حكيت عن معرفة الشعب لى بسبب كفساحى تقديم وتصوير ذلك لنجيب على أنه محاولة منى للتسلق عليه وقد أركى ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط لى أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك .

أما أكره الصراعات ولا أرى فى الحياة شيئاً يستحق أن أتصارع عليه مع زملائى . . ولكن أن نجتمعنا مجلس الثورة معاً أصبح بالنسبة لى أمراً لا يطاق . . فى العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيساً لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت وقدمناه للناس كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلى التراجع وخاصة فى تلك المرحلة المتقدمة . . ولذلك فضلت أن انسحب أنا وأعيش فى هدوء . . اتصل بى عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذى أقنعتنى بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد .

نفس الشيء . للأسف حدث لرشاد مهنى الذى كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء على الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً على العرش فهو صاحب السيادة . ولقد انضم هو الآخر إلى عملية الصراع على السلطة وأبلغنى جمال أنه عندما قابله للفاهم معه اشترط خروجى من مجلس الثورة كشرط أساسى قبل أى تفاهم . . أخرى تعدت لما انذى لم أراحم أحداً أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغفل بصائر الناس ، غشاوة إلى الحد الذى يصبح الزعم فيه حقيقة والحقيقة وهماً ؟ ثم ما هو السبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها السليم ؟ كان لابد من أن نفعل شيئاً وشيئاً حاسماً لا رجعة فيه . . وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للاعتقاد ، وأن . . .

واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رقى عبد الحكيم عامر من رتبة صال . . لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفى نفس اليوم أعلننا الجمهورية فتحلصنا من مجلس الوصاية وصايرنا أموال العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية بعد أن أرغم على ترك القيادة العامة للقوات المسلحة فى ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة . .

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضا الوزارات .

هذا كله مجتمعاً كان الحدث الأول المهم فى عام ١٩٥٣ وفيه نرى أنه فى أقل من سنة من بداية الثورة ، انضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما انضحت حقيقة لم أكن أنا على الأقل أدركها من قبل . . وهى أن للحكم بريقاً يمكن أن يخطب لب الثوار ويلعب برؤوسهم . . هذا أمر بشرى على ما اعتقد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأنى فالإنسان عندما يكون فى دغيلة نفسه أكبر من أى شيء يصبح فى غنى عن كل شيء .

أحداث سنة ١٩٥٣ كثيرة ومتنوعة فهي وليدة الدفعة الثورية التي هي طبيعتها شابة قية . . أدكر من هذه الأحداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكي مـتر كافرى صديقاً لنا - فرحب واتصل بيلاده على الفور . . وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهي صيغة ابتكرها الأمريكيان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملء فراغهم . . سـونه (Vacuum) أى أن يحلوا محل إنجلترا وفرنسا في تحت نفوذ هذين البلدين .
فإنما الصيغة فإذا بها تنص على أن أمريكا على استعداد لإمدادنا بالسلاح بدون مقابل ولكن بشرط أن يصاحب السلاح عدد من الخبراء الأمريكيان وألا يستعمل السلاح ضد أى حليف لأمريكا . .

... لورقة للسفير الأمريكي وقلت له : شكراً . . نحن نريد أن نشترى سلاح جرمال ولا نريده مجاناً ونرفض أيضاً اتفاق الأمن المتبادل لأنه ضد استقلالنا الذى نحرص عليه كالحياة تماماً .

وسأيرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت على استقبال عنة عسكرية في واشنطن للتفاوض على شراء ما نريد من سلاح .

وكان جارحاً لنا جداً أن نرى الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماماً بعد وصولها إلى واشنطن بما لا يدع مجالاً للشك في أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعد ذلك أن يقتنعونا بالانضمام إلى بعض الأحلاف التي بدأها جون فوسر دالاس فيما كان يسمى بسياسة احتواء الاتحاد السوفيتي بتطويته بأحلاف وقواعد وهي السياسة التي أطلق عليها Containment والتي بدأت بحلف الأطلسي وامتدت إلى جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضح أن إرادتنا قد

تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت مصرية وحررة ١٠٠٪ ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعدة أو الانضمام إلى أحلاف .

كانت ميزانية مصر في ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهي اليوم ٥٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقد كان وضعنا الإقتصادي لا بأس به . . فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفيت في أوائل عام ١٩٥٣ وكان متالين في مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضاً بدورهم ، لأن مبادئ متالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حدث أن التقي شواين لاي بعبد الناصر في مؤتمر باندونج في ربيع ١٩٥٥ فتوسط لدى السوفيت ، وبناء على توصيته عقدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفيت ، وتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر ١٩٥٥ .

أذكر بهذه المناسبة أنه لما مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلى جميع الدول . . كان مبعوثنا إلى الصين رئيس مجلس الشعب الذى يادره شواين لاي بالسؤال : -

« تعرف مين اللي قتل عبد الناصر وهو عنده ٥٢ سنة ؟ »

واحتار رئيس مجلس الشعب . . ولكن شواين لاي قال رداً على سؤاله :
- السوفيت .

وهذا صحيح على ما أعتقد . . فبعد الناصر كان يجب وقعة واسعة للمناورة . . وعندما يجدها فهو مناورة ممتازة ، ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب ، والعرب وإيران - ولم يبق له إلا السوفيت .
وهذا لم يعطه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفيت عاملوه معاملته بعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة . . وقد كان لهذه المعاملة أثرها على صحته . . فقد كانت دون شك من أهم العوامل التي جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد على إصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهزا عليه . . طبعاً الأعمار بيد الله . . ولكن شواين لاي كان على حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر لي شخصياً يوم أن عاد من رحلة استغرقت ٢١ يوماً في الاتحاد السوفيتي قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لي بالحرف

الواحد وبالإنجليزية Hopeless case وأخذ يشرح لي كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفيت في نهاية مفاوضات فاشلة أنه سيعطى قبوله في الحال لمبادرة روتشيلد التي كانت قد أعلنت من جانب أميركا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا على مائدة الاجتماع في الكرملين في يولييه سنة ١٩٧٠ وقال لي عبد الناصر أن بريجنيف انفعّل لهذا الإعلان وقال لعبد ناصر بعض هل معنى هذا أنك تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر « بعدما فتنتموه معي فإني أقبل حلاً حتى من الشيطان » .

٥

معاً لتعارض الازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكنا ما أسماه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت في الأمور . . وقد تبدوا هذه صورة مثالية . ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبيراً وأخذت مناقشات تطول وتتشعب . . كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلى قرارات . وهكذا كانت تعطّل الأمور في وقت كنا فيه بحاجة إلى كل يوم وكل ساعة لإنجاز ما لدينا من مشروعات نهدف إلى إصلاح حال البلاد والانتقال بها إلى مرحلة أكثر تقدماً . وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في إحدى لاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديرة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا لاسلوب المعوق والحث عن أسلوب آخر .

كانت حصيلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنية . أنفصاها على بناء الوحدات الخمسة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كانت ٣ مدارس كل يومين - وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قبر ما بنى في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أشأما عند ذلك مجلدين ، أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات . . أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيمياء) للسجاد . . وعندما تعود في الذاكرة إلى

تلك الأيام . . أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر ، الزائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أي وقت وبدون سابق ميعاد . . كان اسمه على ما أذكر (دايموس) ، وكان في كل مرة يقتحم مقرنا يتفوه بعبارات محمومة . . فحواها دائماً فكرة واحدة . . وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تحمكه بالفكره وإلحاحه عليها - والبريق الذي يشع من عينيه يوحي إليا بأنه محنون دون شك ، ولكن التعبير الذي كان يعلو وجهه دائماً لم يدع مجالاً للشك بأنه مؤمن بفكرته لإيمان العابد بالله عز وجل . . مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراساتها . . وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث على قواع النيل في تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة على بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالي . . وليدة للإيمان والحماس والبصيرة . . كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

في سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً لإنجاز مشروع قديم ظل يتلأأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربية خزان أسوان ، الذي انتبها منه في سنة ١٩٦٠ مما أعطانا فرصة بدء السد العالي اعتماداً على الكهربية التي زودنا بها .

ولكن لعمل المشروع الذي غير وجه المجتمع المصري ، والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقة لا مجرد انقلاب عسكري . . هو مشروع الإصلاح الزراعي . . فبعد أن ترك على ماهر الحكم في سبتمبر سنة ١٩٥٢ وتولى رئاسته الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذي صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعي رئيس مجلس الشعب الآن . . وكان سيد مرعي في ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدي اللامعين ، ولكنه على أساس هذا المشروع دخل الوزارة وظل متابعاً له كوزير زراعية وري ، وكنائب رئيس وزراء ، وهو أيضاً الذي صنع لنا القانونين ، الثاني والثالث للإصلاح الزراعي ، وفي كل

مرة كان القانسون يهدف إلى المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلى المزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين ٥٢ ، ١٩٥٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعاً أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمى ببيئة التحرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظام والعمل . . ثم تلاها اتحاد قومي أول وبعد ذلك اتحاد قومي ثان ، ثم اتحاد اشتراكي أول وبعده اتحاد اشتراكي ثاب . ولابد أن نقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستارة من يوغوسلافيا بعد أن توطدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو ، وكان عبد الناصر يمضي وقتاً طويلاً معه في المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صحيفة الاتحاد القومي بمراحلته تشبه تماماً صحيفة اتحاد الاشتراكيين الذي أقامه تيتو بعد أن أنصر في حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التي جمعت كل يوغوسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أي كل الأحزاب التي كانت قائمة في الصرب ومختلف جمهوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصبية الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمر قومي عقد بعد انفصال سوريا والنكسة التي سببها في مصر والتي خضرت الشعب على النقد العلني العنيف إلى صحيفة الاتحاد الاشتراكي الذي يقوم على تحالف قوى الشعب العامل وهي خمسة كما أقرها المؤتمر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سمي بالميثاق . وهذه القوى هي الفلاحون والعمال والجنود والمتقنون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكي النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القومي فهو ببساطة صحيفة الحزب الواحد في الحالتين .

وازدادت الحالة سوءاً عندما أصبح الاتحاد الاشتراكي (الحزب الواحد) أداة سيطرة كاملة حتى على أرزاق الناس . . حين استعار المتقنون حول جمال والذين يفسلون له الماركسية كأسلوب فبدأ فرض الحراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثاق الذي

قامت عليه النظرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدى قوى التحالف الخمس .

وبدأت مرحلة التخطيط الاقتصادي .

وجاءت هزيمة ٥ يونيو بابعادها المهينة .

وبعد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بدأ النقد العنيف مرة أخرى ، وفي هذه المرة جاء الانفجار في فبراير سنة ١٩٦٨ بعد صدور أحكام مخففة على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوى أسباب الهزيمة المهينة . . ثم اكتشف الشعب أيضاً أن ما سمي بالميثاق لم يطبق وأنه لم يكن إلا لامتنصاح نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ أصدر عبد الناصر ما سمي بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ بواسطة نفس المتنفين حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقة لكي يبقوا في مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخرى أن بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئاً وأنه قد أرجأ اللعنور الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنون أنه سيقودهم إلى الديمقراطية . .

لقد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لامتنصاح آثار هزيمة يونيو وانفجار الجماهير وكم عانيت أنا من سياسة الامتنصاح هذه بعد ذلك .

فأنا أحب أن أغير . . لا أمنص . . وأن أعالج . . لا أحذر . . وفي نظر الناس أريد أن يكون كل شيء واضحاً كما هو في نظري تماماً . . وعندما أبدأ إلى حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعي لكي يكون الحل جلياً . . لا مؤقتاً . . ولكن الناس طبائع وخصال . .

مثلاً كان من الواضح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ أوائل ١٩٥٣ . . وبطريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلى تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة في الوزارة واحداً بعد الآخر ، حتى أنه قبل أن تنتهي سنة ٥٣ كان جميع الثوار يحكمون . . ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يخلق دائرة الصراع حقاً ؟

و سنة ١٩٥٤ وصل الصراع إلى مرحلة حرجية ، خاصة بيني وبين محمد وسوا وبين الإخوان المسلمين وبعض فلول السياسين الذين ألتفوا حولهم أنهم يستطيعون أن يخفوا شيئاً .

من ثمة لسة كان الصراع قد طفا على السطح بحيث أصبح لا يمكن وأعلننا التحدي ، وتوات الأحداث خلال بضعة

راع فشملي إلى جانب محمد نجيب خالد محي الدين - وهو شيعي - حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديمقراطية . ر ر ب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التي نجعل مشر إلى عجلات في آلة ، لا هم لها إلا طحن الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أنحص مقوماته التي خلقها له الله سبحانه وتعالى .

فضيما على فئة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات يدين من الضباط والسياسين ، وأقلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . كما في ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن أرضنا . صاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز في القناة ، ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة للاستقلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس حراً في نجيب ونأيدياً له بل في محاولة لإنهاء الثورة وتسليم السلطة . فكانت معذرات الإخوان وهي نجوب شوارع القاهرة وتوجه إلى قصر عابدين ، بجمل أفرادها ناديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد أراء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائياً في أكتوبر ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا في نفس الشهر تلك الاتفاقية التي أنهت الاحتلال البريطاني لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاماً .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلى أنهم على استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢٤ شهراً ، على شرط أن يحتفظوا بمحازن و ١٢٠٠ خير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد ٧ سنوات ، وتصبح المحازن وكل ما بالقاعدة ملكاً لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها .

جمعنا عبد الناصر في استراحة الحرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلاً .

طبعاً كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولاً لما يحدث ولذلك عندما جاء دوري لإبداء الرأي انفجرت قائلاً : -

أنا موافق على المشروع بدون مناقشة - فما الذي يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يجنبنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خير - وليبقوا بدلاً من السبع سنوات عسراً - ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أى سياسى أبهه يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟ .

وقعنا اتفاقية الجلاء في أكتوبر ٥٤ وهكذا وضعنا أقدامنا على أول طريق الاستقلال . . وكنا قبل ذلك قد وافقنا على حق تقرير المصير للسودان فيما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان بقرار مصيره بنفسه مما اضطر لإنجلترا أن تحلوا حذونا . فقال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

٦

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التي يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول في تاريخ مصر والثورة . . فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر في أكتوبر ١٩٥٤ وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندي بريطاني ورفع علم مصر على القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد على الخمسة وسبعين عاماً .

في هذه الفترة أيضاً عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التي حاول السياسيون الصغرىون استغلالها لعودتهم ، وجنبنا البلاد آثارها ، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة في نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة في أيدي من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفى فترة طويلة عن أى منصب تنفيذى إلا أننى دخلت الوزارة الى شكلها جمال في سبتمبر سنة ١٩٥٤ كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة العضو الوحيد الذى لم يتقلد منصباً وزارياً وكان جمال يصف هذا الموقف بينى وبينه بأننى رجل الدائرية الذى يبقى فى الخارج لكي يضمن سلامته وهو تعبر عكرى عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضاً ، حلف بغداد الذى نادى به مستر إيدن بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوى أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها فراغ لابد من أن يملأ . . وقد انضمت إلى الحلف كل من تركيا والباكستان وإعراق . . كان موقف الثورة من الحلف معادياً بطبيعة الحال فكيف تقبل أن تنضم إلى حلف كهذا في حين أن من سيقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ، ثم نحن قد نخلصنا من الاحتلال البريطانى بمعاهدة الجلاء فكيف نرضى أن نرنت مصر بمعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخرى ؟ .

ولم تقتصر مناومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه بل شملت جهودا مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان . . . مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزنا إلى إسرائيل بالانتفاء منا - وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول المنطقة . . . كما جعلنا نسمع بحاجتنا الملحة للسلاح - مما أدى في النهاية إلى عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهرو وشواين لائى كما أسلفت لاقناع روسيا بذلك . . وقد كان لهذا اثره في كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا وبين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة في رفع الروح المعنوية لدول العالم الثالث التي شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها من قبضة الاستعمار الذى ظل جائماً فوق صدرها قروناً طويلة حتى ولو كان طريقها إلى ذلك هو طريق البيع والشراء .

من أهم انجازات تلك الفترة على المستوى العالمى والحقى مؤتمر باندونج الذى كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها

حساب وفى نفس الوقت الملاذ الوحيد الذى تلجأ إليه الدول الصغرى ومثلها الأعلى الذى تحلو حذوه . . أما بالنسبة للأثر الحلقى لمؤتمر باندونج فقد أضاف الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذى استطاع أن يقف جيناً إلى جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشواين لائى وأن يستحوذ على اعجابهما رغم أنه كان في ذلك الوقت دونهما بكثير سناً وتجربة .

٧

أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلى أى مدى شاركت فيها وكيف كنت أنظر إليها ؟ .

في ديسمبر ١٩٥٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ في إحباط حلف بغداد . . ورغم عزوفى عن السلطة فترة طويلة ، إلا أننى قبلت العمل كوزير دولة في الوزارة التي شكلها عبد الناصر في سبتمبر ١٩٥٤ تضامناً معه في دفع عجلة الأمور . . وفي يناير ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامى وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لى زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية وقومية تخدم قضايانا . . فلت أباغ إذا قلت إننى قمت بدور فعال في إحباط حلف بغداد . . فى الأردن مثلاً . . تسنى لى إقناع الملك بعدم الانضمام إلى الحلف . . وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوب باشا قائد عام الجيش الأردنى البريطانى الجنسية . . بقرار من الملك حسين .

وفى لبنان ألتقيت بالرئيس شمعون ونجحت في إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً في ذلك على العداء القديم المستحكم فيما بين شمعون وعائلته من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخرى . . ، وفى بغداد اجتمعت مع نوري السعيد لمحاولة اقناعه بالعدول عن الإشتراك في الحلف . . ودام اجتماعنا طويلاً فما كان من الدهاية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن دخول مصر حلف بغداد . . فعندما انتهى الاجتماع وخرجت فاجأتى الصحفيون

هذا الخبر - فقلت إن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق وإن هذه حيلة من جبل تورى السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفى من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتى ؟ لا أعتقد .. فهناك جانب من الصورة لا تكمل بدونه رغم أنه قائم اللون .. ألا وهو الصراع الداخلى بين أعضاء مجلس قيادة الثورة لى تكشف واحتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التى نالها عبد الناصر فى مؤتمر باندونج

أذكر مثلاً أنه فى غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المراح .. عصبياً إلى حد غير طبعى .. غير موزن فى جميع نواحي شخصيته .. فلما وجد الناس متصرفة عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير المعارك هنا وهناك .. وفى كل محال .. إلى أن عاد عبد الناصر فازدادت المعارك حدة خاصة جمال سالم فى غياب عبد الناصر كان قد اتخذ إجراء ما ضد عبد الناصر .. لى عبد الناصر حسابة شديدة من ناحية أهله .. فكان يكتفى أن يبلغه - أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور فى المعتقل ويتخذ ضده من الإجراءات ما يخلو له .. وهذه إحدى نقاط الضعف التى كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوى وأتباعهم ليتناولوا حظوة عنده ، وفى نفس الوقت يتناولون من أعدائهم .. وفى رأى أن عبد الناصر كحاكم كان .. أن هذه هى طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضاً .. والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم - هذا إن عدل ! ، وهذا فى رأى أمر طبعى .. فالحاكم هو الوحيد الذى على المسرح .. كل الأنظار تتجه إليه ولا نرى سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر ينفص عليه حياته أو حتى يعكر مزاجه ولو قليلاً لابد وأن ينفسه إلى الحاكم حتى ولو كان الحاكم أعذل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم كعبد الناصر - قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح فى نظر الناس - ولعنهم على حتى - المسئول الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أما شجباً على نفيس تام من عبد الناصر فى هذه الحاجة . بل لاني فى وقت من الأوقات راودتنى رغبة شديدة فى أن أقول للناس : بما أبى قد ألغيت بالنسبة

لكم المعتقلات إلى الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمنحوا رئيس الجمهورية الحق فى أن يعتقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدبر وأسمى إطلاقاً ولكن من يضمن لى أنها لا تدبر وروس أهل وأقاربى فيظلمون الناس من حيث لا أدري ؟ .. ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذى أصدرته طوال مدة ولايتى خاصاً باعتقال شقيقى الأكبر وهو من ساعدنى ووقف من خلقي فى السجن والمعتقل وجميع الأزمات التى مرت بى ..

ليس معنى هذا أنى أنكر لأهلى أو لا أدبر لهم بالوفاء فهذا يتناق مع قيم الأسرة التى نشأت عليها والتى ما زالت تسرى فى عروقى وتشكل وجدانى كما لا يشكله أى شيء آخر .. على العكس فإن لىماني بهذه القيم يزيداد يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أرى فى التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أنى فى إحدى جولائى فى المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامى زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة .. واستقبلنى نهرى استقبالا ودياً خالصاً وأقام حفل استقبال تكريماً لى .. وقدم لى ضمن من قدم من ضيوفه نائباً فى البرلمان الهندى وزوجته وهى أيضاً نائبة مثله وكلاهما شيوعى ومن أشد المعارضين لنهرى - هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما فى القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهرى من خديه ونفس الشيء فعله زوجته من بعده . لم يكن نهرى يعلم أنى أعرفهما فقال لى مداعباً وهو يشير إليهما « كن على حذر يا ماستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمسكا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يتسم فى ساحة وحب فضحكا وقالوا بنفس روح المحبة واحترام الأبن لأبيه : -

- « لا بأس ولكننا نتردد عليك فى البرلمان » .

أخذت بما رأيت وسمعت ، فلا شيء يستطيع أن يستولى على أو يأسرنى بالفعل مثل الجمال .. وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولمسات إنسانية وقيم نشأت عليها فى قريتى الصغيرة .. حيث الكل عائلة واحدة

يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه في الرأي لأنه كبير العائلة . . وبالمثل يفرد الكبير الصغير ولا يغضب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقبل كل شيء أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع ابنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنا في قمة السعادة بالصورة الجميلة التي رأيها والتي ظلت عالقة بوجداني تسكني كلما استدعيتها . . إلى أن وصلت مصر . . فإذا بكل شيء على نقض تام مع صورتي الجميلة . . صراع وتناحر لا على شيء معين بل على كل شيء مهما بلغت قهاته . .

لم أشترك طمعا في هذه المشاهدات - فقط كنت أراقبها من برجي العالي وأسخر حيناً وأدهش حيناً آخر ولكنني في جميع الأحيان كنت أنالم لما . .

آه لنفس البشرية ما أضعفها وأتفها عندما تغطي المصلحة الشخصية فتحجب عنها رؤية الأشياء على حقيقتها . إنهم يحقدون على عبد الناصر لأنه قد حقق نجاحاً كبيراً في باندونج وارتفعت مكانته في عيون العالم . . أليست مكانته هي مكانة مصر ؟ ونجاحه أليس نجاحاً لنا جميعاً ؟ ولكنهم لا يصرون . .

عنوان الحبيب العائده كتبت مقالا صغيراً بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة عبد الناصر من باندونج . . ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظروف لمعنت ما فعلت مرة ثانية - فنكوبتي الأساسي قوامه الحب ولذلك عندما أُلحاً إليه أرتاح وأجد اخل لأية مشكلة وعندما يتعبد عني يختل توازني ويستولي على إحساس بالعجز مرير . . ومن هنا كانت قوتي لا تتجلى بأكملها إلا من خلال حب

هذا الشكوي الذي فطرت عليه - وبالصورة الجميلة التي عدت بها من عند هرو من اهد . . وفي جو الخند والصراع على السلطة الذي سيطر بشكل واضح على محس قيادة الثورة في سنة ١٩٥٥ أصبح من الصعب على أن أحفظ تمركر المنفرح من البرج البعيد كما اعتدت . . فقد ضاقت نفسي بما ترى من صراعات لا تكف لحظة ولا تنتهي - فكبت استقالي وقدمتها لإخواني بمجلس القيادة وفلت فيها إليهم اللوحة الجميلة التي شاهدها بالهند عسى أن يتعظوا . .

كانت هذه هي الاستقالة الثانية بعد استقالة سنة ١٩٥٣ .

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة في ذاكرتي مرة أخرى ، أستطيع أن أرى بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولى تدع من نفس المنع فكلاهما احتجاج صريح على جو الصراعات الذي كان يسود المجلس وهما في نفس الوقت دعوة لا تقل صراحة إلى تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الأحقاد تعصف بها وتحرقها عن أهدافها التي قامت من أجل تحقيقها . .

كان التنصارع على السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب . مما أدى إلى إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح . فأصبح الإنسان يؤخذ بحرم غيره أو يدون جرم على الإطلاق . . وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء على أي إنسان . . وكان يساعد هذا الجو الرهيب اعتقاد القادة بأن لهم الحق في أن يفرضوا على البلد ما يشاؤون بحجة المستبد العادل . ولم لا . . أليسو هم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب بروتوسهم قسموا البلاد إلى مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء . . ومن الأمثلة الحية على ذلك . . مثال وزارة الخارجية التي جنت الثورة عليها . . فقد اتخذها عبد الحكيم عامر مقراً يرسل إليه الضباط المتقاعدون حتى يتسنى لهم أن ينصروا بها من المماش الخاص بالملنيين وهو من الستون .

على هذا المنوال سارت الأمور في كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام . . وهكذا فقدت القيم واستولت الحيرة على الناس فأصبحوا لا يعرفون ماذا سيأتي به الغد أو كيف سينتهي اليوم . .

انتهى مجلس الثورة في ٢٢ يونيو ١٩٥٦ ، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية بالاستفتاء . . ولكن قبل أن ينتهي المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد . . وهذا في رأيي أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان . . فالخوف يقتل الشخصية ويشل الإرادة ويمسح بصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلوا بشعب مصر ؟ لا أعرف . . ولكن الذي أعرفه أن الشعب كان يدرك تمام الإدراك ما يفعله حكامه به

وبأنفسهم . . وليس أدل على ذلك من النكتة التي انتشرت في تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأى الشعب في قاداته . .

« كان فيه مرة تغلب عدى الحدود ودخل ليبيا - مسكوه هناك وقالوا له : أنت حاي هنا له : قال لهم : أصلهم في مصر يمسكوا الجمال . . قالوا له : لكن أنت تغلب . . قال لهم : حلتى على ما يعرفوا انى تغلب . . »

نقلت إلينا النكتة ونحن في مجلس الثورة فضحكنا طويلا . . وكان الأجلر أن يعي ما تتضمنه من إهانة الشعب لنا . . فتدبر أمورنا قبل فوات الأوان . . ولكن هل كان هذا في الإمكان بعد أن تغلبت العوامل البشرية على المثالية التي بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيا حتى عن ذاتنا ؟ لا أعرف . . ولكن الذي أعرفه جيداً هو أنني كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة - ولذلك هرعت إلى عد انصار صبيحة اليوم التالي لانتخابه رئيساً لأطلب منه عدم اشتراكى في الحكومة التي كان بصدد تشكيلها . . ومع ذلك فأنا تحت أمره في أية مشورة أو رأى . . فنحن أصدقاء ومنظّل دائماً كذلك . .

لقد ضفت بما شهدته من صراعات على مدى أربع سنوات كانت حملاً ثقيلاً نامت تحت نفسي حتى كادت تنحطم . . هكذا اكتشفت فيما بعد . . فبحث لا يوجد الحب لا مكان على الإطلاق لي .

الفصل السادس

عجز القوة

امصر في حكم عبد الناصر من يوليو ١٩٥٦ إلى يونيو ١٩٦٧

بانتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهورية في ٢٢ يونه سنة ٥٦ حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر الممثل الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية .

في ١٩ يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلامس الاقتصاد المصري وتراجع أمريكا والبنك الدولي عن تمويل السد العالي ، وفي ٢٣ يوليو شارك في الإحتفالات بذكرى قيام الثورة شيبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي . . وكان وقتها نجماً صاعداً في سماء الاتحاد السوفيتي واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفيت لتنفيذ السد العالي . .

رفع هذا روح عبد الناصر المعنوية بينما كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية للإحتفال بذكرى ٢٦ يوليو كعازمة فانتقل في في صبيحة ذلك اليوم بدعوى للسفر معه . . حيث كان ينوي بناء حفلة في ميدان امشيد . كنت مريضاً بنزلة معوية حادة فاعتذرت له . . فقال - « ما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلى خطابي في الراديو » .

قلت له طبعاً سأفعل ، واندعشت لطلبه ، فقد كان أمراً طبيعياً أن أستمع إلى خطابه دون أن يطلب منى ذلك . فما الذي جعله يطلب هذا الطلب الغريب ؟ لم أعر الأمر كثيراً من الاهتمام إلى أن جاء وقت الخطاب . . ففتحت الراديو وجلست إلى جواره . . كان خطاباً طويلاً كالعادة ولم يكن به شيء يلفت النظر إلى أن جاء نصف الخطاب تقريرياً . . فسمعته يتحدث عن (فرديناندى دى ليسبس) . . ساعتها أدركت ماذا ينوى فعله . . ولم تمض دقائق

بعد ذلك حتى تحقق ما أدركت . . فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس
رداً على جون فوستر دالاس . .

شعرت بالفخر . . فها هي مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيراً
قوة في العالم . . كانت هذه نقطة تحول في تاريخ
الشرق الأوسط . . فقد أحدث القرار دويماً هائلاً في
الشرق الأوسط . . لناصر منذ تلك اللحظة بطلاً أسطورياً من أبطال
الشرق الأوسط . .

هو . . وفهر على أيدي الاستعمار البريطاني طوال قرن تقريباً .
في اليوم التالي انتقل عبد الناصر القططار عائداً إلى القاهرة فوجد الشعب
مصري كله في استقباله . . ذهب إلى مجلس الوزراء ومن الشرفه هناك
لتي حضاً راد مار الحساس اشتعالا . . ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت
ه . . اسمع يا جمال .

قل . . نعم
نت : أنت ما قلتش على هذا القرار وأنت خلاص أخذه . . لكن
ما عاود قول لك حاجة .
و : إيه ؟

نت : لو سألتني كنت حاقول لك حاسب . . لأن هذه الخطوة معناها الحرب
واحكامش جهزين . . دا احنا له واخذين السلاح من روسيا - في سبتمبر
من السنة الماضية (١٩٥٥) اتعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا في أكتوبر
ونومر وله ما اتدرياش عليه بالقدر الكافي ، لأن كل تدريتنا كان إنجليزي
غربي . . فلم بات الوقت بعد الذي يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بتاعتنا من
غربية إلى شرقية . . لو كنت سألتني عن رأي كنت حاقول لك حاسب يا جمال . .
ولكن بما أنك أتخذت القرار خلاص فيجب أن نفق جميعاً إلى جانبك وأما
أولهم . .

وفعلاً من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم في مقالتي بحريدة الجمهورية
دالاس وأمريكا بصرارة وعنق . . الإتحاد السوفيتي سعد بكل هذا أعظم معادة

لأنه وجد من يحارب له معركة - من يوقظ له دول العالم الثالث والمستعمرات -
بينما لم يدفع السوفييت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل . . وبدوا أن
الإتحاد السوفيتي استمر هذا فقد دأب على أن يحارب نحن معركة في كل
مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه - دون أن يخسر شيئاً . . بل كما تبين
فياً بعد كان هو الرابع أولاً وأخيراً . . فالسلاح . . حتى أعلى من السلاح هرب
لأن عمره أقل من عمر السلاح العربي وإذا أضفنا إلى هذا فائدة $\frac{1}{4}$: ٢ : حتى
بتقاضها السوفييت لاتضح لنا أن السلاح هرب على مدى تطويل

سمع إيدن بنجر تأميم القناة أثناء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك
العرب ووريي آل سعود في الرياض . . فاتفق مع جى موليه وبين جوربون
في فرنسا وبين جوربون في إسرائيل - في ذلك يوم . . في جبر فقه . .
عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر
لفرنسا .

لم يكن هذا وحده الذي أغاظ إيدن فالموقف الذي اتخذه عبد الناصر بعد
أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل على (إيدن)
بعقليته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله . . فاتفق مع جى موليه وبين جوربون
على استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك . . بل قاموا بمحاولات متعددة
مثل المؤتمر الذي عقده إيدن في لندن وجمعية المتفعبين وغير ذلك . . إلى أن أحيل
الموضوع في النهاية إلى الأمم المتحدة . . واتفق على أن يجتمع الدكتور محمود
فوزى وكان في ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين
لويس وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر لبضعوا سوياً الحل السلمي
والتعويضات المالية . .

لم يحدث طبعاً شيء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذي
اختاره إيدن وجى موليه وبين جوربون لتنفيذ خطتهم . . وفعلوا هاجمت إسرائيل
سيناء وأطلقت صفارات الإنذار في القاهرة في آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذي كان
محدداً للتسوية السلمية في الأمم المتحدة ١) وكان عبد الناصر في بيته فطاح
إلى سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهي تقصف مطار المازة القريب

من منزله وهي تحمل علامات إنجليزية وفرنسية - فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت . . . وذهب إلى القيادة في مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فوراً من سيناء تمادياً للفتح الذي كانت ستتم فيه . . . إسرائيل في المواجهة في سيناء والإقليم والفرنسيين من الخلف . . . ونفذ الأمر بمنتهى الدقة وعلى مدى ثلاثة أيام . . . نجحت حفظ لنا أكثر من ثلثي قواتنا المسلحة . . . ولذلك يجب أن يذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى - صحيح أن جميع طائراتنا قد دمرتها فرنسا وإحتراق بصريه واحدة وهي ما تزال على الأرض - وكنا قد اشتريتها من الاتحاد السوفيتي مد أقل من ستة ونمتر بها غابة الاعتراز . . . ولكن لم يكن عادلاً . . . يستطيع أن يفعل شيئاً وقد باعنا إنجلترا وفرنسا بالعنوان . . . وصفت بأنه قلل في مقالتي في جريدة الجمهورية إذ نفس اليوم اندي اعتدوا فيه على مطاراتنا .

١٢ ساعة وقد أحدث بلبلة عند بعض السياسيين القدامى . . . ان يتجمعوا فيرسوا رسالة إلى عبد الناصر لإقناعه بقبول تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . . سمع عبد الناصر بهذا فأرسل في طلب توبة صرب تار من الخرمس الجمهورى ووقفت في ساحة مجلس الوزراء وقصم أن بعده رماً بالرصاص أى إنسان يأتي ليقترح عليه قول

شعاً كنت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر على العالم رفض مصر للإنذار بربطى العربى وتضميمها على القتال وليكن ما يكون . . . وكان ذلك في ٢٢ نوفمبر . . . والشعب كله ملتف حوله بعد أن غربه متخوفة . . . وفي نفس اليوم كان الشعب الإنجليزى يضرب رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داوننج سترى) بالطوب والحجارة احتجاجاً على العمل اللائق الذى قام به .

بشار أرسل عبد الناصر في طلب سفير أمريكا وإيموند هير . . . يزنهاور يقول له فيها . . . أرجو أن تتكفل أنت تخلفاتك بريطانيا وفرنسا وأترك لي أنا إسرائيل أتكفل بها . . . رد إيزنهاور وقال إنه سيعمل كل ما يمكن فعله . . .

ونحن في أوج المعركة بين يومى ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩٥٦ كان شكرى القوتلى رئيس سوريا في ذلك الوقت في زيارة رسمية للاتحاد السوفيتى فتحدث إلى الزعماء السوفيت بشأن معركة القناة وطلب منهم مد يد المساعدة لمصر ، ولكن السوفيت تخاذلوا تخاذلاً تاماً . . . فأرسل القوتلى إلينا بذلك ونصحنا بالاعتماد على أنفسنا فلا أمل إطلاقاً في السوفيت - وهذا ما جعلنى منذ تلك اللحظة أؤمن بأن من يتغلى بالسوفيت فهو دائماً مكشوف - وفي ٥ نوفمبر تدخل إيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فوراً . . .

عندما علم السوفيت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكى أرسلوا الإنذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلى إنجلترا وفرنسا . . . والذي لم يكن في الواقع إلا مجرد استعراض عضلات ومحاولة للظهور بمظهر المقدس . . . مع أن الذى أنقذ الموقف حقيقة كان إيزنهاور فقد استجاب لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا في ٢٣ ديسمبر سنة ٥٦ وتلها إسرائيل في مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً في الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة « لا بد من الخوف مما لا بد من الخوف منه » . . . يعنى أمريكا بطبيعة الحال . . . فلم يكن في استطاعة إسرائيل أن تفقد تأييد أمريكا وهي القوة العظمى في العالم . . .

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلى الوراء قليلاً حتى نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائماً الاستناد إلى القوة العظمى في العالم في أى وقت من الأوقات . . . كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هي القوة العظمى في العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تفهقرت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولى . . . ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلى نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملاً إلى أمريكا . . . بل ويسعى جاهداً إلى أن يفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا . . . كما حاول أن يبنى سياسته بعد قيام ثورتنا على ضرورة الإيجاع بين مصر وأمريكا . . . ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطننا علاقتنا بأمريكا

في بداية الثورة كما رويت . . فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته على عملية سرية وهي أن يرسلوا إلى مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر . . وفعلاً حدث في سنة ٥٣ اعتداء على سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والفصلية الأمريكية في الاسكندرية . . ولكن البوليس المصري تمكن من الإمساك بالجناء وكانا شاين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام . . وكانت فضيحة أبلغها بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن حوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان على عبد الناصر أن يتعلم درساً مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن تكون على خلاف مع أمريكا . . ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجده بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار الرومي ويتب إلى السوفيت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من جفافة للحقيقة ، فالذي جعل هزيمة تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكي وليس الإنذار الرومي . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسي اعترف ، كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا — ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التي كانت تسعى إلى العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر . . تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم الصبح له فقد كان كل همهم أن يضحكوا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم ماصيهم ونفوذهم .

٢

إلى يوم ٢٩ ديسمبر سنة ٥٦ كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة . . كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين . . وكانت المعاهدة تنص على بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام ٥٤ وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بناء على أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة ٥٧ أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهى بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أسرى قتيلاً لهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسرى بيننا وبين بريطانيا — وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قراراً آخر أهم من القرار الأول وهو تخصيص الاقتصاد المصري كرد فعل للتخريب الذي أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية . . كانت هذه ضربة كبرى فبل ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أي أوروبية بصورة أو أخرى .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقها من حملة الأسهم فدفعناها بالتسليم وكانت في مجموعها لا تزيد على دخل القناة في سنة واحدة . وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن ٤٠٠ مليون جنيه استرليني كانت قد جمعتها نتيجة لتأميم القناة .

وهكذا بدأنا سنة ٥٧ ونحن نملك اقتصادنا بالكامل . . بالإضافة إلى أرصدة من الاسترليني أي الـ ٤٠٠ مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا . كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق للأرصدة متوفرة . . وكذلك الاحتياطي . . كان كل شيء في الواقع معداً لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخماً يعرض على مصر ما فاتنا في سنوات التخلف والاحتلال . . ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها . . خرافة كبيرة جداً في مصر والعالم العربي فهو البطل الذي حقق النصر على إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فيبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقي الذي لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر . . لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة على الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة

حتى يقضى بذلك على عبد الناصر ويعزل مصر تمهيداً للاجهاز عليها . .
ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف
سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلاً أطلقى سعود على تقرير
للمخابرات المركزية الأمريكية عني يقول إننى العميل الأول للسوفيت
في مصر . لا لشيء سوى أننى كنت أكتب مقالاً يومياً بالجمهورية أهاجم
فيه أمريكا لمحاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومي مركزاً على دالاس وزير
خارجيه أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس . . وإن دل
ذلك على شيء فهو ما يدل على أن المخابرات المركزية كانت تستقى معلوماتها
من مصادر تافهة تشبه المصادر التى يستقى السوفيت اليوم معلوماتهم منها .

٣

يأس دالاس بعد أن فشلت ماعيه في عزل مصر والقضاء على
عبد الناصر . . فأوعز إلى تركيا بمحشد جيوشها على حدود سوريا وبدأوا
في تعميم الوضع هناك تصميماً سريعاً - في هذا الوقت كانت بيننا وبين
سوريا اتفاقية دفاع مشترك ، وهكذا صحا العالم ذات صباح على خبر وصول
- حربة مصرية إلى ميناء اللاذقية وإنزال حوالى خمسة آلاف جندي بتنادهم
وعندهم مما فاجأ الأمريكان والأتراك معاً إذ أن القسوة قامت من الاسكندرية
حراً من اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات
الإسرائيلية في شرق البحر الأبيض .

ضماً كان لهذه الحركة أثرها في إشعال العالم العربى ، فقد أصبح
عبد الناصر بطلا قومياً لا يمكن لأحد أن يقف في طريقه ومن هنا نشأت
فكرة الوحدة بين مصر وسوريا . .

بعد ذلك أخذنا في الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة - وراعينا
في هذا شيئاً . . أولها حر الاعتراض لمجلس قيادة الثورة . . ومعلابعد
أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان المقاييس في الاعتراض
الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عداة المرشحين لثورة - أما الإجراء

الثاني فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا
الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية . . وفعلنا أغلقنا ٦٠ دائرة
من ال ٣٥٠ . ثم أجريت الانتخابات . . واجتمع فعلاً أول برلمان في ظل
الثورة في سنة ٥٧ . . أى بعد خمس سنوات من قيامها .

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر في استراحة برح العرب .
فإذا بي أفاقاً يطلب منه بأن أمتد لرئاسة المجلس وقيلت . . ولكن قبل افتتاح
المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به في القاهرة . . وقال إنه يفكر
في إسناد رئاسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى بعفته أقدمنا
غير عبد الناصر رأيه في خلال يومين فقط . . وما الذى دعاه إلى ذلك؟ . .
إلى الآن . . ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يفكر
رأيه في آخر لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأيه
قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه على الناس أجمعين

طبعاً لم أهتم أنا برجسوع عبد الناصر عن قراره في مسألة تعييني رئيساً لمجلس
الأمة ، فأنا عضو به على أى حال - ولم أكن في حياتى أسمى إلى منصب
أو مركز ما . . ويكنى أننى عندما انتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية كنت
أول من اعتذر له عن الاشتراك معه في الوزارة . . بل وضبت مه صادفاً
أن لا يعهد إلى بمنصب من مناصب الدولة . .

كان لا بد على أى حال أن يتولى منصب وكيل المجلس أحد الضباط
الأحرار فعرض عبد الناصر هذا على أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا . .
فلم يجد مفسراً من أن يتقدم بهذا الطلب إلى . . وقيلت . . وقد تعجب إخوانى
كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادي وقد كنا - على الأقل - زملاء في مجلس
الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر في شيء . . طبعاً لم يكن هذا تفكيرى . .
فلم يحدث في حياتى أن ميزت عملاً عن آخر - مادام العمل من أجل مصلحة
مصر - وسواء كنت عضواً بالمجلس أو رئيساً أو وكيلاً له . . فالعمل عدى
بتساوى والعبء بالعمل لا بالمنصب . .

في أواخر سنة ٥٧ جاءتنا دعوة من البرلمان السوري الذي كان يرأسه
 "كرم جوري" رئيسة دمشق قبل الدعوة واتفق حمّاس مع العبادي
 على أن يرأس الوفد المرافق إلى سوريا - وفعلاً سافرنا في نوفمبر سنة ٥٧
 ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة - كان شكوى القوتلي في ذلك
 الوقت رئيساً للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفاً عليه - والجيش ممزق إلى
 فرق وكل فريق عليه أن ينال في المعسكر الخاص به خشية حدوث أي انقلاب فالجميع
 - بصوت بعضهم بالبعض - المهم - فوجدنا في أوائل فبراير سنة ١٩٥٨ بخمسة من
 قادة القوات السورية يصلون إلى القاهرة ويلتقون بعبد الناصر في نفس الليلة التي
 وصلوا فيها ويطلبون الوحدة مع مصر - حاول عبد الناصر جاهداً أن يثنى عن
 عزيمتهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد - خاصة وأن البلدين
 مختلفين في أوجه كثيرة - ولكن عثاً حاول ليلة بعد أخرى إلى أن كانت
 الليلة الثالثة فلم يجد أمام إصرارهم مناصاً من الموافقة على الوحدة -
 فعقدت في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح - فالسعودية على وجه
 الخصوص كان يهمها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلى أحد ، فبين البلدين
 حدود مشتركة - ولذلك كانت السعودية تصرف وواتب منتظمة لبعض رؤساء
 الأحزاب والحكومات والوزراء في سوريا حتى يظل الوضع قائماً كما هو -
 وبانضمام سوريا إلى مصر بدأ الخوف يتزايد في البلاد العربية الأخرى
 خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا - وهكذا كان أيضاً وضع الملك
 حين في الأردن والملك فيصل في العراق وشمعون في بيروت - الكل
 يخشى القوة الجديدة التي ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين
 في المنطقة - ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضاً
 والإمبريالية الغربية -

بالصدفة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان
 ولياً تمهيداً) في زيارة مصر - وكان في ذلك الوقت مارا أميراً وكما أم قام
 اعتدنا في زيارته المتكررة لمصر أن نتناول طعام عشاءنا البسيط في بيتي بالهرم -
 وفي هذه المرة قال لي فيصل على مائدة العشاء :

" أنتم راينين وين ؟ .. مشيراً بذلك إلى الوحدة مع سوريا .. فقلت له :
 " العملية انتهت خلاص .. " قال : - " أنا في عرضك قل للأخ جمال ان
 البلاد دي عشر واحد أدري بها مكتم .. هذه الوحدة لن تنمر ولن
 تتمشى مع التيارات السياسية هنا وستضركم .. أنا واثق من هذا وأنا باكلمكم
 كصديق وأخ .. الوحدة دي حتاخذوا فيها ضربة .. "

أنصت طبعاً إلى كلام فيصل فقد كان مخلصاً في نصيحته .. وكان دائماً
 شخصية متزنة عاقلة .. ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيق فعلاً .. ولكن ماذا
 كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دي انتهت خلاص .. بعد غد سيأتي القوتلي وستعلن
 الوحدة ولا رجوع فيها الآن ..

قال : أنا باكلمكم علشان أريح ضميري .. ولكن ثق - وسوف أذكرك -
 هذه الوحدة ستنهى بكارثة ..
 وقد حدث فعلاً ..

المهم .. جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلي في ترفة مجلس الوزراء
 حيث ألقى كل منهما خطاباً يعلن فيه قيام الوحدة .. وقبل ذلك بدقائق
 كان جمال والقوتلي قد وقعا على وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضاً
 نزولاً على رغبة عبد الناصر برغم أنني لم أكن في ذلك الوقت أشغل أي منصب
 رسمي في الحكومة ..

بعد ذلك حل مجلس الأمة في مصر ونظيره في سوريا .. تمهيداً لتشكيل
 مجلس موحد بين البلدين .. ثم أعدنا طائرة كوميت عادية من طائراتنا
 استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها في منتهى السرية إلى دمشق خشية
 أن يتسرب خبر السفر إلى إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة
 تماماً .. حتى أن بن جوريون لم يستطع أن يخفى هذا فكان من تصريحاته المشهورة
 أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل في كسرة البندق ..

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعاً بقصر الضيافة هناك : من الصعب على أن أصفه -
 فقد كان عبارة عن هديان لا ينقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة -

كان عبد الناصر يخطب إلى أن يصيبه التعب . . ثم يخطب القسوتلى - ثم أخطب أنا . . وهكذا واحداً بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السوري لا نتوقف . . والشعب السوري ينصت إلينا ويطلب المزيد . . لا يمل ولا يشع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحاحر بافتانات ولا تكل الأيدي عن التصفيق إعجاباً واستحساناً تطلب المزيد . . أسوعاً بأكمله لم تترشح فيه جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شراً واحداً . . فكانوا يأكلون ويشربون وينامون وهم وقوف أو جلوس في أماكنهم بالميدان الذي يطل عليه القصر . . ومن نفس هذا الميدان في نهاية لأسوع أعلنوا الدستور المؤقت . . أعلنه أنا بصوتى فقرات مواد الدستور مادة مادة . . والناس نحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل فقرة وكلمة ومقطع من كلمة .

٤

في يوم ١٤ يوليو سنة ٥٨ كان عبد الناصر في طريق عودته من جزيرة بربوني حيث كان في زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقى رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه في مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت في العراق ، وفي نفس الوقت تلقى رسالة أخرى من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته ويعود إلى بربوني ، فالأسطول السادس في البحر الأبيض وقد يعتدى عليه الأمريكان تنبحة لثورة العراق . . اتصل عبد الناصر بتيتو فسروراً ليجهرز له طائفة في مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذي كان يحرس بئنه وانطلق عائداً إلى بربوني في حين واصل البخت وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلى الإسكندرية .

من مطار (بولا) في بوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلى موسكو حيث التقى بخروشوف وطلب منه مساعدة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتأمره وشرامته التي بدأها بعدوان سنة ٥٦ .

وكذا قال لي عبد الناصر شعبياً استمر الحديث بينه وبين خروشوف ١٦ ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية

ولكن حيثاً ذهبت كل محاولاته . . ضد خروشوف تقديم أي نوع المساعدة . . نفس ما حدث في سنة ٥٦ عندما حاول شكري القسوتلى حث السوفييت على مساعدتنا ضد العدوان الثلاثي

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين واحداً إلا أنا وعامر ثم توجه إلى دمشق حيث أعلن في كل مكان أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانب ثورة مصر لموقف السوفييت ومحاولته لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من بساندها .

بقى عبد الناصر في دمشق فترة إلى أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلى القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخرى لدمشق عام ٥٩ هوجم بهجوم عيب من جانب خم وشوف على الوحدة بين مصر وسوريا . فكلنا نعرف أن النظرة الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية . . تضادى جمال لبحوم خروشوف وهو في دمشق واتصل بي من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومي (التنظيم الباسي الوحيد) فألقيت خطاباً في ميدان عابدين - ثم ذهبت إلى الإسكندرية حيث ألقى خطاباً كان مشهوراً في ذلك الوقت بعنه عبات فيه الثعور ضد السوفييت كما لم يعبأ من قبل وقد روتى لجمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ المعركة ضد السوفييت . اتصلت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان يضعون كل إمكانياتهم تحت أمره ولهم على استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للقمع والزبوت وما شابه ذلك . . وفعلًا كانت المعسونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت في سنة ٦٥ كان لذلك أثر على الاقتصاد المصري .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولى على الثورة عبد الكريم قاسم . . وهو عميل شيوعي مسجل بالحزب الشيوعي فألقى السوفييت بكل ثقلهم وراءه . . وكان هذا أحد العوامل التي دعتهم إلى تصعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة

مع سوريا . . . وهي الحملة التي قابلناها بالمثل - فكلما صعدوا صعدنا ،
بما جعل خروشوف يقول متسولة المشهورة وهي مثل روسي شعبي قديم
موثاه : لا تبصر في برك لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية . . . يقصد بهذا
يصح عبد الناصر بأن لا يعكس علاقته مع السوفييت لأنه سيضطر إن عاجلاً
أو آجلاً إلى أن يعود إليهم .

٥

بأنهاء الحمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام
والخزائم واللكات والأخطاء البشعة من جانبنا . . . وكما أقول دائماً - كما كانت
ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في الخمسينات فلما كانت عملاقة في أخطائها
في الستينات .

الشيء المضيء الوحيد في سنة ٦٠ كان إتمام كهسبة خزان أسوان القديم
ثم التفجير الأول لبداية السد العالي بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب
الله يرحمه . . . فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو على السطح فيما بين
أعضاء ما كان يسمى بمجلس الثورة ويجب أن أقدر هنا أني إلى هذه اللحظة
لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهينة من الأحقاد . .
أما بالنسبة لي فلم يكن هذا حالي في يوم ما فلا أذكر أني حضرت يوماً على
عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معي كان يمكن لغيري أن يفسرها تفسيراً
سيئاً . . . ولكني لم أكن أرى شيئاً لنفسه ولذلك لم أعرف الحق . . . أما
بالنسبة للآخرين فثنا أعرف أن كلامهم كان بل وما يزال يحمل في نفسه كمية
هائلة من الحقد على عبد الناصر . . . حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر
الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعد الناصر في أواخر أيام حياته إلى عملية
حقد وهبة .

المهم . . . بدأ الستينات بأحساد تطفو على السطح وفي نفس الوقت فوجئنا
بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تنفك . . . كان قد انقضى على قيام الوحدة عامان
وضيح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة . . . كنا قد ألغينا الأحزاب في سوريا

وكان من ضمنها حزب البعث الذي قبل مع الأحزاب الأخرى عملية
الإلغاء آملاً أنه (أو أي حزب سوري آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد
من خلال الوحدة . . . فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتندرون بالاتحاد القومي
ويتآمرون على الوحدة . . . أحسن عبد الناصر بهذا في سنة ٦٠ ولكنه لم يكن
يستطيع أن يمنع . . . كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمراً ما سوف يحدث
ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع في مصر نفسها . . .

في نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة الناس
والعجز التي وجد نفسه يواجهها وبشاء الله أن أصاب أنا أيضاً بنوبة قلبية في
١٥ مايو من نفس السنة . . . نتيجة للإرهاق سنوات عديدة متتالية
وللإرهاق الذي أصابني في تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلى كوناكري
كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي حيث طنا على السطح لأول مرة
الخلافاً بين الاتحاد السوفيتي والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلى كوناكري كنت قد تركت الاتحاد القومي لأنني شعرت
أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفاً مني ربما نتيجة لوشايات مفرضة وصلته - فقد
كانت لديه عادة الاستماع إلى الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمه
يصبح من السهل التأثير عليه . . . المهم أني كالعادة في مثل هذه الأحوال كنت
أنا أيضاً أخذ موقفاً منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلى أن يعود الصفاء إلى نفسه
فتصل بي . . . وتزول الجفوة . . .

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتي من كوناكري ومرضي جاء
لزيارتي . . . وكان صلاح سالم قد أشاع في تلك الأيام أن سبب إصابتي بالقلب
كان عبد الناصر فسألني إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحاً . . . قلت له :
لا . . . غير صحيح فالسبب على ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكلها من
الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكري الحار الشديد
الرطوبة الذي عانيت منه كما لم أعاني من شيء في حياتي . . .

في صيف سنة ٦٠ صب منى عبد الناصر أن أشرح نفسي لرئاسة مجلس الأمة
الإنشائي الذي كان أعضاؤه مصريين وسوريين أي كان بمثابة برلمان للوحدة
فتمت وانتخب رئيساً للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتي
من الإصابة التي أصابني . . وفي نفس الوقت تقريباً عين عبد الحكيم عامر
قائماً عاماً للحسين الأول . . في - أي الجيش السوري والجيش المصري -
برتبة مشير وخسب عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية .

حسب سنة ٦١ والطريق المسدود الذي سلكته الوحدة يزداد انسداداً ،
فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط والتدمير السياسي أخذت رقعته تتسع . . فقد كان
عبد الناصر يعتمد في سوريا على شخص واحد هو عبد الحميد السراج -
وكان الشعب السوري قبل الوحدة يعاني مما كنا نعانى منه في مصر إلى وقت
غير بعيد من كت لتحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ
حد قتل - فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيراً في أن تتغير الأحوال
ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال على هذا المنوال بدأت الناس
في سوريا تضع ونضيق وتزداد شقاء وسخطاً ، وفكر عبد الناصر وتناور
معاً في أن يرسل إلى سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني في الدولة
حديثة وقد علم قواها المسلحة على أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة
بصريق المسدود الذي وصلت إليه . . ووافقاه على رأيه . . وفعلاً سافر
عامر إلى سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبد الحميد السراج كما هو . .
وكان هذا خطأ فاحشاً لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا .

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان
يسيء اختيار معاونيه بشكل قاضح . . وكان من أبرز ملامح شخصيته روح
القبيلة فهو يساعد من يعاونه على حق كان أم باطل .

ونتيجة لكل هذا نشب صراع خفي بين عامر والسراج . . ثم أخذ
بتصاعد إلى أن نزل إلى رجل الشارع في دمشق . . بينما كان عبد الناصر كعادته

يناصر عامر ظالماً أو مظلوماً . . فوذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دوع
سبعة ملايين جنيهه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمسلمين والمتمسرين
في سوريا ثم القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد اناصر في ٢٣ يوليو سنة
٦١ وأثرها على المجتمع السوري الذي هو بطبعه نحار لأدركنا مدى سخط
الشعب السوري على عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذي بلغ أقصاه
عندما صحا الناس في دمشق في يوم ٢٦ سبتمبر سنة ٦١ على وحدات من الجيش
السوري وهي تحاصر القيادة العسكرية هناك . . كان عبد الحكيم يعيش في فيلا
ملاصقة فهرع إلى القيادة . . ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه وبدأوا
يكلّمونه عن طريق الميكروفون مهددين متوعدين ثم بدأوا في إصدار
بلاغات حربية - بلاغ رقم ١ ، بلاغ رقم ٢ . . الخ . . وكان البلاد في
حالة حرب - علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف . . ولكن عبثاً ذهبت
كل محاولاته بعد أن ألغوا القبض على عامر وشحنوه في طائرة إلى مصر . .
وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن . . ونحنفت
نبوءة فيصل في .

٧

على مستوى رجال الثورة كان الانفصال شمانة كبيرة في جمال عبد الناصر
وعبد الحكيم عامر - أما على المستوى الشعبي فقد بدأت الناس تتلمل
وتسأل : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته
بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت في ٢٣ يوليو ١٩٦١) ووقع
الانفصال في ٢٦ سبتمبر ١٩٦١) تلك التي صدرت من أجل مصلحة الجماهير . .
ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئاً هاماً في حياته . . وهو الحرية .
فعندما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعوضه شيء عن هذا . .

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات . . كان يتصور أن الشعب
مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له
وتهلل وتصفق . . ولكنه نسي أن في ضمير كل مواطن - حتى في الطبقات

التي كان يعتقد أنه يخدمها - حقيقة أساسية تغطي على كل حقيقة أخرى وهي الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التي بعبد الناصر وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كفائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التي وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كفائد عام لا تسمح له بالاستمرار في عمله . . . رحب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ معركة سنة ٥٦ وبعد الموقف المتحاذل الذي وقفه عامر آنذاك والحالة التي كانت فيها القوات المسلحة في ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر ترحيبه باستقالته حتى لا يراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حتى المعرفة ويترصد بالآخر في غيابه وحضوره . .

انقضى أسبوع بعد ذلك وعامر لا يذهب إلى القيادة وعبد الناصر يجهز الخطاب الذي سيلقيه ليعلن أن هذا هو الطريق الذي اختارته سوريا فليحفظها الله ويسارك خطراتها وعلى الجميع أن يحترموا إرادتها وما اختارته . . . وفعلا ألقى عبد الناصر خطابه وكان له صدى طيب في البلاد العربية ، ولكنه لم يمض يوم أو يومان بعد ذلك إلا وبفاجأ بعبد الحكيم عامر يطلب منه سد حاجات النقص في القوات المسلحة وغير ذلك مما يشير إلى أنه مستمر في عمله كفائد عام . . . حيث أسقط في يد عبد الناصر ولم يدور ماذا يفعل . . . طبعاً كان وراء تراجع عبد الحكيم مستشاروه من أمثال شمس بدران وبعض خاصته وأهله وكان لهم تأثير مهيء عليه . . . وإحساسه بأنه شريك عبد الناصر فما دام عبد الناصر يحكم ، يجب أن يظل عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة .

حينما سمع عبد الناصر هذا من عامر جنونه ، ولكنه أحنى شعوره ودعانا جميعاً للاجتماع به وطرح الأمر علينا . . قلنا له ببساطة إن هذا الأمر لا يحتاج إلى مناقشة فربما يا جمال أن عبد الحكيم كان يجب أن يترك القيادة منذ ٥٦ لا في ٦١ . . صحيح أنه شهم ولطيف إلى آخره . . لكنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري . . باحتصار قلنا جميعاً وفي نفس واحد بجمال إن استبعاد عامر من الجيش مسألة مفروغ منها ولا تقبل الجدل .

م. بمنعنا هذا بطبيعة الحال من أن نتساءل فيما بيننا بعد خروجنا من الاجتماع لماذا استدعانا جمال عبد الناصر ؟ فقد كان من الطبيعي وهو رئيس للجمهورية أن يصدر بعد الانفصال مباشرة قراراً بتعيين قائد عام جديد للقوات المسلحة والاكتفاء بأن يكون عامر نائباً لرئيس الجمهورية كما كان . . اتضح لنا فيما بعد أن عبد الناصر كان يريد أن يأخذنا كراي عام ضد عامر . . بينما لم تكن المسألة في نظرنا تحتاج إلى هذا . . فحن لسنا الشعب . . أما الشعب فقد كان يطالب برأس المسئول عن السبب في كل هذا .

بعد خروجنا قام عبد الناصر باستدعاء عامر وجعلنا يناقشان الأمور فيما بينهما . . وبعد عدة اجتماعات بينهما اختفى عامر فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وقال لنا إنه أبلغ عبد الحكيم بالقرار الذي اتخذناه ولكنه رفض الاستجابة له . . ثم حتى حيث لا يعلم أحد ولو أنه عرف عبد الحكيم أنه كفء في مرسى مطروح . . كان ردنا على عبد الناصر أنه لو تراجع في القرار الذي اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر لمصلحة مصر . . ثم لماذا يسألنا الرأي . . إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

في هذه الأثناء - وإغاطة في عبد الناصر - قدم عامر له الاستقالة المشهورة التي طبعها بعد ذلك في سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية ومنه ٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيداً أنها تثير حقن عبد الناصر . فمثلاً قل إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة .

كان عامر يعرف جيداً أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلى البلد لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية . . فإذا قبلت هذه الاستقالة . . سيجعل من عامر بطلاً قومياً . . فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وعرض علينا الاستقالة - وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلى أن يستدعينا قبل ذلك أو في هذه المرة .

أرسل عبد الناصر في طلب عامر والتقى . . وها تظهر علامة استنهام كبيرة في علاقات عبد الناصر وعامر . . فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه تماماً . . إذ اتفقا على أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتعلم

مصفاً آخر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . . فالقائد الأعلى هو
 نائبا رئيس الجمهورية - وهذه وظيفة شرفية حسب الدستور ولكنها ليست
 . . فالقائد الأعلى عليه أن يوقع أمر القتال كما عليه أن
 لقائد القوات المسلحة الذي يحدد فيه استراتيجيته
 . . عامر على أن يتولى القيادة الفعلية - فلا يعين قائد عام
 وقد سلم له حالاً بذلك بدأ كان ينوي أن يعين محمد فوزى قائداً عاماً
 في ٢٣ يوليو سنة ٦٢ (وكما في ذلك الوقت في ديسمبر سنة ٦١) فلما
 في ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان . . فما زال فوزى رئيس
 ركن حرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم
 نعيروا - فدأنا نسأل فيما بيننا . . فيم كان إذن استدعاء عبد الناصر لنا
 ، أحده مشورتنا المرة بعد الأخرى ؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها بين عبد
 ناصر وعامر وكان شيئاً لم يكن . . كل ما حدث هو أن رقى عامر من منصب
 قائد عام القوات المسلحة إلى نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام .
 واستمر أحسان على ما هو عليه حتى وقعت كارثة ٦٧ . .

كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذي اتخذ قرار تنحيته عن القوات
 المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة - بدأت المياه بيننا ويده تنعكس . . ولكنه
 بعد أن فكر في الأمر ملياً انتهى إلى أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلا بد أن
 . . هو الذي دعانا إلى اتخاذه - أضف إلى هذا أنه عرف بالاجتماع
 حتى تم بيننا وبين عبد الناصر في بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ
 ذلك الوقت - أي أول سنة ٦٢ - يأخذ احتياظه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر
 يأخذ احتياظه من عبد الحكيم بدلاً من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهورية
 وهكذا نشأ أول مركز قوة في مصر يباشر عمله بصراحة . . فقد أصبح هم
 عامر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعد ما تأكد لديه المعنى الذي كان
 دائم الاحساس به وهو أن هناك صراعاً وعدم ثقة وفجوة بينه وبين عبد الناصر
 وبينه وبين الباقيين من مجلس قيادة الثورة .

وهكذا نعد أن الصراع الذي بدأ في أول الستينات قد ازداد اتساعاً وازداد
 معه التمزق لأن الحقد أصبح دفيناً بين عبد الناصر وعامر . .

وحده والباقيين ، وعبد الناصر وحده والباقيين وأنا واقف أنا أمل موكب الصراع
 هذا وقلبي يتمزق ألماً . .

كان هذا الموقف هو المقدمة الأولى لمزيمه ٦٧ . . فقد اتصرف عبد الحكيم
 عامر إلى تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل في البلد
 كلها . . وهكذا دخلت مصر أسراً دوامة يمكن أن تدخلها . .

فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي في حالة عدم استعداد زاد فيها
 الإهمال ثم جاءت حرب اليمن قبلها من أن تكون مجال تدريب وتجهيز
 لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال . . ولم يكن عامر بهذا
 فلكي يثبت أقدامه في جميع المجالات سعى إلى أن يعهد بالمؤسسات المدنية
 إلى الصباط وكذلك كان لابد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين -
 ونفس الشيء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد حتى
 الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها . .

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب
 ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث . . فقد زادت هذه التصرفات
 من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه . . وفي أعقاب الانفصال كانت
 البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من
 الأشكال . . مما شجع العناصر الغير راضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تملل
 الشعب وقلقه . . وقد صور كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة وبناء عليه
 فرضت الحراسات على السياسيين القدامى . . ولكن لم يكن هذا الإجراء كافياً
 لانصاح خضب الناس وتذمرهم بل على العكس ربما زاده وعمقه . . ولذلك
 لجأ عبد الناصر إلى إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة
 حوار مكونة من أكثر من مائتي شخص أغلبهم من المثقفين . . عهد بأمانتها
 إلى وكنا نجتمع في قاعة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات
 هذه اللجنة ويشارك في مناقشاتها التي نشرت على الناس في الصحف فقد كان
 الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس
 همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى

البحث في النهاية وهو إصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها
وسياستها كما مجموع خمسة لجنة من اثنين مصصاً على عدد وحد أي
منح وفلا وضع الميثاق وقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومي الكبير
الذي عقده . . وقراء مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض
من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحي الأيديولوجية
التي كان يحتويها .

في صيف سنة ٩٢ عقد في لبنان مؤتمر شتورة الذي ضم السعودية وسوريا والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام . موقف مؤسف للغاية - ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة في ٢٦ سبتمبر سنة ٩٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي مول الانفصال والذي كان في ذلك الوقت يزعم الحملة ضدنا ، فاليمن على حدوده مباشرة . . ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقمت المجلس بضرورة مائدة الثورة - وفعلنا ثم هذا .

من لواء إلى لوائين إلى أن أصبح لنا في يوم من الأيام ٧٠ ألف جندي هناك لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة ٦٧ عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم على ذلك . .

9

وتراكم منه بعد أخرى . . بحيث أصبح من العسير حلها . . وكان العثر الذي ينفزع به المسؤولون في هذا أن الخدمات والمراقب يمكن التضحية بها في سبيل إقامة مصانع للانتاج بالاشتراك مع السوفيت .

في نفس السة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر . . فوضعنا في موقف حرج . إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا في التمتع الذي كنا نستورده منها بالجنيه المصري فيوفر لنا حوالى ٨٠ مليون سترليني نستفيد منها في مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوى أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتي فذهب إلى موسكو في ديسمبر ١٩٦٥ . . عبد الناصر وأنا وزكريا عجي الدين . .

ر . قد حدث تغيير في القيادة السياسية للاتحاد السوفيتي سنة ٦٤ عندما سرى حره شوف . . الرجل الذي كان يدرك قوة مصر بعدد معركتين لنا معه في سنة ٥٩ ثم سنة ٦١ وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقاً - إن لم يكن لأى سبب - فلأنه كان حاسماً صادقاً معنا لا براوغ مثل من سبقوه . .

لذلك حملنا حملة شديدة على السوفيت فأرسلوا لنا شبليين الذي قام بالإنقلاب

ف . . ف . . لمعهد الجو للمصالحة بيننا وبين السوفيت فلما ذهبنا إلى موسكو في ديسمبر ١٩٦٥ وجدناهم - أى القيادة الجديدة - حريصين كل

حرص على إرضائنا لكي يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف في نفوسنا من ناحية ومن ناحية أخرى لكي يعادلوها أو يمحوا أثر زيارة (شواين لاي)

نصر التي استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة للمؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقي الذي كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام يومدين بالانقلاب على بن بيللا قبل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفا من زيارة موسكو أن تقع السوفيت بتأجيل الأقساط التي علينا حتى يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك

استكمال خططنا الطموحة . وقد استجاب السوفيت لمطالبنا بصورة لم تكن نوقمها . . وكانت الديون التي علينا تعادل ٤٠٠ مليون جنيه استرليني -

ففرروا حلف نصفها بحيث يكون ما يتبقى لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط . . ونسبة هذا تخفيض الأقساط بطبيعة الحال . .

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير في نهاية سنة ١٩٦٥ فعزل على صبرى من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا عجي الدين . . ولكن زكريا لم يكت في منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر . . ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذي كان يكره زكريا وبفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه . . وقد تحقق له ما أراد فعين صديق سليمان رئيسا للوزارة بدلا من زكريا . . ولكن هذا لم يمنع عامراً من استمرار زحفه على السلطة حتى أصبح كل شئ في البلد يعهد به إلى القوات المسلحة أو البوليس الحربي . . النقل العام مثلاً في حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه - الثروة السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفي سنة ٦٥ عندما قيل إن هناك مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون تولى أمرهم البوليس الحربي وشمس بدران أهم معاونى عامر . . وكما اتضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أحزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حدث . . ولكنى في الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه ومهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أى احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة لتقصي الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدر ثورة مصادرة .

ولابد من إجراءات لمواجهة . . ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد في نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسى وأعنف ما شهدته

مصر في تاريخها ، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعاً تولى رئاستها عبد الحكيم عامر .

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكتب والإذلال . . فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأى سبب . .

فالشعب المصري يقبل الجوع والفقر والحرمان . . ولكنه لا يقبل امتهان

اتكراهية . . . ولقد وضعوا تحت نظري في ذلك الوقت عدة حالات تدل على ما كانوا يفعلون ولكنني لم أصدق إلى أن مارست التجربة بنفسي . . . في يوم وأما في زيارة لقريتي ميت أبو الكوم وكان ذلك في سنة ٦٦ التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهندس زراعي فسألني إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإنقاذ بالنسبة لمركز تلا وهي بلدة قريبة من قريتي . . . فقلت لا لم أقرأ شيئاً بهذا الصدد فأطلعتني على إحدى الصحف اليومية فإذا بي أماماً بأن عدداً من الممد وأهل المنطقة قد وضعوا جميعاً تحت المراقبة وعزلوا من مراكزهم . . . كنت أعرفهم واحداً واحداً . . . وكنت أعلم علم اليقين أنهم من حيوة الناس وأنهم جميعاً يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك . . .

لم أكن أنصوّر أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد . . . فأخذت سيارتي وعدت في الحال إلى القاهرة وأنا غاضب كل الغضب . . . وبخنت عن عبد الحكيم عامر إذ أن وجدته ، فالتصفت به تليفونياً وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه حيث تقدير الناس و . . . فرد على يده : وفي الغضب ؟ نلني القرار . . . وفعلنا أني القرار في نفس اليوم الذي صدر فيه . . . وكان هذا هو القرار الوحيد الذي تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع في نفس يوم صدوره . . .

كانت هذه تجربتي مع لجنة تصفية الإقطاع - ولكنني سمعت بعد ذلك شيئاً من شأنه أن يغير من رأيي . . . فمثلاً كانوا يقتحمسون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن في الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوى يستترن .

١١

هكذا كان حال مصر داخلياً في سنة ٦٦ . . . أما من الناحية الخارجية فقد كنا في حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر حينها في خصوماته لا يعرف لها حيداً فاندفع في هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة معتمداً على مساعدة السوفييت له - ولكن حدث في هذه الأثناء أن وجهت

الحكومة الأمريكية الدعوة إلى زيارة أمريكا بصفتي رئيساً لمجلس الأمة رغبة منهم في أن يحققوا شيئاً من الهدنة أو التفارب . . .

رحب عبد الناصر بالفكرة فقد بدأ يشعر أنه أخطأ في حق الأمريكان أكثر من اللازم عندما وحه الكلام إلى أمريكا في إحدى خطبه قائلا : « فشرب من البحر الأبيض وإذا كان هذا لا يكفيها فهناك البحر الأحمر . . . فقلت الدعوة وسافرت مع زوجتي إلى أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال . . . وعندما زرت الكونجرس أجلسوني على مقعد الرئيس وهو نفس الكرسي الذي جلست عليه عبد زيارتي لأمريكا عام ١٩٧٥ .

ولكن في عشاء رسمي أقامه هاريمان أكبر مستشاري الرئيس الأمريكي فاجأني صحيفة أمريكية بسؤال لم يكن يحظر على بال . . . قالت وفي يدها إحدى الصحف : ما رأيك في هذا التصريح ؟ قلت : أي تصريح ؟ فقراءت من الصحيفة التي معها تصريحاً لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ فنت لها وقد وجعت :

« ليس عندي أي تعليق . . . وتساءلت في نفسي لماذا يفعل عبد الناصر ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا على أن نبدل جهوماً لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لي حل انعام الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق على الزيارة أصلاً . . . ؟

أمر غريبة لا يمكن فهمها أو تبريرها . . . ولكنها لم تؤثر على زيارتي لأمريكا . . . فقد بذل الأمريكان أقصى جهدهم لانجاح الرحلة . . . وأذكر أننا في زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعطلو مرضها عن استقبال ومصاحبة زوجتي . . . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك . . . فقد أمروها بأن تؤدي واجبها أولاً ثم لدخول المنشئ بعد ذلك . . .

انتهت سنة ٦٦ والصراع بين عبد الناصر وعامر على أشده فكل منهما مريض بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . من طريق لجنة الإقطاع والتملل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبق من يشاء في مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما في ذلك النوادي الرياضية بل إن شكاوى الهنات العامة أو الأفراد كانت تحال إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يترأى لها . وهكذا تراكت السلطات في يد عامر حتى أصبح الأمر الناهي والمنحكم في مصير الناس وفي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر في مشتل سنة ١٩٦٧ فكيف كانت في عيون من تبقى من رجال الثورة في الحكم ؟

خرج زكريا محي الدين من رئاسة الوزارة وفي حلقه غصة . . ولكنه من النوع النكتم لا يتكلم كثيراً . . أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضاً ملئ بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً - بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعى إلى رئاسة الوزارة ليضع السلطة في يده كاملة . .

هكذا دخلت سنة ٦٧ والكتابة تخيم على مصر فالبلاد مفلتة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافي لتمويلها ومشاكل الخدمات التي أجبل على صبرى حلها منذ سنة ٦٢ تراكم يوماً بعد يوم وذلك حتى يتظاهر أمام عبد الناصر بأنه يبنى صناعات لم تكن تقوم في الحقيقة على أي أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التي بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذئابهم .

ففي يوم جمعة في فبراير سنة ٦٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته مئى . . فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجابني بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن في حجرة مكتبه قد دخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزناً مهموماً . . وقفت أراقبه حوالى دقيقتين ثم فاجأته بسؤال : « جرى إليه يا جمال ؟ مالك ؟ »

النفث إلى في دهشة فقد كان واضحاً أنه لم يحس بدخول الحجرة وقال :
- إيه اللي جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة - وأنا لم أرك - قلت أنوت عليك أوددش معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدهك . .

قال لي : والله عملت طيب . . أقعد .

جلست وسألته مرة أخرى : مالك شاييل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟
واضح أنك شاييل الدنيا على دماغك . .

قال : أيوه . . فعلاً أنا شاييل الدنيا على دماغى . . يا أنور البلد بتحكمها عصاية وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل . . أتى أبقى الرئيس المسئول واللى بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي . . ويتولى هو رئاسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللى قعدتها لغاية ما سأخرج . . أجاب عن أى شئ . .

كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجري في البلد ، المشاكل المتراكمة منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس - وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوى جمعة وصامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحنى . . وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الإمتيازات . .

قلت له : مش معقول يا جمال تسبب رئاسة الجمهورية وتنفذ في الاتحاد الاشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر . . أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه - هم اللى تسيبوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى تقول له نشيل صدق قائد الطيران يقول قبل ما تشلوه شيلونى أنا . . خلقتك كده . . ولذلك أعتمد أنه أفضل شئ إنك تحببه وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخلين على كارثة .

بعد ذلك بصفة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لي إن عنده ضيفا
و نظرت في حجرة مكنه إلى أن يخرج الضيف . . وبعد فترة جاء عبد الناصر
بأدنى بأسول :

نعرف يا أنور مين الي كان عدى دلوقتى ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس
سراج - ماكر حديثا الي قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه

يا سيدى الحكاية كملت . . شمس بدران جاي لي دلوقتى بيطلب رسمى
بـ سبر ياخذ رئاسة الوزارة . . وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . . مش
عارف لـ معظم الحاجات الي بتشتكى منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات
نأعه ؟

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟

قال : والله أنا خدت الموضوع ببساطة . . قلت له أنا ما عنديش مانع . .
قال له أنا موافق بس بترك القوات المسلحة وياخذ رئاسة الوزارة - أنا حلاق
مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عداوى إنك تقابله وتكلموا مع بعض وأنت عارف
أه يقل منك ما لا يقله من أى شخص آخر - بالشكل ده ممكن الموضوع
يتم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور . . العملية ماشية في اتجاه غلط . .

طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت
فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لأى سبب من
الأسباب فهي مركز القوة الأول . . بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الإقطاع
فبلغت أقصى الضراوة في مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها
وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفيه العائلات . . وهي في رأي
مسألة خطيرة . . في تقديري - والله أعلم - أن مستشارو جمال كانوا
يفعلون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر . . وكان أهمهم وهو مستشاره
الصحنى فهو يفتك العائلات وينحين الفرصة للشتمات فيها . . ولذلك كان
يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الإنسان . . حتى أن أهل

الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ مهنحاً
« آخذ نفقه زى الست ؟ »

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عب
الحراسة مقابل ما أصابهم كنيسة (نفقة) وهي نفس الكلمة التي تطلق عن
المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقته . .

استمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن ي
الغضاء على العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة . . ولكن دسنت
علينا السحابة الرهبة القائمة في أواخر مايو وأوائل يونيو فأوقفت نك الإحراوات
فكل كارثة لها جانب آخر . . يقول المثل الإنجليزي « كل سحابة كنهه شريف
فضى يبرق وسط العنمة » . .

سافرت في ذلك الشهر وهو مايو سنة ١٩٦٧ إلى كوريا الشانية ثم إلى موسكو
حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقي خطابه في أول مايو . . كان يتكلم
عن الثورة المضادة والإقطاع . . ويستشهد بحادث وقع في قرية مجاورة لقرينى
وسمعه يذكر اسمى فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر ثم تصدر
الأحكام بدون فحص لهذه الحقائق .

القرية كانت هي كشيخ وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع لم تشهد
له البلاد مثيلاً ، ولكن أولئك الذين كان يشهد بهم عبد الناصر كانوا في
الواقع أسوأ من الإقطاع الذى تشهد به جميعاً في المنطقة . إذ كانوا شيوخين
ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق
الماركسية وفي هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ
ما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع ولم يكن هناك ما يدعوا لذلك
لأننا صقينا الإقطاع في هذه القرية ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا
التاريخ بسنوات طويلة . .

لقد كانت هذه القسرية في ذلك الوقت مركزاً من مراكز النشاط الشيوعي
في الدلتا حتى أن الشيوعيين أخذوا يجان بول سارتر إلى كشيخ تفاخراً بما صنعوا
منها . .

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فعبد الناصر كان معي منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته جيداً حقيقة الضجة التي أثارها العناصر الشيوعية وعنّف مساعديه على ذلك في ذلك الوقت .

على أي الأحوال فإنه بعد ١٥ مايو ٦٧ لم تتعقد لجنة الإنقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

١٣

في عودتي من موسكو كان يرافقتني إلى المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفيتي . . . وتحدثنا طويلاً إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معي يدور حول موقف سوريا وكيف حشدت إسرائيل عشر لواءات على حدودها . . . وعندما عدت إلى مصر وجدت أنهم قد تنفوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا قضى الأمر سوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

في ذلك الوقت كانت بيتا وبين سوريا لاتفاقية دفاع مشترك . . . وإلى جانب هذا كان الروس على طريقهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم البعض . . . كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم في العراق . . . وفي هذه المرة استثاروا عبد الناصر وضربه بالقيادة السورية على أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطى الأوامر لعبد الحكيم عامر بخشد قواتنا في ميناءه وكان الهدف الحقيقي من هذا تخويف إسرائيل . . .

ولكن ما لبث زعماء الأمور أن أقلت من يديه في ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يهايمون مصر بأنها تركت مضايقت تيران مفتوحة حتى أن عامر وهو في زيارة لباكستان تضايقت من المزايدات العربية بالنسبة لمضايقت تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضايقت . . . على أي الأحوال جمعنا عبد الناصر على هيئة لجنة تنفيذية علناً في أواخر مايو سنة ١٩٦٧ كان فيها عامر وزكريا محي الدين وحسين الشافعي وأنا وعلى صبري وصادق سليمان رئيس الوزارة في ذلك الوقت . . . وقال لنا : - إن حشودنا في ميناء تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ أما

إذا أقفلنا المضايقت فالخرب مؤكدة مائة في المائة . . . ثم التفت إلى عامر وقال له : - هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده على رقبته وقال : - برقبتي يا ربس . . . كل شيء على أتم استعداد .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك . . . وقد كان سلاحنا بالفعل جيداً أقوى عشرات المرات من سلاحنا في حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع على إغلاق المضايقت ما عدا صدق سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت الذي طلب التروي وأن تأخذ في الاعتبار حالتنا الاقتصادية والخطط الطموحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدق سليمان أي اهتمام فقد كان ميالاً إلى إغلاق المضايقت حتى يوقف مزايدات العرب عليه وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية . - وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايقت تيران وسحب قوات الطوارئ الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع في حين كان السوفييت لا يكتفون عن التنبيه بأن توقبت الأحداث أسرع مما يجب ولكن عبد الناصر كان مصراً على اندفاعه وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي الذي عقده على مستوى عالمي وكان قمة في التحدي والعف .

ارتبك الموقف الدولي نتيجة لهذا . . . وساعد السوفييت على بليلة الرأي العالمي كما هي عادتهم في مثل هذه المواقف خوفاً من أن نورطهم في شيء أو آحر وبدأت إسرائيل في نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكاثنة والصراخ والاستنجاد . بعد إغلاق مضايقت تيران أصبحت الحرب مؤكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع في القيادة العامة يومياً . . . كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة بينما كانت قواتنا كلها محتشدة في ميناء . . . وأرسل السوفييت في طلب أحدنا فسادر إليهم شمس بدران بصفته وزيراً للحرية . . . وفي الكرملين سألوه كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الاسطول السادس الأمريكي فأجاب بلا تردد : - عندنا ما بدمره مشيراً بذلك إلى الطائرة في ١٦ حاملة الصواريخ وسرعتها وهي تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أي نصف سرعة البوينغ التجارية .

السفير السوفيتي في غرفة العمليات صباح ذلك اليوم . . ماذا كان يبدى أن أفعل ؟ عدت إلى بيتي وبقيت به إلى يوم ٩ يونيو وهو اليوم الذي حددته عبد الناصر لإعلان بيان منه في الرايبر وسبريوت الساعة سبعة مساءً - كنت وأنا في البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر - فاتفقت بعامر في الساعة الخامسة مساءً فقال لي في خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلى العريش واستولت عليها . . لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى . . كنت معتاداً على أن أخرج للمشى أربعة كيلومترات يومياً . . ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب . . لم أكن أدري كم من الزمن أسير - عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف . . فقد استولى على دهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان معه في بعض الأحيان .

ومما كان يزيد في ذهولي وتمزق نفسى ما كنت أشاهده يومياً من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهي تسد شارع فرم الواسع العريض . . كانت تسير متراصة والجميع يهتفون ويهللون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذى تديعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة . .

كانت فرحتهم بالنصر تثير في نفسى إحساساً قوياً بالإشفاق عليهم والأسى لهم والحقن على من كانوا السبب في خداعهم وخذلهم مصر بأكملها . . لقد تمحيت على الله وأما أرقاب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معاً ، أن يصيبني بأزمة قلبية كالتي أصابني سنة ٦٠ حتى لا أعيش لأرى حال هذا الشعب العظيم الكريم عندما يفتق على الحقيقة ويعرف أن هذا النصر الذى زينوه لهم ليس إلا كارثة رهبة نزلت بهم .

في يوم ٧ يونيو اتصلت بليفونيا بعبد الناصر فوجدته في بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة . . الحقيقة أتى ذلك . . لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم ٥ يونيو ؟ صحيح أنا كما قد فقدنا الطيران ولكن كان في إمكاننا أن نفق في خط المصائب . . ثم لماذا وقف مكتوف الأيدي أمام القرار الذى اتخذه أصدره عامر للفوات بالإنسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون

الإنسحاب - أى عسكرى يعرف أن الذى يبلغ بقراو الإنسحاب هو مدير العمليات الذى عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمنى المناسب لتنفيذ الإنسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة . . ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الإنسحاب الذى أصدره عامر هو في الحقيقة أمراً بالانشجار . .

هذه الصورة كانت واضحة عسكرياً أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخرى لماذا لم يعزل عامر يوم ٥ يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلى قائد آخر ؟ لا إجابة . . فقط علامة الاستفهام التى تظهر في الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر !

لم أكنم تناولت هذه عن عبد الناصر فقلت له على التليفون : -

« يا جمال ما تحاول تفعل ما يمكن إنقاذه . . المائة في وشتك على أى حال فلماذا لا تطلب من عامر أن يبقى في بيته وتتعهد أنت في القيادة وتشغل ؟ »

قال : « والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطى أمر بالانسحاب وقت له ليرى تعمل كده يا عبد الحكيم - ليه ما تمش في خط المصائب قال لي الخط مش جاهز . . وكان اليهود قتل هجومهم قد أشأوا ثلاث خطوط دفاعية نرجسوع إليها إذا تطورت المعارك صدهم وكانت النصور المتوغرابة تعرض حيب ونحن نزور القيادة قبل ٥ يونيو »

أما نحن فلم يكن حتى خط المصائب - خط وسط صبياء - وهو المفروض أن يكون مستعداً في حالة السلم وفي حالة الحرب - لم يكن في الحسان أن يعمل .

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم ٨ يونيو فقال لي : « إن الوضع قد انتهى فشوات إسرائيل في طريقها إلى القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والعريش مهمهد ولا مقاومة على الإطلاق . . المسألة كلها ساعة فليلا ونخل القنطرة هي الأخرى وقواتنا في شرم الشيخ صدر لها الأمر بالانسحاب حتى لا تدمر - وبذلك بدأت إسرائيل ترحف على صبياء من الجنوب أيضاً . . »

وفي نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضاً أن الفرقة الرابعة المدعوة وهي أفضل الفرق عندنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت . . وبذلك انتهت قواتنا المسلحة وحلت الفوضى . . ترك الجنود الدبابات والعربات وفروا إلى غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردهم طائرات العدو فتريدهم رعباً على رعب . .

وفي يوم الجمعة ٩ يونيو بينما أنا جالس إلى جانب الراديو في حالة الشروء التي كنت فيها سمعت بياناً من القيادة العامة يقول إن اليهود قد عبروا الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ويشهد العالم على ذلك - كان بياناً كله استخفاء واستسلام ومهابة مما جعل الدم يغلي في عروقي فتمت للتو وارتدبت زى المقاومة الشعبية وأخذت بندقيتي ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من اخبارات ومضيت لأحارب معركتي - فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقبع في داري بلا عمل . . توجهت إلى مجلس الأمة وكنت في ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتى إلى أمين عام المجلس بأن ينظر جميع النواب وخاصة الذين لهم ثقافة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مئة إلى مائتي رجل . . كل في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين في المكان الذي أحدهم لهم . . ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالساً في حجرة مكتبه في بيته بمنشية البكري فقلت له : -

- أنت قاعد هنا مستنى إيه ؟ لازم يا جمال تقسوم علشان نودبك الصعيد لأن احنا حاكم المقاومة من هناك . . وحتى لو سقطت القاهرة ضرورى نأوم لغاية آخر نفس فيها .

رويت له ما فعلته في مجلس الأمة وكيف أعددت النواب للمقاومة الشعبية ثم سأله : -

- أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟ كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلى دون أن يرد . . وأخيراً أشار إلى كرسى بجانبه وقال لي :

« أقعد يا أنور . . أقعد »

قلت له : - أقعد إزاي يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط - أنت ضرورى تكون في الصعيد دلوقت علشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزى ما قلت لك ضرورى نحاربهم لغاية ما نفنى كلها أو نغنيهم كلهم وما ننشأ أن الكثافة الكبية سلاح في أيدينا وسلاح قوى جداً . .

قال لي : والله أنت مكين يا أنور . . زيك زى الشعب تمام . أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصلو إزاي . . دى كلها كلام فارغ . . اليهود ماعدوش إلى غرب القناة . أما سمعت البيان زيك وقلت لزكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لي إيه الحكاية لأنى أنا عارف القيادة افلت حيارها وانهارت وانتهت خلاص - زكريا راح القيادة ورجع قال لي تضاط من ضباطنا هم اللي عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية . . ما تحالكوش أعصابهم وراحوا ضا . . فيه بالموت فردوا اليهود بغارة جوية على مصنع بويات في الإسماعيلية - أقعد يا أنور أقعد - أت مش محتاج تحارب - العملية خلصت خلاص - لدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو انتفض تمام . . يقعدوا على الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة الكابية - وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده إيه ؟ أقعد - أقعد معاً لما أخلص البيان اللي هأذيعه الليلة دى .

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أى إنسان آخر - وفي هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له على التليفون : -
- حظنى في الخطاب معاك .

رد جمال قائلاً : - « سيبني يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحمدى أنا بأخلص مسئوليتي وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك ابقى قدمها . . »

لم أنهم واقع وراء حجب عمر العرب
أنه كان يخشى أن يرى ناصر نفسه في البيان فيصبح عامر المشول الوحيد . .
لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحاً فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهي أمريكا وأنه لا يستطيع

الفصل السابع

فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو ٦٧ وسبتمبر ٧٠ غنية بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبة لا أعتقد أن مصر شهدت مثلهما - فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط على المستوى القومي والسياسي والعسكري مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة . . فليس مثل الإحساس بالإحباط شيء يحفز الإنسان إلى أن يكافح من أجل البقاء .

صحيح أن هذا الكفاح أخذ أشكالا متعددة ولكنها كانت تهدف جميعاً إلى شيء واحد وهو تخطي العقبات التي تعترضها حتى تسترد كيائها وتستعيد وجودها فتبقى . .

وكثيراً ما نجد هذه المحاولات تتشابك وتتصارع بحيث يصعب تمييز خطوطها بعضها عن البعض . . فمثلاً نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلاً عظيماً - كما كان قبل هزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر على البقاء قائداً عاماً للقوات المسلحة - يتشابك مع الرغبة في إعادة بناء القسوة المسلحة ويتشابك بشكل أو بآخر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحون ويمنعون كما يشاؤون . .

فخروج الشعب في ٩ و ١٠ يونيو وإصراره على عودة عبد الناصر إلى الحكم لم يكن في الواقع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء . . بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة . . رغم كل شيء . . فإلى أي مدى حققت مصر عزيمتها على البقاء وإلى أي مدى تصارعت هذه العزيمة مع عزائم أخرى كانت هي أيضاً تكافح من أجل البقاء ؟

أن يجيبها إلى ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوى أن يتنحى ويعهد برئاسة الدولة إلى زميله زكريا محيي الدين . .

بمجرد أن انتهى عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بحماير الشعب بحيث لم يعد هناك موضع لقدم - نساء ورجال وأطفال من جميع الطبقات ومختلف نواحي الحياة . . وحدث بينهم المحنة فأسحر كتلة واحدة تنحرك بإتقان واحد وتتكلم بلسان واحد . . الكل يظن أنه يصر - مصر - فلكرثة عظيمة . . إذ فجأة عاد الزمن إلى نوره في عصية عين . . وبدلاً من الاستعمار الإنجليزي سوف يكون هناك استعمار أمريكي . . هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلى الشعب فحرك لواعجه ونهب شعوره وأعد عليه مرادة لرفض التي هي من أمضى أسلحته عر آلاف السنين . . فخرج يتحدى العزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها - لقد ضربت قواته المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب . . مع عشرة ساعة كاملة وجموع الشعب ترفض أن تترك أماكنها في شوارع القاهرة . . وقد نسبت كل شيء . . الطعام والشراب والمبيت والمأوى . . نسبت كل شيء - إلا شيئاً واحداً فقط وهو التمسك بوحدتها وتحدى إرادة الدولة العظمى التي تريد أن تحكم فيها . .

اتصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفي كل مرة كنت أجده أسوأ حالا عن ذي قبل . . كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضي . .

لا بد أنه في الفراش وأنه يعاني كثيراً ، فأهم ما لدى عبد الناصر هي كبريائه ولقد ضاع فيها كما لم يحدث له من قبل . . فبعد أن كان العالم يهتف زوره عندما صدق مؤتمره الصحفي المشهور أصبح الناس الآن في كل مكان في العالم يتكلمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان ٥ يونيو طعنة أصابته في التصميم . . ومن يعرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم ٥ يونيو سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . .

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلة . . الميت الحي . . صفة الموت تغطي وجهه ويديه رغم أنه كان يسير ويتحرك ويتنصت ويتكلم . .

يوم ١٠ يونيو وأنا بمكتبى بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قرية منا - كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فلما سألت قالوا لى إن البوليس بقهر قابل دخان على السفارة الأمريكية ليفرق جموع الشعب التى التفت حولها لتحرقها . . فانصلت فوراً بعبد الناصر وجعلته يستمع إلى الانفجارات وحكى له القصة . . ثم قلت : -

- الجموع دى بقى لها دلوقتى أكثر من ١٧ ساعة فى الشوارع . . هل تحب يا جمال أن تحرقى القاهرة تانى زى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ؟ إحنا على وشك كده دلوقت - لازم ترجع يا جمال لأن إرادة الشعب هى الصمود ومفئس هروب من هذه المسئولية الهائلة . .

فتع جمال فرد على بالموافقة . . ولكن صوته كان بعيداً كأنه يأتى من أعماق قبر . . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اتصل فى مستشاره الصحفى ليعنى بيان عبد الناصر الذى يقرر فيه العودة فكتبته وأمرتهم فى المجلس بدق الأجراس للإجماع . .

كما قل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلما اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قرر العودة بناء على رغبة الشعب وأنه كان يوده لو يستطيع أن يقرأ عليهم القرار بنفسه . . وكان لهذا أثر رائع على النواب فملكتهم فرحة مفاجئة صفقوا معها وهللا وصرخوا وبكوا . .

بعد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائى فى القيادة جميعاً وطلبت منهم أن يعهزوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتي حتى تعطى الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه فى هذه المرحلة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هزيمة وإحباط . . فوافقوا جميعاً . .

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التي وعد بإرسالها إلى عبد الناصر مباشرة) فطلب إلى عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلها

انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضاً . . لم أقنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتى يهتدى إلى نقطة البداية . .

فكما قال لى لم يكن يعرف - بعد كل ما حدث - من أين يبدأ . .

فى يوم ١١ يونيو اتصل لى عبد الناصر وقال إنه قد اهتدى أخيراً إلى نقطة البداية وهى إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجئ بعدد كبير من الضباط فى بيته يطلبون منه عودة المشير عامر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفى فأمر بصرف الضباط . . جاءت إليه بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحزبي يتحرك من قشلاق الحلبة فى طريقه إلى بيت عبد الناصر ليطالب بعودة عامر - فى ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر أى حرس ، فالحرص الجمهورى كان قد اشترك فى الحركة وعاد إلى الإسماعيلية ولكنه لم يصل إلى القاهرة بعد . .

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصى . . وربما كانت هذه النظرة إلى الأمن الشخصى وراء كل الإجراءات الاستثنائية التى حدثت وتطورت من مرحلة إلى مرحلة حتى ناه كاهل الناس بنقلها . . فلما سمع بأن البوليس الحزبي قادم إلى بيته - وهذه روايته لى - أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظر . . وفى هذه الأثناء حاول الاتصال بعامر مرة أخرى ولكن دون جدوى فاتصل بمحمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى القيادة الذى أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين فى القيادة ويطالبون بعودة عامر - على الفور أصدر عبد الناصر أمره إلى فوزى بأنه قد عينه قائداً عاماً للقوات المسلحة وعليه أن يبلغ الفرقاء الأربعة بأن عبد الناصر قد استغنى عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقى القبض عليهم . . نفذ فوزى الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابلته ومعه عبد المنعم رياض ماء نفس اليوم . . حيث وضعوا الجدول الزمنى الذى بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة . . وكان ذلك أول عمل يباشره عبد الناصر بعد عودته . وبعبارة عن الكفاح من أجل البقاء .

دهم لإحسامي بالهزيمة نفسي ببحث استغرق شعوري فكنت أعيش الهزيمة في يفتلي ومنامي . . . وكنت في كل يوم يمر أنكشف أبعادها فيتمزق صديري ولكني لا أعرف ماذا أفعل .

حت نفسي في بيتي بالهزم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها في عزلة تامة عن الناس أنامل ما حدث وأنحمل على مضض حملة التشكيك في قواتنا المسلحة وهي الحملة التي كانت تشن علينا بصفراوة من العدو والصديق على حد سواء

كانوا يقولون إن الجندي المصري لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخرى نسردها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلى آلاف النين بحث تنبى كما انتهى المنود الحمر في أمريكا . . . أي هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت على حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصري فهل يذهب كل هذا في لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر . . . لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أعرف أبداً على ذاتي بل سأعيش فاقد الكيان أهم على وجهي غريباً بين غرباء . . . فقيم الحياة إذن ؟ !

كان لابد من الخروج من السجن الذي وجدت نفسي فيه فجأة . . . وهنا تغلب جبي لبغاء مصر على كل شيء آخر فقررت أن أرى بنفسى بعض من اشتركوا في الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكري . . . رد على القائد فسألته إذا كان عنده أحد من حاربوا في ميناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . . كان فائداً للواء دبابات حارب في ميناء ومع بعض ضباطه وهم في المستشفى على وشك إخراج عمليات جراحية له ولهم . . . قلت للقائد : انتظر سأكون معكم حالا وأحدث سيارتي وتوجهت إلى مستشفى المعادى . . . سألت كمال حسن على . . . فليلى يا كمال بصراحة : أنت حاربت في ميناء ؟ قال لي : أبوه يا افتدع وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو قلت له : طيب طمئني . . . سلاحنا كان ناقص ؟

قال لي : « أبداً ! الطلقة بناعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . . . دي كانت من عبقها بتقلها . . . قلت له : طيب احكي لي على الهجوم ؟ فقال - مشيراً إلى ضابطين صغيرين كانا في انتظارى مع قل إجراء العملية لهم - : دعهم يقصون عليك ما رأوا وما حققوا . . . فهم الذين فعلوا كل شيء أما أنا فكان عملي يقتصر على إصدار الأوامر . . . »

كنت قد سمعت عن الهجوم المفض الذى قام به لواء مصرى يوم ٧ يونيو . صحف العالم كلها أشاد به ، وحتى موسى ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهوداً فردياً - أمراً شاداً لا يصح أن يقام عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال

ولكنى بعد أن أدركت حواراً طويلاً مع ضباط اللواء وقائدهم "دركت الحقيقة وهي أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تخطيط القيادة وضعفها . . . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء في الثلاث أيام الأولى ١٠٠٠ كيلو في عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير . ولكن هذا لم يمنهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو . . . ورغم السيادة الجوية المظنة لإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة على مدى ثلاثة أيام - أى خمس قوته فقط . . .

« إذن في حرب ٦٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة على القتال . . . الحمد لله . . . فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة . . . هكذا وجهت كلامي إلى الضباط وقائدهم وتركهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأنقضى يوماً من أسعد أيام حياتي وهي قليلة جداً بعد حرب ٥ يونيو سنة ٦٧ وقبل ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . . . وكان مصدر سعادتي أنى عرفت الحقيقة .

بعد ذلك وفي يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ على وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التي أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة في ٥ شهور وكان مقدراً لها أن تستوعب في ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن في نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإنما كانوا يحاملون عبد الناصر

من صور الكفاح من أجل البقاء في تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف عن الأخرى ولكنها تحمل طابعاً مميزاً له مغزاه . .

الصورة الأولى وهي خاصة بالسوفيت تروى قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندي المصري في خمسة شهور كما سبق أن رويت . . ولكن لم يكن في هذا الكفاية فقد كنا مقدرين ثلاث سنوات على الأقل لكي نؤمن بلدنا ونرد العدوان . . فأرسل عبد الناصر إلى السوفيت يطلب المزيد من العون . . أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأى شكل من الأشكال . . فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذي يكفل لهم الوصاية علينا ويحقق لهم البقاء في المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا في أغسطس وكان يتنو قد أتى لزيارتنا زيارة ودية ليواسينا ويشد أزرنا وقد كان صديقاً شخصياً لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر يفقد أعصابه مع تنو ويقول له بعد أن كفر بالسوفيت : روح للسوفيت أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أى شئ ولكنى لا أقبل هذه المعاملة منهم أبداً . .

لا أعرف ماذا فعل تنو بعد ذلك ولكن الذى أعرفه أن القادة السوفيت لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ على البقاء في المنطقة وقد تحقق لهم ما أرادوا . .

الصورة الأخرى وهي أكثر إشراقاً هي صورة مؤتمر القمة العربي الذى عقد بالخرطوم في نفس السنة . . لم يكن عندى أمل كبير في المؤتمر ولكنى فوجئت كما فوجئ العالم بنتائجه . . فقد خرج الشعب السودانى لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث في مصر يومى ٩ و ١٠ يونيو . .

طبعاً خرج الشعب لتحية باقى الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتى أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر على الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية

لوقفته ضد أمريكا والإمبريالية ويحرمون على بقاء الوجود السوفيتى في المنطقة - هذا كل ما في الأمر . . ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة فتحت مراكز التدريب على الفور وعملت على أحسن صورة - وهذا مجد يكتب لأولادنا في التاريخ فليس من السهل أن نجد جيشاً يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كمية ضخمة من الأسلحة فيما لا يزيد عن خمسة شهور ويقف بها على خط دفاعى كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً على استعداد لرد أى عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيماني بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة ٦٧ ولم تكن أبداً أحد أساليبها . . وما يدل على ذلك عملياً أن قواتنا العسكرية لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام . . في أغسطس سنة ٦٧ وقعت معركة رأس العش التى تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهى شاطئ بورسعيد الشرق ، وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية استقلمهم اليهود معهم لتصوير دخولهم بورفؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والحسائر الشديدة التى لحقت بهم أن احتسوا رجال التلفزيون الأمريكى لوقف الضرب .

طبعاً لم تكن بعد قد استعدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة . . في ٢١ أكتوبر من نفس السنة (١٩٦٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب المنصورة الإسرائيلية لإيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها في مياه بورسعيد حيث ما زالت تترقد في الأعماق . .

ولكن حتى قبل معركة رأس العش وقل إغراق لإيلات كنت قد تيفنت أنني ما رلت بين أهل في مصر الأرض الطيبة التى لا وجود لى بدونها . . وأن واجبي ان احده هو احراج من احل بدنها . . بس سطلأها بلسنى . . بل لأها فعلا نسحق بشده

المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب العربية بعبد الناصر فقد كان في نظرهم رمزاً للحفاظ على الأمة العربية ضد أى تدخل أو عدوان خارجي . . . كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عامل السعودية الذي هاجمه عبد الناصر وندد به في أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجاً بالنسبة لعبد الناصر . . . فيها هو في النهاية بلجاً إلى إخوانه العرب وهو في حالة هزيمة وانكسار . . .

لم تفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالي لمصر مقابل إغلاق قناة السويس . . . أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية ٥٠ مليون جنياً سنوياً كما تقرر أن تدفع الكويت ٥٥ مليون سنوياً وليبيا ٣٠ مليون سنوياً . . .

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها فأرادة الأمة العربية كلها هي الصمود . . .

وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث التي تجتمع فيه الأمة العربية على انكسار من أجل البقاء .



كان تعيين محمد فوزي قائداً عاماً للقوات المسلحة القرار الوحيد الذي استنسخ عبد الناصر أن يتخلله بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر . . . طعماً لم يستقل عامر هذا القرار بأى ترحيب ، ففي أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر وتمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذي لم يقبله عبد الناصر على الإطلاق . . .

تدخل بعض وسطاء الخير في الموضوع وأقنعوا عامر بأن يذهب إلى (أسطال) بلده في الصعيد ويتم بها إلى أن تستريح أعصابه وفعلاً أخذ عامر بالوصية وذهب إلى بلده ولكنه عاد بعد أسبوع إلى منزله بالجيزة وبدأ الاتصال بالضغط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، ولبنه اكتفى

بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة في بيته وراح يعقد الدورات مع الصباط يحدث فيها عن المزيمة وكف أنه ليس مثولاً عنها كما أنه ليس مثولاً عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الإستثنائية التي أدت إلى إذلال الناس وضيقتهم بالنظام كله . . .

لم يكن من السهل تصديق ذلك فالجميع يعرفون أنه كان وراء بخسة تصفية الإقطاع والبوليس الحربي وهي أجهزة أهدرت كرامة الإنسان واستفحل شرها إلى أن جاءت المزيمة فخلصت الناس منها ولو إلى حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلى بجمالته فازداد إمعاناً في الاتصالات بالفيباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلى شاكين متبرمين فلم أجده بدأ من الاتصال به ونصحته بأن يكف عما يفعل حفاظاً على مصر ووحدة الصف وإشفاقاً بعبد الناصر وما هو فيه من محنة . . . فدعوته إلى العشاء عندى في البيت ورحبت به واستقبلته أسرق أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائماً عندما يأتى لزيارتنا . . . ولكنى لاحظت أنه قد تغير تغيراً كاملاً . . . كان قد فقد الثقة في نفسه وقد آمنى هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلى تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد آلمنى هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلى وأبنائى يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرموني قوى يا جماعة . . . له لعابة دلوقتي بتكرموني ؟ قلت له : دلوقتي يعنى ايه يا عبد الحكيم ؟ عشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك عشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله ؟ . . . »

في نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا . . . طول ما جمال عبد الناصر يشغل رئيس جمهورية أنا لازم أشتغل قائد عام القوات المسلحة . . . لا أكده لا يلاش . . .

بعد ذلك في أغسطس أثناء زيارة بنتو لنا استدعاني عبد الناصر ونحن في قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه . . . ووجدت علامات الحيرة على وجهه قال : « والله أما عايز أقول لك على موضوع يا أنور . . . أنا مشغول

قوى بحماية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع فيمو وحكى له الحكاية كلها . .
نتو قال لي ضروري تأخذ إجراء في العملية دي وإلا البلد مجروحة وبعدين
أى صراع داخلي وخصوصاً إذا كانت فيه القوات المسلحة . . حينئذ وينقلب
إلى صراع كبير ، قلت له : يا جمال أنت سمعت متنا كلنا وأينا في الموضوع
ده وفعلنا ضروري أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللي بيعمله ونحسم الموضوع
نهائياً قال : « فعلاً أنا لازم آخذ إجراء . . »

كان ذلك في ١٣ أغسطس ولم يمضِ عبد الناصر عن نوع الإجراء
الذي سببته - كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلى يوم ٢٥ أغسطس . . لماذا
تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخرى تظهر علامة الاستفهام
مرة في كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر .

كان عامر يعرف جيداً أن لا شيء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث
المرابيطة وأنه ديكتاتور . . فنجأ إلى طبع الاستقالة التي كان قد قدمها
لـ عبد الناصر سنة ٩١ في شكل كتيب ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه
لا يؤمن بحكم الفرد وأن لا بد من إعادة الأحزاب . . كلام لا يؤمن به
عامر بل ولا بطراً على فكره . . ولكن كانت آثاره على الناس غير حميدة
وانشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث
ثورة في أي وقت . . للدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا في مجلس الأمن
كان في زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غداً سيحدث
انقلاب عسكري في مصر . .

في هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المثل على النيل في الجزيرة
قلعة بكل معنى الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيراً تحديد إقامة عامر
في بيته بعد أن تحبب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه بطلب
حضوره للقاء في منزله مساء الجمعة ٢٥ أغسطس . . وقال لنا : « اسمعوا
يا جماعة أنا عاوزها جلسة واحدة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلنا أنا
وزكريا عبي الدين وحسين الشافعي كنا موجودين في هذه الجلسة . .

وكانت ترقبات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر ونزوله منها

ودخوله لي الصالون تنزع منها الأسلحة في هدوء ويلقى القبض على من فيها
من حراس ثم تستبدل بسيارة أخرى تنقله إلى بيته حيث يبقى فيه تحت الحراسة .

وفي نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزي القائد العام
وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط
والجنود المرابطين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خالياً إلا من أسرته والضباط
المكلفين بحراسته . . وفعلنا تم ذلك . . أتى عامر في الساعة التاسعة إلا ثلاث
فدجى بوجودنا . . وبدأ الحوار الذي لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا
ولا حسين الشافعي - طبعاً أنكر عامر كل شيء ، ورغم أن عبد الناصر واجبه
بالمشورات التي كان يصدرها وبعدد الضباط المقيمين عنده في البيت وأنواع
الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التي لا تغفل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من
التاسعة تقريباً إلى الثانية صباحاً . .

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن في الأمر شيئاً فقرر العودة إلى منزله
ولكنه فدجى عند البوابة بالحرس بمنعونه من الخروج ووجد عبد باب لبيت
سيارة أخرى غير سيارته التي حضر بها . . وبها بعض الحرس . . فدعرك أنه
مقوض عليه وعاد إلى حيث كنا . .

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خنثى أن يتراجع في قراره فانصب إلى
حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعي على ما اعتقد فوجدت نفسي وحدي وجها
لوجه مع عامر الذي قال لي إنه ذاهب إلى دورة المياه فصاحته ثم عدنا إلى الحجرة
فإذا به يفاجئني بقوله إنه تناول سيانور لينتحرر . . ودهشت فأنا أعرف
من قراءاتي أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله في أقل من الثانية .
ومع ذلك أرسلت في طلب الأطباء لإسعافه وفعلنا حضروا وأسعفوه .

كان الموقف عصيباً للغاية فقد آلتني أن أرى عامر على هذه الحال وآلتي
أكثر إحساساً بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذي شعر أنه سعى إليه بنفسه
على أمل أن يعود إلى بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن على علم بالإجراءات
التي تمت أثناء تقيبه عنه في جلستنا هذه . .

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعب في حياتي فقد
طلع عليا الصباح وأنا وحدي مع عامر أشاهده يعاني ولا أستطيع أن
أمد إليه يد المساعدة .

في الساعة السادسة وال نصف صباحاً نزل زكريا والشافعي من منزل عبد الناصر
وأحدا عامر إلى بيته حيث تحدثت إقامته .

عندما استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقاءه في منزله ٢ سوال
كان يصر أن يشرح نفسه على أي إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه
بما كان يري .

ليصاحبه كعادتهما عقب أي سوء تفاهم يحدث بينهما . . كان عامر واثقاً من
هذا وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلى مؤتمر القمة
في الخرطوم لأن اعتد بعد ذلك اللقاء بيومين . . وكان عبد الناصر يعرف هذا كله
مقدماً من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر
قد أمر بتحللها

في سبتمبر كانت التحقيقات التي أجريت مع أعوان عامر قد بدأت
تأخذ شكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التي تقول إن
سامر كان ما زال يخرى بعض الاتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق
أبيه فكيف عبد الناصر محمد فوزي وعبد المعيم رياض يتقبل عامر إلى
مكان بعيد عن بيته . . وفعلاً ألقى القبض على عامر في منزله ولكنه كان يشكو
من الأم فأخذه إلى مستشفى المعادي حيث وجد الأطباء بفمه خدراً -
كما يسمون الشرير الغليظ - فأخرجوه . وذهبوا به إلى قبلا على ترعة المربوطية
كانت قد جهزت كمنقل فأجبت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة
مختلفة . .

بعد أن أطمأن عبد الناصر إلى أن عامر قد استقر في المعتقل انتقل إلى
إستراتيجية حيث أقام في الممصرة واعتقلت أنا كذلك إلى شذني بشاطيء
متدل .

في يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل في عبد الناصر تليفونياً ليقول لي إن

عامر يريد أن يراني اليوم أو في الغد الأربعاء على أكثر تقدير - قلت
له لازم أشوفه . . لازم أروح له قال لي : طيب ما تفكر . . قلت له : لا أنا
في هذا قاطع . . بس أنا رأيي ندى أمر الناس التي يعملوا التحقيق يبعثوا
في صورة من التحقيق بكسرة الصبح أقرأها وأعرف إيه الأقوال عشان
أواجه عبد الحكيم بها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل لي ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت في ذلك
الوقت قد وصلت إلى آلاف الصفحات فتوفرت على دراستها واستغرقت مني
الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضاً . .

كل هذا وأنا أعد نفسي للقاء عبد الحكيم عامر في المعتقل يوم الجمعة
حيث كان في نيتي أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكما تصارعاً فلسطينية
التي نحن فيها أكبر وأخطر من أي شيء . . كما كنت مضطراً على أن أبقى معه
في المعتقل إلى أن تحمل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة . .

وفي مساء الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٧ تناولت طعام العشاء ورأيت
ما زال مشغولاً بلقاء يوم الجمعة فإذا بجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم . .

قال : أنور

قلت : أيوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة . . دهشت

قلت : جمال . . أنت على الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت ليه ؟ فيه إيه ؟

قال : عبد الحكيم عامر اتحرر ومات الساعة ٧ مساءً وبلغوني دلوقت
من المعتقل . .

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا يبقى ده أحسن قرار اتخذ عبد الحكيم
عامر كفائد خسر معركة . . لأنني لو كنت مكانه كنت عملت كده يوم
٥ يونيو . .

جمال سكت قليلاً ثم قال : إزاي بتأخذ الموضوع بالشكل ده ؟
قلب له : في التقاليد العسكرية أى قائد يتهزم بعمل كده .

طلب منى عبد الناصر لى نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعى وعلى صبرى وأطلب منهما الذهاب إلى المعصورة معى لكى نسافر جميعاً إلى القاهرة وكان زكريا محيى الدين فى القاهرة . ولكن دون أن أذكر لهما الأسباب .

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فركبت حمال فى منشية البكرى وتوجهت إلى معتقل عامر الذى لم يكن يبعد عن بيتى فى الهرم بأكثر من خمس دقائق ..
هناك وجدت النيابة والطبيب الشرعى وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشاراً فى القضاء - حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك فى المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذى كان يصاحبه فى المعتقل وهو الدكتور بطاطا الذى ما زال إلى يومنا هذا طبيبى الخاص ..

كانت إحالة الطبيب أن عامر وهو فى الحمام أصيب بما يشبه أزمة قلبية على الأرض - حملوه إلى فراشه حيث كان يرقد أمامى .. وحاولوا إسعافه ولكن عبثاً فقد مات بمجرد أن وقع على الأرض .. لم يكن هناك أى شئ غير عادى فى جسمه سوى ما لاحظته الطبيب الشرعى عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذيه الشمال مع جسمه بلاستر وتحت جبينان .. ماذا كانا ؟
اعتقد أن هذا جاء فى تقرير الطبيب الشرعى ..

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان .. فلم أشاهد عليه صفرة الموت - بالمعكس كان وجهه يبدو طبيعياً وكأنه مستغرق فى نوم عميق فلا انفعال ولا تقنصات ولا أى شئ من هذا القبيل - بالعكس عادت الساحة إلى وجهه فرأيت أمامى عبد الحكيم الأسمر اللون العادى الهادئ اللطيف الذى رأيت أول ما رأيت فى رفح .. وهو فى مقبيل عمره مئذ سوات وسوات ..

عندما دخلت بيتى فى الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر على الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن على ما حدث رويت له ما رأيت وقلت لى سأغير ملابسى لكى ألحق بالجنائز فى بلدة عامر (امطال) فنتشع اللجنة هناك بعد خروجهما من المشرحة .

ولكن عبد الناصر لم يوافق .. فقد كان يخشى أن يخرج أولاد عامر عن ..
عندما يعلمون بالخبر - وليس هذا من المصلحة فى شئ فالوقت الذى يمر به يحتم علينا الحفاظ على هبة الحاكم ..

ختم عبد الناصر حديثه معى بقوله ورنه الأسمى فى صوته
« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت - احنا الثلاثة أصدقاء لكن تصد ..
يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا وأنت أن ما حدث حائشنى فى حارته محد واحنا كمان مش قادرين نحسنى فى جنازته .. تصور .. »

لم أكن أنصور فعلاً أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينتهى بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة

٦

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفر منه .. قد بدأت الناس تفتق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتساءل من المسئول عن المذبحة ؟ حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وباصر لعبت دور رئيسياً فى الكارثة التى حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعى وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنفاذ رقابهم فحولوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الإستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح المذبحة كانت ما زالت تدمى فى قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا الانفجار الطلبة فى فبراير سنة ٦٨ الذى ما لبث أن عم جميع فئات الشعب .

حاولنا حصار الانفجار وانتهت عملية الحصار عدى فى مجلس الشعب عندما أرسلت فى طلب الطلاب وكانوا معتصمين فى الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلى منزله ..

بلغا عبد الناصر كمعادته إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمحاكمته لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة - ولم يكف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء عليه فخرجت البلاد بأكلها لتأييده مما أذهل المراسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحداً من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعاً يعانون من الهزيمة وآثارها .

صورة أخرى من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التي بدأها في سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهى من بناء خط الدفاع المصري وكنا قد سرنا شوطاً لا بأس به في تدعيم قواتنا المسلحة . . بدأنا الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة الخوالات في نجع حمادى وقاطر نجع حمادى وكوبرى قنا في الصعيد . . فاضطررنا إلى التوقف من سبتمبر ٦٨ إلى مارس ٦٩ حيث استطعنا في تلك الفترة من حماية جميع المنشآت ثم استأنفنا في سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتي كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التي استنفدناها حينذاك إلا مع الكوبرى الجوى عند بدء معركة ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عتاباً لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفييت .

من أحداث تلك الفترة التي كانت ذات أثر بعيد فيما بعد - أن عبد الناصر في ساعة صفاء وإلهام قال لي وكان ذلك يوم ١٩ ديسمبر ٦٩ : أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمة العربي في المغرب يوم ٢٠ ديسمبر . . وزى ما أنت شابف المؤامرات حولي كثيرة وعتمصل جداً أن أصاب في إحدى هذه المؤامرات وأنا مش غايز البلد تنق نايبة ومش غايز أسيب البلد في فراغ . . ولنتك قررت أن أعبك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشي . كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الاتحاد السوفيتي قد بدأت بعد أن أتى الفليب الرومي شازروف إلى مصر ورأى عبد الناصر وأسر إلى وإلهم دون شك بأن الأزمة الثقلية التي أصابت عبد الناصر من النوع الخبيث وأنه لن يعيش بها طويلاً . . فتمننت ما قاله لي عبد الناصر وأجته ؟ -

فكرت يا جمال ورصيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال أبقي نائب رئيس جمهورية . . أنا حاكل معاك وأشتغل وإذا كان لابد من لقب كفاية على مستشار رئيس الجمهورية .

قال : لا . . بكرة نفوت على عشان تحلف اليمين . . وفعلاً ذهبت إليه في اليوم التالي ومعى حسين الشافعى كمعادتنا لاصطحابه إلى المطار . . في المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك في وجود حسين الشافعى ففعلت وحينما ذهبت إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع . .

٧

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البناء في هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم في المنطقة . .

ففي أول يناير سنة ١٩٧٠ حينما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من ٧٠ عاملاً بريئاً استدعى عبد الناصر السفير السوفيتي وكبير الخبراء وأخبرهما أنه ليس في إمكانه الانتظار إلى يونيو وهو ميعاد تسليم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلى العمق وضربت لتجمعات عسكرية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعاداً في ٢٢ يناير وسافر إلى موسكو في زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو في قمة السعادة قلت له : خير يا جمال . .

قال : الاورد الظاهر حيصدقوا معانا . . قانا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وسيت مهم يعبروا صريح ٣٠ ديسمبر . . أظفنا في أغسطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قراراً بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠ .

كنا منذ الهزيمة نلح على السوفييت أن يعاونونا في الدفاع الجوى حتى أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولى الدفاع الجوى عن مصر قائد سوفييتي . . فقد كان الدفاع الجوى عدنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت في عامي ٦٩ ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر

البقر للأطفال . . . ولذلك اعتبرنا دخول عام ٣ مصحوباً بجنود سوفيت نقطة تحول في تعامل السوفيت معا . . .

ولكن جاء إبريل موعد وصول الطائرات في يوم ١٦ التي كانوا قد وعدوا بإرسالها مع الصواريخ ولم يظهر لها أثر وسألنا مرة ومرات أين الطائرات حتى وعدم بها ؟ ولكن لا اجابة . . . نفس الأسلوب القديم الذي كنا قد تصورنا أنهم غيروه . . . ضاق عبد الناصر بالموقف كله وقال لي -

- اسمه يا منصور أوز في اسمه كلها في أيدي أمريكا شئنا أم أبينا ولقد أتوا بغيره بشكلم وبدخل أمريكا في العملية

وكذا في ذلك الوقت قد فرضنا لائحة السوفييت بالتحدث مع أمريكا لإزالة

... رهبة . . . في أول مايو سنة ٦٠ وهو عيد العمال وجه عبد الناصر أغلب كلامه

... سنة ٦٠ بمناسبة عيد العمال إلى نيكسون وقال له . . . هل أنت

... في حل المشكلة أم غير راغب في هذا ؟ . . . كانت لهجة الخطاب

... وكان الوسيط جونار بارنس منذ أن صدر قرار مجلس الأمن

٢٤٢ في نوفمبر ١٩٦٧ وكما نعرف أن مهمته محكوم عليها بالفشل بسبب

تحت إسرائيل ، وفعل لم يستطع أن يحقق شيئاً وانتهت مهمته في سنة ٧١ .

بعد إعلان مبادرة روجرز بقليل قام عبد الناصر بزيارة إلى موسكو أعددت

لها أما مع السفير السوفيت فينوخرادوف إعداداً كاملاً حتى يقتنع القادة

السوفيت بضرورة إرسال سلاح الردع لنا ، ولكن رغم كل الجهود التي

... مع السوفيت لكرمدين .

جن جنسون بريجنيف وسأل عبد الناصر كيف تقل حلاً أمريكياً فأجابه

عبد الناصر أنه على استعداد لقبول الحل من أية جهة .

استغرقت رحلة عبد الناصر هذه ٢٠ يوماً فقد أدخلوه غرفة

الأكسجين الخاصة برجال الفضاء ليجدد خلايا جسمه كله حتى أنني عندما

التقيت به في مطار القاهرة عند عودته من موسكو دهشت . . . فقد بدا أصغر

من سنة بعشرين سنة على الأقل وما زلت أذكر قولي له وأما أرحب به ؟ ما شاء

الله يا ريس . . . إيه الشباب ده ! وما زالت صورته أمام عيني وهو يسير في

أرض المطار بخطى واسعة منشرح الوجه وصدوره إلى الأمام كفتي في الثلاثين

من عمره . . . ولكن ماذا تفيد غرفة الأكسجين رجلاً يعلم أنه مكتوف الأيدي

نتيجة موقف السوفيت معه ؟

في أثناء غيابه في موسكو جمعت اللجنة السياسية للإتحاد الاشتراكي وأوصينا

مرفض مبادرة روجرز . . . ولكنه عندما عاد وشرح لي ما حدث في الكرملين

وأخبرني أنه قبل المبادرة قلت له : ه معاك حق لأن السوفيت حيودونا في ذهنية

قنطري إلى وقال : ه السوفيت يا منصور حالة ميؤوس منها تماماً .

كنت هذه آخر زيارة قام بها عبد الناصر للقادة السوفيت وقد كان

تأثيرها على صحته شيئاً للعابسة - فلأول مرة أحس عبد الناصر بأنه ليست

هناك أرض للمناورة ، وعبد الناصر مناوئ ممتاز ولذلك فهو بدون أرضية مناورة

يساوى صفراً وهو لا يجب أن يكون صفراً . . . وكان الوحيد الذي كان يقف

إلى جانبه في ذلك الوقت الاتحاد السوفيتي . . . فعلاقاته مع أمريكا وغرب

أوروبا والبلاد العربية مقطوعة أو ممزقة فلا مجال للمناورة ولا مجال بالنزاع

للصراع من أجل البقاء . . .

من هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلى أن مات . . . في ٥ يونيو ١٩٦٧ انتقلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . . خمسة شهور متتالية كانت كفيلة بأن تدمر الجهاز الداخلي لعبد الناصر على صورة أمراض متوالية أولها أصيب به في ديسمبر سنة ٦٧ على هيئة بثور في بعض أجزاء من جسمه وحدثت الحساسية بها بسبب له آلاماً رهبة فأرسلنا في استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلى أن اكتشف المرض طبيب إنجليزي وأوصى بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلى أن يخضع لهذا العلاج الذي كان يسبب له أزمات عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلى أن شفى من المرض فتلقته على الفور مرض آخر . . . إذ بدأ يحس في ماقفه بالآلام عنيفة أخذ عنها يزاد يوماً بعد يوم إلى أن وصلت إلى درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها وبما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيئته وبإهالة الضخمة التي كانت تحيط به حتى إذا ما خلا إلى نفسه أعنى حجرة النوم عليه وعلى - فقد كنت الأزمه - وراح يصرخ بأعلى صوته كالأمم الجريح الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . . ظل على هذه الحال شهوراً متوالية إلى أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية في (سخلطوبو) في روسيا .

وفي سبتمبر سنة ٦٩ أصيب بنوبة قلبية أخفيناها وأعلنا أنها أنفلونزا . . . بعد أن محمه الأطباء المصريون أسروا على أيديهم في قبة قبية . . . وعرض عبد الناصر وقال لي : ه والله يا أنور شوف جعشيل ايه وصرف الأمور كما ترى ه قلت له : ه أنا حاببت أعجب لك الدكتور شاروف ه .

كان شاروف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولى علاج عبد الناصر في موسكو ، فأقنى على وجه السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصى بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التزاماً كاملاً لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع حبيب محبة وقد تعرض صاحبها لأي إحساس بشيء أو شيء فسوف تؤدي بحياته بدون أن يشعر بأي ألم . . . وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد ذلك سنة بالضبط . . .

ففي خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التي أنهكت عبد الناصر صحياً وكان أولها قوله لمبادرة روجرز فبمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يترثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذي وقف إلى جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أى رئيس أو حاكم عربي آخر بل لا أضع يد فت بد عبد الناصر شبيه لقضية فلسطين . . . أضنى على القضية كل أبعادها السياسية التي لولها لفظت مجرد قضية لاجئين . فهو الذي ملأ العالم العربي والعالم كله باسم فلسطين . . . وكان يهاجم بعنف أى حاكم عربي لا يقف إلى جانب القضية الفلسطينية . . . بل وكمرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين في وطنهم . . .

كان من الطبيعي أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثره شديداً وعميقاً . . . فهامم الذين ألقى صحته في الدفاع عنهم يتكرونها بالمزايدات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسقاهات الصبيانية ! كيف يتحمل رجل مريض بأقصى أنواع المرض أن يطعن كجرباؤه هكذا وليس على أيدي الغرباء كما حدث في آخر زيارته لموسكو بل على أيدي الأقرباء الأصدقاء . . . الإخوة الذين كثيراً ما فضل مصالحهم على مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعي أن يؤثر كل هذا على صحة عبد الناصر فيمجلل بنهايته . ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد . . . في سبتمبر دعا عبد الناصر إلى مؤتمر قمة عربي في القاهرة من أجل مذبحه أيلول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية . . . وكان السبب في هذه المذبحة أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة في الأردن فاشتبك معها في صدام مسلح مما أدى إلى مذبحه بين أفرادها بالمعنى الكامل للكلمة . . .

لم ينقطع عبد الناصر السكوت على هذا فدعا إلى المؤتمر في القاهرة ورغم كل ما ناله من أذى وحضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما عدا الملك حسين . . . أما أنا فقد كنت قد شفيت لتوى من الأزمة القلبية التي انتابتني للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلى القاهرة للإشتراك في المؤتمر . . .

التلاق وكان صاهرة تمت النظر بالطليحة التي لا تشارك
 د ثم الساب في الملك حين كان يصفه بأنه رحيل
 من دحون منسحق الخدب . . وكث أنا إلى ذلك الوقت أفسر
 منيكة من أنه نوع من الدفاع الشاب والخماس الرائد عن اللازم . . المهم
 عين الملك حين ومؤيد لعدم محبة ولكنهم انتروا
 من ضرورة اشتراك الملك حين في المؤتمر . . وفعلوا جاء
 . ولكنه أصبح بشكل متصلا رهيباً على الأعصاب
 من من ناحية معبر الفدائي وتصرفاته هو وباسر

في جرح عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد
 . . جمال حرباً على أن يعمل إلى صيغة
 . . كل من لعافين قبلاً فكلاهما مخطيء . .
 . . نسخة من الاغترارات لا نهاية لها . . ضاق جمال
 . . ثانياً ما تمسك به كنه عشائك وينحرق دمي بالشكل ده

أمر عبد . . بجرح عائداً إلى بيته بعد أن أعلن نصيبه على عدم
 هادة إلى . . حقاً به وهو بهم مركوب المتصد فأنقذه بالعودة
 معه . . محاولات عديدة ابتداءً بأسر عرفات يستجيب . .
 . . المؤتمر كان حملاً قنبلاً على أعصاب عبد الناصر . . قصد أجهد
 به أحد لإجهاض بسبب الفدائي وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخرى
 سب بأسر عرفات الذي كان عبد الناصر قد دعا إلى عقد المؤتمر ليحل له
 مشكته . . انتهى المؤتمر بالإتفاق على ما اتفقوا عليه وعاد الملوك
 والرؤساء العرب إلى بلادهم وكان عبد الناصر في وداعهم جميعاً . . كان
 آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت . . وعند توديع الملك فيصل نبني
 كبير الياوران إلى أن قدمي الرئيس جمال قد . . لفت على بعضها . . وهو يسير
 مطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلى بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع
 أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتعامل على نفسه فتعلما وركب أمير الكويت طفرته
 لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصب
 من وجهه وقد امتنع لونه بصفرة رهيب . . فطلب أن تأتي السيارة إلى حيث

 وذهبت إلى منزلي لأستريح قبلاً فأتصل في مكنتيره الخاص ليقول لي إن
 عبد الناصر يحضر عدي لتناول العشاء معي . . وذهبت لأنام قبلاً ولكنهم
 أيقظوني في الساعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك
 مطلوب في البيت لأمر عام .

ارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى منشة البكري حيث وجهوني إلى
 حجرة نوم عبد الناصر فوجدته على فراشه والأطباء يحيطون به قالوا
 لي إنه مات منذ ساعة . . كشفت عن وجهه جمال فوجدته طبعاً جداً
 وكأنه يستغرق في نوم عميق . . ألصقت خدي بخده فلم أحس بالبرودة التي
 تصاحب الموت . . التفت إلى الأطباء وقلت : . . مش ممكن . . الكلام الذي ينقلوه
 ده مش ممكن يبقى صحيح . . قالوا لي إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة
 واستعملوا جهاز القلب الذي يعطى صدمة توقف القلب . . قلت لهم : . . حاولوا . .
 حاولوا مرة أخرى . . فأنفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم
 لمدة ساعة كاملة قبل وصولي ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ . .

أمرت بنقل الجثمان إلى سراى القبة وكنا في يوم الإثنين فجمعت مجلس
 الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة
 يوم الخميس حتى يتمكن المعززون من الملوك والرؤساء من تشييع الجنازة . .
 وطلبت من الأطباء العمل على حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلى يوم الخميس . .
 ومكثت بقصر القبة حيث جثمان عبد الناصر إلى أن أتى وقت تشييع الجنازة
 فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة التي كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة
 ولكن بعد أن وصل الجثمان والجنازة على وشك الابتداء أصبت بأنياب
 مفاجيء . . فحملوني إلى مجلس قيادة الثورة وأعطاني الأطباء خمس حزن
 لم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة والصف بعد الظهر . .

كان أول سؤال سأله : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أعنى أن نحمل
 جماهير الشعب التي كانت تقدر بالملايين التعش ونسير مندفعة به .

فصوت عبد الناصر كان دجعة متاخنة لجموع

عندما تسلمت الحكم كانت التركة التي تركها لي عبد الناصر مبهمة بالنسبة لي أول الأمر - ولكن أيا كان الوضع الذي كانت مصر فيه فقد قبلت التحدي لأصححه . . كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكنني استطعت أن أصحح هذا بقيمي ومبادئ . . وليس بضرب الناس . . كانت مراكز القوة تخضع أمام عيني فقلت لهم : أنا أتسامح ولكنني لا أسمع بالعيب . .

لم يكونوا يعرفون أنني لا أسمع لنفسي بالحكم على مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوى كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شبهات انتقام أو تخويف . . وكانوا يجهلون أيضاً أنني لا يهمني أن أبني نفسي في الخارج . . فالصورة يجب أن تكون في مصر أساساً . . ولعلمهم كانوا يجهلون أيضاً أن أبشع ما واجهته هو جبل الخلد الذي بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإنسان أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث في الأنظمة الفاشية . . وهذا في تقديري أقبح ما يمكن أن نصل إليه .

فعندما قامت الحبة الناصرية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت تركز على أساس خلق ومثالي . . وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلاً من أن تبدأ بالثقة وتعطي الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أؤمن أنا وكما تعودت أن أمارس في حياتي) بدأت بالشك في كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادراً ما يثبت لأسباب كثيرة . . من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة . . ولذلك ففي الأربع سنوات الأولى وهي حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانها كانت في حق الإنسان المصري ولكنها كانت في دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . . ففي سنة ٥٦ كان يجب على عبد الناصر أن يؤصل الانتصار بعد انتصاره في معركة القنات بأن يعطي للشعب المصري بعد معركة ١٩٥٦ حريته كاملة ولكنه لم يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصري سلبياً مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . . لأنه يعرف في أعماقه

جيداً أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه في أمر ما . . وعندما كان الشعب يتحمل من هذا كان تحملته يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراصات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلي لامتياز كرامة الإنسان . .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكبت في حق الإنسان المصري كان هو زرع الخوف . . فبدلاً من أن نبني الإنسان أصبح كل همنا أن نخيفه . . والخوف هو الخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكاً للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مصحوباً في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم . .

وهكذا تحول الناس إلى « مسخيط » أو أصبحوا دمي في أيدي حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون . . فلم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا في أرزاقهم . . ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا إلى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأي شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يسمعون ولا يسمعون ولا يتفكرون . . من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقتل ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها فإنها كانت أيضاً عملاقة في أخطائها . . ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً وانما مجرداً من الحالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهبة تشيع الخوف والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فراراً .

ولكن رغم هذا كله ، يخطيء من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائماً قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً . . فبمجرد أن يكشف عنه القبار تحده عملاقاً كما هو . . قد تجده مجروحاً ينزف دماً . . ولكنه يعلم أنه سيأتي الوقت الذي يقف فيه التزيق ويضمده جراحه . . هذا هو الشعب المصري الذي آمنت وما زلت أؤمن به وأدعو الله أن يمكنني من أن أزيل من طريقه جميع العقبات وأن أجعل الكلمة الأولى والأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذاك سوف يحقق المعجزات . .

كانت التركة التي ورثها من عبد الناصر في حالة يرثى لها . . فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع أنحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتي . . وفي العالم العربي ساد ما نادى به عبد الناصر وسمى بالتقدمية والرجعية وبناء على هذا التقسيم التعسفي كان يقيم أو لا يقيم علاقاته ببلول الأمة العربية . . وقد أخذ درساً حين رأى أن الذي وقف إلى جانبه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك النوسبي ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه في الوقت المناسب المعلومات المناسبة التي يفجرها فتحدث في العام دويًا هائلاً . .

أذكر أنه في سنة ١٩٦٤ كان عبد الناصر على وشك أن يلقي خطابه بمناسبة عيد النصر في ٢٣ ديسمبر في بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة ١٩٥٦ . . وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له علي صبري وكان رئيساً للوزراء إن وزير التموين سأل السفير الأمريكي عن موعد وصول معونة القمح فرد السفير بما أمان مصر وقال للوزير إن الكونغرس لم يوافق بعد - وبعد أن سمع عبد الناصر هذا التقرير مباشرة أتى خطابه فجاء مليئاً بالسباب والطعن في أمريكا . . وعندما سمع السفير الأمريكي الخطاب ذهب مباشرة إلى المسئولين وقال إن شيئاً مما نسه إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التموين المصري نفسه فقد بادر بعد سماعه الخطاب إلى الاتصال بمستشار عبد الناصر لمصحق ونثي هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلى عبد الناصر . وأسقط في يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلى أن يطلب من ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر

فاجتمعنا مع السفير الأمريكي على مائدة عشاء في منزل المستشار الصحفي المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ . . ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر . . إذ أن ما حدث مع أميركا حدث أيضاً مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات تسبوا إلى شاه إيران خطأ قبل أن يلقي خطاب ٢٦ يوليو في الإسكندرية (وكان هذا تقليداً منذ خروج الملك من الإسكندرية في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران في هذا الخطاب ، ورغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء . . ومرة أخرى طلب مني عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته في ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب مني أن أوسط الملك حسين في ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تتم . . كانت هذه هي التركة التي ورثها سياسياً . . لا وجود لوزارة الخارجية أو سياسة مدروسة ومخططة . . لم يكن هناك سوى الرئيس نفسه الذي يتفعل فيصدر قراراته بناء على هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب .

أنا اختلف عن عبد الناصر في هذه الناحية اختلافاً تاماً ، فعندما أردت أن ألغى المعاهدة مع السوفيت بعد ما قوتوا على سنة الحسم بعدم الوفاء بالتزاماتهم . ومناوراتهم التي لم تكن لها نهاية . . اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الإنحياز وهي الهند وطلبت منها أن ترسل إلى بعض الأسلحة التي تصنعها بموافقة السوفيت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفيتي تستأذنه في إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفيت لأنهم كانوا يأملون في أن يصبح السلاح الذي عندي خردة يباع لمجموع الحديد والصلب . .

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهي الهند . . ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكي أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مسلك الاتحاد السوفيتي وأيضاً كنت لا أريد أن أترك من خلفي التزاماً قد يستغل من بعدى وأيضاً لأنني كنت الذي عقدتها وقبلها الشعب على مضض لنفثته في . .

وفي رأيي أنه ليس من حق أي إنسان أن يحكم إلى انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصر الوطن . بل يقتضي الواجب في نظري أن أبحث عن كل مصدر لحبر ومساعدة الشعب وأن أفتح كل أبواب التي أغلقت في وجه مصر مهما كلفني هذا من جهد وعناء . .

ولبوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإنني أفخر أن علاقات مصر بإيران وبالعالم كله تقوم على الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسى أبداً يوم أن كان احتياطي البترول في مصر قد أصبح في مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلى شاه إيران فادر في الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول في عرض البحر أن تغير طريقها لكي تتوجه إلى مصر لنجدتها وهو يقول : « السادات أخ لي » والذي يريده سأستجيب له في الحال .

٥

كانت الثروة التي ورثتها اقتصادياً أسوأ بكثير من الثروة السياسية فاستقلال أي بلد حر هو في حقيقته الاستقلال الاقتصادي وليس الشعارات السياسية . . فمادام كان حالنا سنة ١٩٧٠

كما قد قلنا بقاء شديد النمط السوفيتي ونحن نسير على الخط الاشتراكي رغم أننا كنا نفتقر إلى الموارد والإمكانات وتراكم رأس المال . في سنة ١٩٥٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركها لي عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا على السطح فقط أما في الأعماق فالمسألة تختلف تماماً . . فعندما تم تخصيص البيوت الأجنبية في مصر بعد معركة العدوان الثلاثي في أواخر سنة ١٩٥٦ انعكس هذا الحال على الوضع الاقتصادي لمصر . . وكان لنا في هذا الوقت أيضاً أرصدة مقدراها ٤٠٠ مليون جنيه استرليني ودائع في إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا . . في أول يناير سنة ٥٧ بعد الإفراج عن ودائعنا في لندن وتأميم جميع البيوت الأحيطة عدنا كنا في أروع أوضاعنا الاقتصادية . . ومن هنا بدأ القطاع العام بالأموال والمؤسسات التي مصرت ولم تكن تقل في مجموعها عن ألف مليون جنيه . . ولكن لو كان الده مليماً لكنا الآن دولة عظمى . . في سنة ٦١ صدرت قوانين التأمين . . وكان من الممكن أن يطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلى آفاق هائلة لأن المنافسة في صالح بناء أكبر وادفاع أعظم ، ولكن الذي حدث هو . . الاشتراكي بدأ يتجه إلى الماركسية فأصبح أي عمل حر رأسمالية بعينة وأصبح القطاع الخاص استغلالاً ولصوصية فاخفى تماماً نشاط الأفراد مما استع لدية رهبة من جانب الشعب أعانى منها إلى اليوم وصلت إلى أن أصبحت للدولة مطالبة - إلى جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية - بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات التي كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردي .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب الطريقة الجديدة يعتمد على الدولة في كل شيء . . الأكل والوظيفة والسكن والتعليم . فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يطلبه دون أي جهد إيجابي من جانبه . . وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلى الهاوية .

في سنة ٧٠ قرأت تقريراً صدر في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادي يقولون فيه : « اتركوا عبد الناصر يصرخ فوف بركم على ركبته اقتصادياً في القريب العاجل » .

كنا في ذلك الوقت نتماد فقط على أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفيتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا تأخذ من الغرب والشرق والغرب كان الشائنة . . فقد ضاع اقتصادنا في حرب اليمن والانفصال عن سوريا والتطبيق الماركسي للاشتراكية وهزيمة يونيو المنكرة .

قرأت التقرير مرة ومرات واستلفت نظري ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالي زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصري

يصل إلى مرحلة الصفر في خلال سنتين من سنة ١٩٦٥ على الأكثر فضرت
ولكن اعتبرته دعاية من التسرب وأنه ضمن الحملة النفسية التي تشن علينا
لكي نلجأ لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة - فقد
استدعت وزير المالية والاقتصاد - د. حسن عباس زكي وسألته عن الموقف
الاقتصادي فقال ببساطة: إن الخزينة فاضية . . وإننا نكاد نكون في حالة إفلاس . .
قلت له : ه كيف وصل الحال إلى هذا ؟ ألم تخبر جمال ؟ قال : أنا قعدت
أبس طاقبة ده لده ولكن دلوقتي خلاص . .

أرسلت واقرضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكي قال لي إن
هذا المبلغ لم ينفع كثيراً . . وكنت أذعر فعلاً . . عندما أدركت أننا على وشك
أن يأتي اليوم الذي لا نملك فيه رواتب الجنود المراطين على الجبهة ومرتبات
الموظفين فإذا جاء يوم ولم يقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم في مصر لا يجدون
ما يأكلونه سوف يتركوا الجبهة وتهاجر مصر . .

طبعاً كافحت واستعنت بكل مدد يمكن الإستعانة به . . ولم أشعر طوال
سنة ٧١ و سنة ٧٢ بتحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس
الأمن القومي بحقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لوصادف غيري
أو أي إنسان لابد أن يخيفه ولكني فكرت وقسرت . . ولا اعتقد أن أحداً
مكاني كان سيجد الشجاعة لإصدار أي قرار ولكني كنت على ثقة أن مفتاح
كل شيء سياسياً واقتصادياً وعسكرياً هو أن نصحح هزيمة سنة ١٩٦٧ لكي
نستعيد ثقتنا في أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادي سوى بعد
واحد من أبعاد المشكلة .

لقد كان محور عار ومهانة هزيمة سنة ١٩٦٧ هو الأساس ، وكان تقديري
أنني حتى لو دفتت مع أربعين ألف من أبنائي في القوات المسلحة ونحن نعبر القناة
فيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإدلال ونلك المهانة
ومتأني الأجيال القادمة من يمدنا لنقول إنهم ماتوا بشرف في المعركة ولا بد
أن يكلوها بعدنا .

٦

في وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا أحد وزراء نيكسون وهو ريتشارد موند
للتعزية وعندما عاد إلى بلاده كتب تقريراً بأن السادات لن يبقى في الحكم لأكثر
من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع . . وفي الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفيتي
في القيادة السيامية الصراع . . وظهر هذا واضحاً بعد أن أصدرت قرار
إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات .

في هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع - مصر وليبيا والسودان وسوريا - من أجل
تحقيق وحدة بين البلاد العربية . . لم يكن السودان على استعداد للدخول في أي
عمل وحدوي في هذه الفترة حتى يتم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافي
يتظاهر بأنه وحدوي منطرف . . أما حافظ الأسد فقد كان حريصاً على
الوحدة من أول لحظة . . واتفقنا على الصيغة التي تبدأ بها الوحدة وهي صيغة
الجمهورية العربية المتحدة على أن تكون لكل جمهورية شخصيتها
بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمى
مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكي ينسقوا عملية الوحدة
والخطوات إليها . . وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه في حياة عبد الناصر
كدر من استفاد من الانفصال الذي وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١
والتي لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط .

وجد مركز القوة الأول الذي يتكون من علي صبري وشعراوي جمعة وصامي
شرف وجميعهم عملاء للاتحاد السوفيتي - وجد هذه فرصة للتصارع وكان معي
ضمن وقد مصر للوحدة على صبري فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول
في أي نوع من الوحدة . . وكان هذا أول محك للصراع بيني وبين مراكز
القوة . . في مراحل الوحدة المختلفة كان علي صبري ومعهم بقية وفد
مصر من القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر يحاولون تلغيم الطريق إلى
الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا . . لم يقل لي القذافي أنهم يتصلون به ليضعوا
العقبات في طريق الوحدة أما الأسد فقال لي : أنت في وضع غريب جداً . .
أنت بتكلم كلام والوفد إلى معاك بيتكلم كلام مختلف تماماً من وراك . .

وفي اليوم الأخير لاجتماعاتنا قال نمري : « أنا زى ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذه من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أؤيده ١٠٠٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان في اليوم التالي سيسافر إلى موسكو . . وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلى القذافي قبل أن يعود إلى ليبيا في الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يتأدر مصر هذه المرة إلا وقد أقمت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة . . هذا قدرنا فمعركتنا واحدة » .

قال : « أنا متعود أدخل معاكم . . » مع أنه في الليلة السابقة كان له رأى مخالف تماماً لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة على ما يرأوه من آمال وأحلام وإلا فهو يضع في طريقها العقبات . .

قلت له : « الوضع سيكون شاذ لأن نمري سافر النهارده على أساس أن لاجتماع الرباعي فاشل . . فإذا كنت عايز تحش معانا نرجع لاجتماعنا . . نرأى في بنغازى الى كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعي . . على بنغازى وأحنا نبحى بعدك بكذا ساعة » .

بين مصر والسودان وليبيا وموريتانيا قد تم ثلاثي بين مصر وموريتانيا وليبيا في بنغازى ولكنه عند إلى اجتماع رباعي في القاهرة بإضافة السودان كطبيب الرئيس السوداني

كنت وفداً لذهاب معي إلى ليبيا وكوته من حسين الشافعي وعلى صبري وهما نائباً لرئيس الجمهورية في ذلك الوقت . . ذهب على صبري مكرراً إلى المطار ومعه شعراوي جمعه بصفته وزيراً للداخلية - وهما اللذان كانا بتلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفيتي - فعليه أن يكون في وداع القذافي . . انشرد على صبري وشعراوي جمعة بالقذافي في المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو اللي أحرختي » . . وعندما وصلت المطار قال شعراوي جمعة لي : « القذافي يقول إن ميادتك ضفطت عليه وهو مش عاوز الوحدة » .

ووجدت على صبري يقول لي نفس الكلام . . فقلت أنا أرفض الاجتماع إلى هذا الغر . .

وفي بنغازى جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبي كله والرئيس الأسد والوفد السوري وأنا والوفد المصري . . أخبرت المجلس بما حدث بيني وبين القذافي وأن الوحدة التي تجتمع من أجلها ليست حرجاً لأحد وذكرت قول القذافي أنه أخرج فلم يتكلم القذافي ولم يعلق على صبري قبدانا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقائق إلى المطار وأعدنا البيان الذي سيعلم عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلى المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافي وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كما متفقين عليها فيوافق ويعرضها على فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازى . . فإذا بعلى صبري يأتي إلى ويقول إنه غير موافق . . فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلى أن نعود إلى القاهرة » . .

٧

في القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق على الوحدة الذي وقعته عن مصر في بنغازى وبعد مناقشات طويلة وضح فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين في أول اختبار قوة معي لكي يفرضوا الوصاية على قراراتي ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزي رئيس الوزراء وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية . . فكان واضحاً أن الصراع في أوجه فلما أن يجهزوا على وإما (على الأقل) أن يحدوا من سلطتي نهائياً بحيث لا أستطيع أن أتخذ أى قرار إلا بموافقتهم . .

ولم ينجحوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبي حين طلبت عرض الموضوع ونتيجة التصويت على اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت

فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكنني أصروا على عرض الأمر كله على اللجنة المركزية التي لم يستطيعوا بكل الجهود الياثة التي بذلوها كسبها إلى جانبهم . . . ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع على الاتفاق . . . وهكذا انتهى اعتبار القوة مهي إلى انتصاري المطلق وتسليمهم . . . ولكن إلى حين .

في يناير سنة ١٩٧١ كان على أن اتخذ قراراً بالنسبة لمبادرة روجرز مدعوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الخارجية ووزير الخارجية - وكان واضحاً من المناقشة أن الرأي العام هو رأي مراكز القوة وهم الأغلبية في القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل في الوقت الذي كان فيه نصف الوطن وهو الصعيد معرضاً لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان يفضل في إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشأتنا في الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف في إرسالها بمختلف الحجة

وكان واضحاً أيضاً من مناقشتهم أنها متاورة لإجرائي وإحراج البلد ونهيت من الاجتماع بأن قلت لهم لئني لن أدخل حرب استنزاف أخرى حتى نصلي بطائرات الصواريخ وأؤمن المنشآت في الصعيد نصف مصر كما أني سأجند مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهي في ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطي آخر فرصة للعالم والأمريكا وإسرائيل ليتحملوا مسئولياتهم . .

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا الأمة العربية مبادرة مني أسميتها "بداية السحب الإسرائيلية من ضفة قناة السويس" . . . يت طلبنا على استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلى شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة في مبادرة روجرز إلى ستة شهور بدلاً من ثلاثة . . . مع ذلك . . . قد يوافق . . . سيؤيد سوف عبد الغلات مع أمريكا . . . لم أخبر أحداً من مراكز القوة بمبادرتي هذه فتوجهوا بها يوم أعلنها في خطاب ٤ فبراير في مجلس الشعب وأصبحوا جميعاً . . . في حين أن العالم . . . لم يهتم . . . فأنزلوا موهبة العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعياً . . . مجرد حماس وانفعال . .

أما الشعب المصري فأصاليته وحسه المرفه أدرك المبادرة ورحب بها كل الرحب

في فبراير سنة ١٩٧١ أيضاً فكرت في السفر إلى الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد انتخابي رئيساً للجمهورية لأطالبهم بتنفيذ الجزء الثاني من الاتفاقية التي عقدها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع . . . كذلك استعاض اللخيرة التي استهلكناها في حرب الاستنزاف ولتزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت في الصعيد . . . فأرسل إلى السوفيت أنهم على استعداد لمقابلتي في ٢٤ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية ، وسافرت وجلسنا على مائدة المفاوضات في الكرملين وشرحت لهم متاعبنا منذ عهد عبد الناصر ومطالبنا الحسوية وبدأت حديثي بتقرير القطنين الأساسيين اللتين قررتهما في كل اجتماعاتي التالية مع قادة الكرملين . . . الأولى هي أنه لن يحارب لنا معركتنا جندى سوفيتي والثانية أننا لا نسمي إلى المواجهة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا . . . وكنت في شدة الانفعال والحماس فاشتبك مع كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي كما اشتبك مع المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لي أن الحكومة السوفيتية قد وافقت على تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة . . . لم تكن هي المطلوبة فعلاً ولكن قبلناها لحاجتنا المساسة إلى أي سلاح - كان هذا أسلوب السوفيت معنا دائماً ولكنني قلت لهم في هذا الاجتماع : -

- نحن نشكركم ولكن لا بد أن أسجل هنا في عصر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكي معهم في هذا الاجتماع قالوا إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصاروخ ويدربوا عليها المصريين على أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية . . . عندئذ اشتد غضبي وقلت لهم :

« مفبش قرار في مصر إلا لي كرئيس لمصر وأنا بارفض هذه الطائرات » بعد ذلك أخلني بريجنيف وقال لي يني وبينه « أنت عارف الطائرة المبيع ٢٥ التي عندك منها ١٤ » قلت : « دي طائرة ممتازة » . . . قال لي : « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها قاذفات » . . . قلت له : « عندئذ يبقى أما تنازلت عن كل خلاف على شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم مني أنا » . . .

طبعاً لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصلحت أمرى بأن الأربعم طائرات
مع ٢٥ (مثل التي طار بها طيار سوفيتي إلى اليابان) والتي كان يعمل عليها
طيارون سوفيت لا تطير . . فلما أن يعودوا إلى بلادهم . . ولما أن أشتري
هذه الطائرات .

كانت لدى هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٥ وقد قبلت وجودها على
الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها
لم تنم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن يتعدوا ما تأمرهم به .
واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الاسطول السوفيتي الخامس
في البحر الأبيض ضد الاسطول السادس الأمريكي في هذا البحر . .
وقد سحب الاتحاد السوفيتي هذه الطائرات ورفض أن يبيعها لـ . .

وفي اجتماع الدعة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث في موسكو وقلت
أنا رفعت قدي هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند
واضحاً لكم جميعاً أنه ليس في مصر قرار إلا لي أنا كرئيس
لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط . .

ون وهم أغلبية القادة الساسة التي تركها لي عبد الناصر
لـ سوهوا بكلمة أمامي ولكنهم حرجوا من الاجتماع ساخطين على فكيف
نر عن أخذ الإذن من الاتحاد السوفيتي وهو دولة عظمى . . ! !

يرسل ن السوفيت بصاريات الصواريخ إلا في شهر إبريل سنة ١٩٧١
لما الذخيرة عند أرسلوا شيئاً منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أنشاء حرب أكتوبر
سنة ١٩٧٣ . . أما الطائرات وسلاح الردع الذي وعد به بريجنيف فقد كان مجرد
كلمة .

هكذا كان السوفيت معنا دائماً . . يضعوننا في موقف لا نملك فيه أن نتخذ
قراراً . . في ٧ مارس أعلنت في خطابي أنا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار
كما أعلنت انتهاء مناصرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة
حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفيت بوعودهم جعلني غير قادر
على الحركة في ذلك الوقت . .

٨

كانت مبادرتي التي أعلنتها في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية
لأنه لم يكن في مقدوري في ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكتيحية
لمبادرتي اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرجت .

وكانت صدمة للاتحاد السوفيتي وعملائه وخاصة من كان منهم في مراكز القوى .
كان قد أصبح واضحاً لمراكز القوة هذه والمتأمرين أني بدأت أكسب
أرضاً في مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم
يعجلون بعملية التأمر للحلاص مني . .

طلبوا مني في أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار
المتأمرين وعملاء السوفيت رئيساً للوزراء ولكنني رفضت . . وكنت قبل ذلك
قد قررت تصفية على صبري عميد العملاء السوفيت في مصر .

وفي لقاء بيني وبين السفير السوفيتي قلت له : « أنا حريص على العلاقات
معكم ولكني أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنني قررت تصفية على صبري
من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية
التي لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكنني أخشى عندما أصفيه أن يتحدث صحف
الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول في مصر وأن بسبب هذا لكم شيئاً من
الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر فأنتم تعاملون
مع الحكومة لا مع أفراد . . وأنا أصني على صبري لأنني أقبل الخلاف في الرأي
ولكن لا أقبل الصراع على الإطلاق . . »

بدأت مراكز القوى أو على التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات
والتحريض وبدأ الناس يرسلون لي شكاوى ضدهم موقعة ويخبروني
بالتعليقات التي صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكي الذي كان تحت سيطرتهم
فكنت أحيل هذه الخطابات إلى المتأمرين أنفسهم وكنت أرقب حتى إذا اعتدى
أحدهم على واحد من أصحاب الشكاوى طالبت بالمبرر وفتحت المعركة . .
وفي أواخر إبريل أصابهم الحمى فأكثروا من الاجتماعات والتحريض

واضلموا المزيد من الإشاعات وكان عددهم جهاز إشاعات يفخسرون بكفادته
إد كانوا بقسواون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشاعة من القاهرة فتشيع
في جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم في زمن قباسي . . وهو تكبك معروف
في روسيا بما يسمونه مراكز التيج .

كنت قد وقت معركتي معهم على أن تكون في عيد العمال وهو أول مايو
سنة ١٩٧١ . . وقد حاولوا إفساد هذا الاجتماع بكل الوسائل . . ولكنهم
موسنوا بأن يخاصوا على اسوى على اهتمام الناس فكان اجتماعاً من أئيج الاجتماعات .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت على صبرى من جميع مناصبه في سطر
وحد صدر في الصحف . . ففرح الشعب بذلك فرحاً عظيماً وفي نفس الوقت
رادت عند المتأمرين حصى التأمير والتحريض والاجتماعات والمناقشات
وهم يظنون أنى لا أعرف شيئاً مما يدور . . أردت أن أكمل المعركة التى فتحتها
فعمدت عدة اجتماعات في القنات المسلحة وقلت في آخر خطبة لى : « لن
أسمح بمراكز القسوة ولا بالصراع وأى واحد جيعمل حاجة ضد مصر
ثا حارمه . . » وكان يخلص بجانبى محمد فوزى وزير الحرية وقتذاك وهو
واقع تحت تأثيرهم . .

كان المفروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى
مديرية التحرير ولكنى علمت أنهم قد دبروا كيناً هناك لاغتيالى فأجلت
الرحلة معتزلاً بأنى عهد . . وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بيئة . .
منذ تاريخ توليتى في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ،
كثت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنفضى البيئة . . إلى أن
أى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لى به سابق
معرفة . . هذا بحمل معه شطاً تحلى عليه مكاشة تأييده بين اثنين من
مير أصبح مع سالى وسى الدولة وكيف كانت لإداسة مصر
يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة . . حتى إذا بلحات
إلى الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويقتالونى . .

عندما وصلتني هذا الدليل قلت يجب أن أصفيهم على الفور فلم يعد هناك
شك في قائمهم على مصر . . بدأت بإقالة وزير الداخلية عليم التأمير .
في الساعة حركت من ذلك ثلاث دهان من معه نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الماصر) وكان يعمل مديراً
لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحرية
ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية
وأعضاء من اللجنة المركزية العليا . . وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث
انهيار دستورى في البلد . . قبلها جميعاً وأعلنتها على الشعب في الحال
وحددت لإقامتهم في بيوتهم . . وفي نفس الليلة أجريت تعديلاً وزارياً
وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يمحسون به بل
على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماد
يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدوره

وهكذا تخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسى الذى شل حركتها
سنوات طويلة . .

ولكن كان من الضرورى أن نتخلص من آثار هذه المراكز التى حلت حائمة
فوق الصدور سنة بعد سنة تعبت بأقدار الناس تزرع الخوف في الإله إن مصرى
وتعطل العدالة وتشيع الحقد وتذيق للناس من ألوان القهر والظلم ما لا حدة
سم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهى الحرية . . نوت بحرق
جميع شرائط التسجيل الموجودة في وزارة لداخلية . . وكان هذا رمزاً لإعادة
الحرية إلى الناس . . فقد أمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتحريم
الإعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق في أن يفعل أو يقبل أى شىء
في ظل سيادة القانون . .

كان ما حدث في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والأيام التى تلتها تصحيحاً لمسار ثورة
٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولكنه كان في نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولى في بناء
المجتمع الاشتراكى الذى نعيشه اليوم والذي يتم بالعدل الاجتماعى
الحقيقى لا بالشعارات ، وبالععمل الإيجابى والأهداف الساطعة في وضع النهار
لا التفسيرات المتنوية أو الفلفيات الدخيلة علينا البعيدة عن فيما العربية ،
وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بتراث وتقاليده العائلة
المصرية الأصيلة . .

جاء بودجورنى لزيارتي في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تنبأت فيما مضى قد نشرت أن رجل موسكو الأول في مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا في السجن . .

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورنى في زيارته لمصر وهو يتعرض عملاء موسكو في ملابس السجن . .

احتمعت به وطلب منى أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتى . .

لم أعارض ولو أنني قلت إن التوقيت ليس سليماً فمراكز القوة ورجالكم في مصر ما زالوا في السجن ولم يحاكموا بعد فأتم بعقد المعاهدة تسبون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يحسمون مصالحكم ولكنه كان منتهزاً على عقد المعاهدة وقال إن المكتب السياسى قد اجتمع في موسكو وأصر على المعاهدة . . قبلت وكان هدق أن أطمئنهم فقد كنت أعرف أن من طعمهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك في كل علاقتهم مع الغير . وانك في نية الروسى طيبة ثانية مصروقة سواء وقت القبصرية أو سنة

وفي اليوم التالى عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورنى لأودعه في مصر وطلبت منه وهو بهم يركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفيت رسالة منى وهى . . الثقة . . الثقة . . الثقة ، فقد شعرت أنهم مهتزون وكنت أخشى من هذا على معركتنا . .

أنشاء اجتماعى مع بودجورنى قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التى تعاملونا بها ومع ذلك فنحن نعتقد معكم هذه المعاهدة لنثبت لكم حسن نوايانا فقال لى : « بعد أربعة أيام من وصولى إلى موسكو سنرسل إليك كل ما طلبته من سلاح فوراً بما في ذلك سلاح الردع » .

كان هذا في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شيء مما وعد به بودجورنى . . أسوأ ما كان

يضافنى من الاتحاد السوفيتى أنهم كانوا في أغلب الأحيان يصمتون كالقبر . . كنت استدعى السفير السوفيتى مرات ومرات وأبعث إلى السوفيت بالرسالة بعد الأخرى . . ولكن لا إجابة وكألك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا في خيالك .

في يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فالتحذت موقفاً حاسماً من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذى حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعى على حدودى وما هى إلا أيام قليلة فعلا حتى سقطت هذه الثورة وعاد نميرى رئيساً للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه .

اتسعت الفجوة بينى وبين السوفيت بعد موقفى من ثورة السودان فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أى رد من السوفيت سوى أن القادة السوفيت في مصيفهم بالقمرم . .

وأخيراً في أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتنى رسالة منهم بأنهم على استعداد لاستقبالى في ١١ أكتوبر سنة ١٩٧١ - وكنت قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة التشبع وكان لا بد لى إنسان في موضعى أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفيت سنة كاملة تقريباً - ومع ذلك كظمت غيظى وسافرت إلى موسكو وبدأنا المباحثات . . أعدت نفس الكلام الذى قفته قبل في ١ ، ٢ مارس سنة ١٩٧١ . . يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بينى وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل . كانوا كعادتهم يتركوننى أتكلم كما أشاء وأحياناً يشتبك بعضهم معى فيما عدا بريجنيف الذى يقف دائماً موقف المتفهم ولا يدخل في أى اشتباك .

وعلىنى هذه المرة أن يرسلوا لى الطائرات بالصواريخ ومعها المدربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها . . ولكنهم تازلوا هذه المرة عن الشرط الذى ينص على أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو . . وفي نهاية اجتماعنا قلت لهم : « نحن الآن في ١٢ أكتوبر . . كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون في وضع يمكننا من تحريك الموقف » .

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فيما حل سلمى ولما معركة .

وافقوا وعدت إلى مصر وأنا على ثقة أن الأسلحة التي وعدوا بها سوف تكون قريباً في الطريق إلينا . .

انقضى أكتوبر وتوفير ولكن كل شيء كما هو . . استدعيت السفير السوفيتي وأرسلت إلى الكرملين عدة رسائل ولكن لا إجابة . . وإذا في أماناً في ٨ ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفيتي طرف فيها . . استدعيت السفير السوفيتي يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلني فضة سلاح واحدة إلى الآن ولذلك أرجو أن تبلي القادة السوفيت أنني أطلب مقابلتهم في موسكو حتى نبحث عن وسيلة نغطي بها الموقف الذي كشفوني فيه عن سنة الحسم . . وقبل أن ينتهي ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءني السفير ليبلغني أن القادة السوفيت مواعيدهم مشحونة ولكنهم على استعداد لاستقبال في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ . .

كنت أعرف أنني سأواجه حملة مسورة لأنني سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هي سنة الحسم . . وملا حدث هذا .

في أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأي العام اليهودي عن موقفه إلى جانبي ذات يوم بعد أن أنهته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل عناً أمام الكنيسة في خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بسلاحهم أو خلافه وأن أمريكا ستعطي إسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شيء .

بل وأعلن أيضاً أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ في تصنيع الأسلحة مع إسرائيل . . وأن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها .

كانت حرباً نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصري بحسه الصادق أدرك أن المسئول عن هذا هو الاتحاد السوفيتي . .

في يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا في أوج غضبه على الاتحاد السوفيتي رغم أنني لم أطلع الناس على الحقائق بل على العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفيتي في جميع أحاديثي وخطبي . .

ذهبت إلى موسكو في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وسألته عن المسئول عن تأخير الأسلحة التي وعدوني بها - فرد بريجنيف وقال إنه المسئول نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية . . الخ . . فقلت : أنا لست مقتنعاً بهذا الكلام وإذا تكروما حدث مرة أخرى فسوف أتخذ قراراً ما . . ثم أعدت على مسامعهم وأنا في قمة الغضب نفس الكلام الذي سبق أن قلته في زيارتي السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جندياً سوفيتياً ليحارب معركتنا وأنا لا نسمي إلى مواجهة بينهم وبين أمريكا . . فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التي وعدوا بإرسالها فوراً . . ولم تكن أيضاً الأسلحة الأساسية . . ولكنها كانت على أي حال أحسن من لا شيء . .

فعدت إلى مصر ولكن صبري كان قد نفذ . .

في ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف ونيكسون من أجل الوفاق في ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفيت يرسلون لنا الأسلحة التي يريدونهم إرسالها ، أما التي نريدها نحن فيحجبونها عنا . . وفي ١٥ مايو سنة ١٩٧١ جاءني المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفيتي وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوي ١٧ وأقاموا عرضاً للطائرة . .

كان جريتشكو يحمل معه بياناً مكتوباً كالعادة في اللجنة المركزية وطلبوا أن نصلره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدى (وهو غير صحيح) . . فأصلدناهم بل ومنحتهم نياشين وسافروا . .

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلى موسكو هو أن يقوم السوفيت باستعراض نفوذهم في الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جريتشكو ومن معه نياشين . .

نسيت أن أقول إن السفير السوفيتي فاجأني برسالة عاجلة من القادة السوفيت في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم في أواخر إبريل . .

طبعاً كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة في منطقة الشرق الأوسط ورغم «فرق» سافرت وانفقتنا في هذا اللقاء - القادة السوفيت وأما - أنه بعد أن تنتهى زيارة نيكسون في ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلى تحليلاً للموقف ثم يبدأوا فوراً في توريد الأسلحة المتأخرة التي تعاقدا عليها . . . وذلك في خلال خمسة شهور أى من يونيو سنة ١٩٧٢ إلى أكتوبر سنة ١٩٧٢ مبعاد الانتخابات في أمريكا . . .

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين في نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد انتخاب الرئيس الأمريكى فإذا لم يسكن هناك طريق إلى الحل السلمى استطعنا أن نتحرك عسكرياً . . . واضوا على هذا وعدت إلى مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتى في مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفاق بين موسكو وواشنطن يفسول بالاسترخاء العسكرى في الشرق الأوسط .

وكان صلصة عنيقة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكرياً بغير خضوة ومعنى الاسترخاء العسكرى في هذا الوضع هو التسليم من جانب إسرائيل . . .

ثم جازى التحليل السوفيتى بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخراً أكثر من شهر . . . في ٦ يوليو سنة ١٩٧٢ . . . وكان التحليل السوفيتى يوضح أنه لم يحدث أى تقدم بالنسبة لتفضية الشرق الأوسط مع أمريكا . . . تماماً كما تنبأت لهم في يناير في موسكو في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات في أمريكا . . .

والأعرب من هذا أن التحليل السوفيتى الذى حملته لى السفير السوفيتى متأخراً شهراً عما اتفقا عليه في لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن إمكانية الأسلحة المطلوبة كما اتفقا . . .

بل إنه هذا التحليل الذى كان يقع في أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض . . . كذا الأسلحة المطلوبة كما تنبأت لهم في يناير سنة ١٩٧٢ . . . بل لم يسلطوا مجهوداً خارجياً في إقناع نيكسون بتنفيذ قرار ٢٤٢ مجلس الأمن .

قلت للسفير السوفيتى : هل هذه هى الرسالة . . . قال نعم . . . قلت لقد كنت معنا في موسكو في إبريل الماضى وسمعت اتفاقاً بإرسال الأسلحة قبل موعد الانتخابات الأمريكية . . . قال نعم . . . قلت إن هذه الرسالة لم ترد على ذلك . قال إن هذه هى الرسالة التي تلقيناها . . .

قلت إننى لا أقبليها . . . بل وأرفض أسلوب القادة السوفيت في التعامل معا . . . أرحسو أن تلخ القادة السوفيت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية .

١ - إننى أرفض هذه الرسالة التي أبلغتها لى من القادة السوفيت شكلاً وموضوعاً ولا أقبليها وأرفض هذا الأسلوب في التعامل . . .

٢ - إننى أقرر الاستثناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفيت (وهم حوالى ١٥,٠٠٠) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفيتى في فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحرية غداً بهذا الأمر . . .

٣ - هناك معدات سوفيتية وهى أربع طائرات ميج ٢٥ وهناك محطة للحرب الإلكترونية ويعمل عليها طاقم سوفيتى فلما أن نبيعوها لنا أو تسحوها إلى الاتحاد السوفيتى .

٤ - كل هذا لا بد أن يتم في بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفيتى واعتقد أنها عملية إبرز BLACKMAIL في اليوم التالى استدعيت وزير الحرية وأبلغته بقراراتى ليفلها ، وفي يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتى قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الإتحاد السوفيتى منا طبعاً ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أنى قد بنيت استراتيجيتى على أساس أن لا أبداً المعركة وعلى أرض مصر خبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا في النهاية إلى قرار خاطيء أفادنى كما توقعت في استراتيجيتى . وهو أننى قد استقر رأيى على أن لا أدخل المعركة . . . وقد أسعدنى هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود

أو يرحلوه . وفي الأيام الأولى لم يزل الخبراء السوفيت ، أن السوفيت
تأخروا ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت
رايا ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت
رايا ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت

وفي ذلك الوقت عن
والأمر بالرحيل ، والمعدات التي يعمل عليها خبراء سوفيت
سوفيت ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت

من أهم الأمور التي أوردت أن أصعب السوفيت في حجمهم
سوفيت ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت
سوفيت ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت
سوفيت ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت

سوفيت ، بل كانوا يفترون أن لم يرحلوا ، بل كانوا يفترون أن السوفيت

الفصل التاسع

حرب أكتوبر

١

لم أذهب إلى الإسكندرية كما كانت عادي في كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧
إلى سنة ٧٢ ، ولكنني بعد أن اتخذت قرار إخراجه الخبراء السوفيت أحست
بشيء من الراحة فقلت أذهب إلى الإسكندرية للاستجمام وأصرت أمراً
إلى مكنتي بأنه إذا حاول السوفيت الاتصال بي أن يقولوا لهم إنني في المصيف
بالإسكندرية كما اعتاد السوفيت أن يقولوا لنا إن قادتهم في القرم ولذلك فلا
وسيلة للاتصال .

وبمجرد وصولي إلى الإسكندرية بدأت الإعدادات للمعركة رغم أن العالم كله
بما فيه مصر فسروا طردى الخبراء السوفيت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت
حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التي
اتخذتها لابد أن تتصل بنا وعليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم ، كما استدعيت
وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اليوم التالي
ويخاطبه بأنني قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم
١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، استدعيت بعد ذلك سيد مرعي وكان وقتها أمين
الاتحاد الاشتراكي وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الاتحاد الاشتراكي ويبلغهم أن
معنى هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس ، وطلبت من
ممدوح سالم وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ومسئولاً عن الدفاع
المدني أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها .

قبل أن ينقضى أسبوع على وجودي بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب
تدبير لقاء على أي مستوى فاتفقنا على أن يلتقي بحافظ إسماعيل في سبتمبر أو أكتوبر
من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا في فبراير سنة ١٩٧٣ .

وفي أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافي فجأة حل العالم بما يسمى الوحدة الإنتماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا في ذلك التاريخ فذهبت إلى ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمماً على هذه الوحدة بل وقطع شوطاً كبيراً في تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتلفزيون دون أن يتصل بي على الإطلاق . . وفوجئت بعد وصولي إلى بنى غازي بأنه قد أعد مشروع الوحدة الإنتماجية ولم أكن متحمساً للسرعة التي أراد بها القذافي أن يتم هذا الموضوع ولكنني في النهاية أكرت أن أعطى مرقف القذافي كطالب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت على اجتماع وفدين لمناقشة هذا الموضوع . . كان المشروع قد أعده القذافي وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضى بأن أتولى رئاسة الدولة الجديدة التي ستكون من مصر وليبيا وأن القذافي سيتولى منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة . . وقد أوضحت للقذافي وزملائه أنني لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على تعيين القذافي لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لما تجرته في هذا انتهت بالفشل عندما يتولى من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١٩٥٦ ثم في حرب اليمن وأخيراً في معركة ١٩٦٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترقة وأن لا تتدخل في السياسة . . ولم يعترض القذافي . . والسبب الثاني لإعتراضي كان أن إتمام وحدة كاملة في هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية لشعب الليبي لا داعي لأن يتحملها وسنكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحى وهو أن تسير هذه الوحدة بالتدرج . . وعدت إلى مصر .

وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتي ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية في تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفاً كاملاً لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتي . . في هذه الرسالة أعلنهم أنني أمنحهم فرصة إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملاً بيننا وبين السوفييت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حراً في اتخاذ ما أرى من قرارات ولكنني كنت في واد والسوفييت في واد آخر ، فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جامعات المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية - وهو صادر طبعاً عن موسكو - عن كيفية تحريك العملاء داخل الجامعة .)

كان المقروض أن يقدم لي وزير الحربية تقريراً عن الخطة والهيكل العام لها فقد كافته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض . . بل به عاذ لي بعد . . من وقت به جمع المجلس الأعلى وأسعهم دسالى ومن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس في ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ١٩٧٢ . .

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرياسة الجمهورية الأمريكية ستتم في الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطى الرئيس المنتخب فرصة محاولة حل المشكلة سلمياً فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن نكون جاهزين للتحرك عسكرياً . . من أجل ذلك فإني دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستئني من استعداد القوات المسلحة وطلبت أن يدلى القادة لي بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقرب من نوفمبر ١٩٧٢ الذي حددته مع وزير الحربية . . وحينما ذكرت القادة برسالتى التي كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم في الصيف . . فوجئت بالجنرال نوال المسئول عن الشؤون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : أنا لم أسمع أى رسالة من قبل وأريد أن أسأل ما هى هذه الرسالة إلى سيادتك بعثتها لما ؟ أنا ما عندى فكرة عن أى رسالة جت من سيادتكم . . نظرت إلى وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة : إزاي ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا في الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة في ١٥ نوفمبر ؟ ألم تعدد إلى بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإتهم سيكونون مستعدين اعتباراً من أول نوفمبر : . أى قبل الميعاد الذى حددته ؟ فهمس في أذنى وأنا ما رضىتشى يا أفندم أقول للكل . . أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية . .

سرية ؟ سرية على الناس الذين سيحاربون ؟ وضع غريب . . قلت في نفسى . . إزاي يقدر قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذى سأل هذا السؤال كان هو المسئول عن الشؤون الإدارية التى عليها أن ترعى الجيوش بإمدادها بالطعام والماء والسلاح والبنزين . . الخ . . وبدونها لن تتمكن أى وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية . .

هذه تأكيدت عندى الشكوك التى كنت أحسب إزاء وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش . . سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : - أنت حالك إيه ؟ قال لى : - يا أفندم احنا مكشوفين . . وأى حشد حتمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى . . ليه ؟ لأن اليهود مقيمين سائر ترابى ارتفاعه ١٧ متر على جانب القناة وإحنا تحت هذا المستوى . . حوالى ٣ أمتار فقط . . وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا السائر الكبرونات وأشياء لا قبل لهم بها .

ما معنى هذا الذى أسمعه ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى استلمتها من عبد الناصر قد انهارت . . فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى وذهبنا سوياً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفيت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأماي يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكرى الذى تسلمته من عبد الناصر . . خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزى وهو وزير الحربية دائم المحافظة على الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود متراً ارتفعنا نحن متراً ونصف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد واسمه صادق النقى ما كان يفعله سلفه فوزى فلم يرتفع متراً واحداً . . وهكذا وصل اليهود إلى ١٧ متر وظللنا نحن ٣ أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثانى (وهو الآن عافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت لهم : « آسف - أنا جاي النهارده وفاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أى خطة نضعها . . أقوم ألقى الخطة الدفاعية منارة ؟ لى نهم واحنا مش جاهزين حتى دفاعياً . . عاوزنا نكرر هزيمة ١٩٦٧ »

أنهت الاجتماع وخرجت وقد استغر رأبى على تغيير وزير الحربية المتخاذل الذى كذب على ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذى كان مديراً للمخابرات فى ذلك الوقت وهو الذى أنشأ أول خط دفاعى فى سنة ١٩٦٧ من بور سعيد

للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائداً عاماً للقوات المسلحة على أن يأتى فى اليوم التالى لحلف الجيش كوزير للحربة ، وفى نفس الوقت أرسلت سكرتيرى الخاص إلى وزير الحربية المتخاذل ليلفقه أنى قبلت استقالته . . وأعطيت أوامرى لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولى القيادة إلى أن يحلف الجنرال أحمد إسماعيل الجيش فلم يكن فى إمكانى أن أترك أى فراغ فى القوات المسلحة مهما كان بسيطاً ولو للحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعد أن سلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادتها إلى ما كانت عليه فإذا كان السائر الترابى لليهود ١٧ متراً فلا بد أن نكون نحن ٢٠ متراً واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعى بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ . . كيف تتكرر مأساة سنة ١٩٦٧ ؟ ثم إن القوات المسلحة هى أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أى تحرك من جانب إسرائيل فكيف ترد عليه ؟ واستمر حالى هكذا . . هواجس وقلق إلى أن جاءنى الجنرال أحمد إسماعيل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه فى ٣٠ أكتوبر ليلفقه أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة . . وأنه يصدد لإعداد تجهيزات الهجوم .

فى أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسى للخطة وقد قام بشيء لم يحدث فى العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط على امتداد القناة أن يتسلى السائر الترابى الذى أصبح ٢٠ متراً - وينظر أمامه على امتداد ١٠ كيلو داخل سيناء وأن يحدد على الأرض خطته التى يستطيع أن ينفذها بعد العبور . . مما أعطى للضباط ثقة فى أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط فى العمل بل وفى التخطيط أيضاً .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعتها القوات المسلحة بأجمعها على كل المستويات .

نعود للإتحاد السوفيتي مرة أخرى . . . في أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد في موسكو وعاد منها إلى القاهرة ليلغني أن السوفيت قد حددوا ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم في موسكو وبين وفد مصري يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعاً تنفيذاً لما قلته في خطابي للقادة السوفيت في ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وقد من عندي برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقي . . . وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهبة إثر القرارات التي أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعتهم في وضع صعب أمام العالم . . . وعاد عزيز صدقي رئيس الوزراء المصري بلا شيء . . . مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتي اتفاقية للتسهيلات البحرية في البحر الأبيض كن عد الناصر قد وافق عليها سنة ١٩٦٨ لمدة خمس سنوات وكان الباقي منها إلى ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل في ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعي السفير الروسي في القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الاتفاقية لمدة ٥ سنوات أخرى تنتهي في سنة ١٩٧٨ وكان هدفي من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفيت فإنني لا أرغب في مقاطعتهم . . .

ذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي والجنرال أحمد إسماعيل وزير الحربية في نفس الوقت : الأولى هي لقاء مستشار الأمن القومي المصري بكسينجر في باريس والثانية هي ذهاب الجنرال أحمد إسماعيل في أواخر فبراير إلى موسكو . . . وكان قد مضى أكثر من ثمانية شهور على صدور وتنفيذ قرار إخراج الخبراء السوفيت . . . وكان قد ثبت للسوفيت أنني لم أنصل بأمريكا قبل هذا القرار كما قررت مراراً وثبت أيضاً أنني كما قلت وكررت ألزم بالجانب الحق في معاملتي مع الأعداء والأصدقاء . . . ولقد عقد السوفيت مع أحمد إسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبين . . . ولأول مرة في تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة في زمن قياسي على غير عادتهم وقد توقف السوفيت بعد ذلك عن إتمام الجزء الباقي منها باستثناء بعض

المواد التي أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلننا عن ذلك . . . وأريد أن أقرر هنا أنه حتى بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطاً كله مبنياً على ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفيتي في ١٩٧٦ قرر السوفيت إعلاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولتي الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التقى حافظ إسماعيل بكسينجر في باريس في فبراير ٧٣ ولكن لا شيء جديد . . . وكما كنت أقول دائماً لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوى أن تتحرك ما لم تتحرك نحن عسكرياً وكان ملخص ما قاله كسينجر لحافظ إسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة . . . كان لابد أن أعد للمعركة على المستوى العربي وهذا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوى من البشر تدبر أمورهم وتسيرها حسبما ترى وفي ظروف معينة لا سلطان لنا عليها . . . ولذلك فنحن العثم أن نقول في أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذاك لأننا في الواقع لم نصنع شيئاً . . . وهذا ما ينطبق على إعدادي للمعركة على المستوى العربي . . . فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا في الإعداد أو في التفكير فيه .

في الكويت يعتبرني آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لي صلة بعدد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو في ذلك الوقت من عام ١٩٥٥ وزير داخلية ووزير الدفاع وولي عهد الكويت ولطرف تاريخي أرادته الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولي عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين تبادل الرسائل .

وفي السعودية كان الملك فيصل صديقاً شخصياً لي منذ واحد وعشرين عاماً وبالذات منذ المؤتمر الإسلامي في سنة ١٩٥٥ وكان وقتها ولي العهد وبرغم حرب اليمن ظللنا أصدقاء لأن معنى الصداقة عنده وعندى واحد .

وفي لبنان كان شقيق سليمان فرنجية . . . حميد فرنجية . . . صديقاً شخصياً لي . . . وفي المغرب ترجع صلاتي بالملك الحسن الثاني إلى عام ١٩٦٩ حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامي يعقد من أجل حرق المسجد الأقصى

وهناك توطدت علاقات أخوة وصداقة بيني وبين الحسن وبلغني أن الملك فيصل قال لملك الحسن : « إذا أراد الله لمصر خيراً يحكمها أمور السادات » . وقد عرف على أثناء المؤتمر أني واضح وصريح ولا انحاز إلا للحق .

بالنسبة للجزائر كان يومئذ يحمل في نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق من بلاد

و. تومس نفس الشيء فالحبيب يورقية ظالماً اختلف مع عبد الناصر لأنه صور يورقية على أنه حائل يدفع نفسه لمن يدفع .

هكذا أراد الله أن أكون على علاقة شخصية مع زعماء العالم العربي ولذلك عندما تولى رجواي حياً وأبدوا استعدادهم لمعاونتي . فأعلنت سياستي الواضحة وهي أنه بالنسبة للعرب مصر لا تفرق بين دولة عربية وأخرى على أساس ما يسمونه بالرحبة والفتنة أو الملكية والجمهورية . الأمر الوحيد الذي يجب أن يلزم به جميعاً هو أننا عرب محجب .

ثم على بعد ذلك أن أشته للوضع الإفريقي ، فذهبت في مايو سنة ١٩٧٣ إلى مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي بعثت كتل من في أديس أبابا وأقول مرة اتخذ مؤتمر قراراً واضحاً بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠٪ من الدول الإفريقية علاقاتها معها مع إسرائيل قبل أن تنوم الحركة .

حدث في تلك الفترة أن انحلت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين في قلب بيروت فأرسلت للرئيس فرعية أقول إن عليه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن وإلا فسبب أما هذا . فدعا فرعية إلى اجتماع مجلس الأمن وماندت أما دعوته بدعوة أخرى من حدى . واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم ومجلس الأمن نفسه يتاجراً بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط . استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم اتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية ١٤ صوتاً من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذي يعني الفيتو .

لقد كان هذا نقباً للاستراتيجية التي رسمتها بنجهاز الموقف عربياً كما شرحت وإفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في أديس أبابا عام ١٩٧٣ ودولياً بقرار مجلس الأمن الذي أشرت إليه سابقاً ثم في عالم عدم الانحياز الذي اجتمع مؤتمره

هذه التواريخ في ١٩٧٣ عام الحركة كأنها منحة من السماء .

في سبتمبر سنة ١٩٧٣ حضرت مؤتمر دول عدم الانحياز في الجزائر وقلت في خطبتي إنه لا مفر من المعركة لإسرائيل هي التي تريد لنا هذا وضعت أوراق حل المصعدة وأحزنهم بالسليم الذي تطالب به إسرائيل ، وبذلك هبأت دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية في صف

هذا الشكل كان معي أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع في خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر سنة ٧٣ كتب قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة .

— دولياً في مجلس الأمن بقرار بأغلبية ١٤ من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .

— عربياً على مستوى كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها

— إفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في مايو ١٩٧٣

— على مستوى العالم الثالث وعدم الانحياز في مؤتمر الجزائر في سبتمبر ١٩٧٣

٣

في داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصباً على الناحية المصوبة فحسب . فقد أنشأ أكثر من ١٢٧ مليون جنيه على إعداد الدولة للحرب ، إذ كان تخليطلي يقوم على أن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان أرض معركة . كل مصنع . كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقى .

في إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر في زيارة سرية . كان الفريق الجمسى وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة . فاحصر لنا المدكره التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجمسى لأنها سرية . وهي ثلاثة مجموعات من الأيام . المجموعة الأولى في شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية ابتداء من نوفمبر وحتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك .

في هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا في برج العرب وهي عاصمة الصحراء الغربية قلت له : « لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماتي بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟ » . . قال لي : « أنا معاك وداخل وبتجهز نفسك » .

لم أكن أنوي أن أدخل المعركة في مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجي قمت بمحطة في الصحف عندى وفي الدفاع الشعبي فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وى الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت أنا في حالة استرخاء تام . . في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد العمل في إسرائيل هو نفس ما صنعه في مايو فاعلنوا التعبئة العامة . . ولذلك عندما مثل موسى ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك واجتمع فعلاً في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللامسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يومى ٢٨ ، ٢٩ أغسطس واتفقنا على أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو بدء المعركة . . أى يوم (ى) في التعبير العسكري .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف السياسي وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أى قبل المعركة بحوالى ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس الهائى بالمعركة ولكنى طبعاً لم أنصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة في قمة الإنفعال . . فى ٥ يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القطامية وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفى أثناء اجتماعي بهم دق جرس التليفون . . فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد على التليفون بينما واصلت أنا حديثي

مع الطيارين إلى أن انتهت منه فذهبت لأأخذ طائرتي وأمر على الجيشين الثاني والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسرلى أن السفير السوفيتى يطلب موعداً عاجلاً وأنه طلب منه أن يبلغنى برسالة عاجلة وهي أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورنى رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورنى يوم ١١ يونيو ١٩٧٣ . . قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا أستقبله » ، يعلم السوفيت جيداً أنى لا أحب بودجورنى والسبب أنه كان أثناء زيارة له تركباً قد سب العرب والعسكري العربى وقال إنهم لن يعطوا العرب أبداً أى أسلحة متقدمة لأنهم يتركون الإسرائيليين يستولون عليها . . أرسلت في وقتها أطلب تفسيراً لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أى تكذيب . . ثم إن بودجورنى هذا من أكثر الناس كرهاً لمصر . . حتى في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية على مائدة الكرملين كانت تعليقاته دائماً تسيء إلى مصر . . فكيف أستقبله على أرض مصر ؟ .

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلى أماكن العبور على خط الدفاع الذى كان يتكون من عدة أهرامات على مسافات متقاربة بين السويس وبور سعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل . . ولذلك استطعت أن أرى من فوقها سيناء كما أرى كيف يدى . . وقعت أمام القنطرة شرق وجاءنى القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لى العملية . كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقاط التى يجب أن تستولى عليها في الساعات الأولى للحرب لأنها تمثل شيئاً هاماً جداً بالنسبة لإسرائيل فهى تسمى سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة ١٩٦٧ قد خطب في طلبه الجماعات في إسرائيل وقال : « لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلى القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها » .

فكان هذا من الأسباب الأولى التى جعلتنى أهتم بالقنطرة . . لأن الأمل كان دائماً براودنى في أن أرد على ديان وأقول له : « انتهى حلمك إلى الأبد » .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلى الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقلت له : « لما

توضعا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات الى حترج تسترجع
القطرة شرق . .

كل هذه الصور مرت في وأنا أقف على إحدى مواقع الهجوم وأنطلع إلى
القطرة شرق وهي بين يدي إسرائيل صامتا لا أنفوه بكلمة . . كنت فقط أتأمل
وأفكر . . لم أكن قد رأيت القطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حينما
عدت إلى الجيش سنة ١٩٥٠ . . مر بي هذا الخاطر . . فزاد صمتي ولكن
مشاعري كانت تجيش في صدري تدمه وتعذبه وفي نفس الوقت تفسيه بنور
الأمل . . قال لي أحمد اساعيل القائد العام تعليقا على موقفي أمام القطرة أثناء عودتنا
إلى القاهرة : « يا أفندم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالي إحساس أنك
حتدني أمر بيده الهجوم فوراً » .

حينما بدأت أفكر في وضع التخطيط الاستراتيجي للمعركة كان أمامي عدة أشياء
أولها الأساس الاستراتيجي الذي أبني عليه الخطة . . وفي حياة عبد الناصر كنت
أقول له على سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتى عشرة ستمترات في سيناء ووقفنا
فيها لم تنسحب فسوف يتغير الموقف شرقاً وغرباً وكل شيء . . وخاصة المهانة التي
كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ فهذا العبور إلى سيناء والصمود بها سيعيد
إلينا ثقتنا بأنفسنا . . هذا إلى جانب أننا ستكون قد انتهينا من أكبر عائق مائي في
تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضاً الساتر الترابي
الذي يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً .

وبناء على هذا وضعت توجيهي الاستراتيجي فقلت للقوات المسلحة في أواخر
فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذي يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى سوف يكسب
الحرب كلها . . ولذلك فلا بد من أن يعتمد الأداء والخطة على عمل من شأنه أن
نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى .

من ضمن الخداع الاستراتيجي الذي قف به أنه كان في زيارتي وزير خارجية
دولة أجنبية فقلت له وكنا في سبتمبر ١٩٧٣ : « بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه
ما يظلمش السرد به إني ذاهب إلى الأمم المتحدة في أكتوبر القادم . . بس مش
عاوز أعلن هذا » . . كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل لإسرائيل . .
وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أني غير مقدم على الحرب .

في يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وهو يوافق ذكرى وفاة عبد الناصر أردت أن
أضع اللمسة الأخيرة للشعب . . وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدداً
من الصحفيين أو على الأصح نقلتهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات لأنهم
كانوا يساعدون على إيجاد حالة تمزق وبلبلة في البلد واشترك البعض منهم في أحداث
الطلبة التي وقعت في أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الإسرائيليين . .
كان هؤلاء الصحفيين مقالات وتصرفات تهدف كلها إلى إشعال النار بين
الطلبة . . في خطابي يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ أعلنت أني قد عفوت
عفواً تاماً عن الطلبة والصحفيين . . حتى القضايا التي كان الطلبة متهمين فيها -
وكلهم من اليساريين - أسقطتها جميعاً وكأنها لم تكن . . تلقف اليساريون هذا
وفسروه على أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم
على بال أن هذا كان جزءاً من تخطيطي للمعركة . .

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكنني صفيتها . .

وفي يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومي وطلبت
من الأعضاء إبداء رأيهم في الوضع الذي كنا فيه وتناقشنا طويلاً . . طالب البعض
بالمعركة وتردد البعض الآخر . . قال وزير التموين إن التموين الموجود
لا يكفي معركة طويلة . . وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد
والتحرك . . قلت لهم : « كل واحد منكم قال كلمته . . طيب أنا عايز أقول
لكم إن اقتصادنا النهارده في مرحلة الصفر وعليها التزامات إلى آخر السنة
لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . . وعندما تأتي سنة ١٩٧٤ بعد شهرين
لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين . . ولا أستطيع أن أطلب من أي عربي
دولاراً واحداً لأن العرب يقولوا لنا أحنا بتدفع الدعم بتاع قناة السويس وخلاص
ولا فيه حرب ولا فيه حاجة » .

هكذا أعلمت المسؤولين عندي بالموقف ثم أنهيت الاجتماع . .

وفي اليوم التالي أى أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره في هذه الخطة . . . وقبل أن ينتهى الاجتماع قلت لهم : كل واحد يكون جاهز في أى لحظة لصدور الأمر . . .

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك في سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجي للقائد العام ووضعت فيه تصوري للهدف الاستراتيجي وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديث . . .

بدأ العد التنازلي قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها في الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقلقة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تتلقى كلمة شفرة محددة وعندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها .

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضاً فالجرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب . . بل يجب التدريب على كل شيء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقت زادت فرص النجاح . . كان العد التنازلي للتدريب قد انتهى في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ . . وكان تدريب آخر لواء من اللوحدات المشتركة في العمليات على الواجب الذي سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفي يوم الأربعاء ٧ رمضان الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ - حسب اتفاق مع الرئيس حافظ الأسد في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ - استدعيت السفير الروسي وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أنني أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندى سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفيت بصفة عاجلة وهو ما موقف الاتحاد السوفيتي منا ؟ » سألتني عن الموعد فقلت له : « إننا لم نتفق عليه بعد . . . »

كنت قد اتفقت مع الأسد على أن يستدعي السفير السوفيتي عنده في اليوم التالي وهو الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويمنه بالموعد لأن علاقتي بالسوفيت كانت سيئة .

في اليوم التالي ٨ رمضان أى الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفيتي موعداً عاجلاً معي فتصورت أنه جاءني بالرد على سؤال . . . استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معي رسالة عاجلة من القيادة السوفيتية - إنهم في موسكو يطلبون موافقتك على وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفيتية من مصر . . . »

وهذه العائلات السوفيتية هي عائلات المدنيين السوفيت الذين يعملون في المصانع والقطاع المدني لأن العسكريين السوفيت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفيت من البلاد . . ومضى السفير قائلاً إن القادة السوفيت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكري حتى لا يراها الناس في المطار الدولي وأن هذه الطائرات ستصل غداً صباحاً أى الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

ما هذا القائل السيء ؟ قلت في نفسي : هذا معناه أنهم يقولون لي مقدماً إن معركتك فاشلة ونحن نخاف على أرواح رعايانا . . وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أنني أخاف عليهم ؟ . .

قلت للسفير السوفيتي وما زالت الدهشة من تصرف السوفيت تعقد لساني : « أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقتي . . ولكن أين الإجابة على سؤال ؟ » قال لي : « هذه هي الرسالة الوحيدة التي كلفتني موسكو بإبلاغها لكم »

وفعلاً في اليوم التالي وكان يوم الجمعة ٩ رمضان الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات تقل ضخمة سوفيتية وحملت الرعايا السوفيت من عائلات الخبراء المدنيين في المصانع من السوفيت عائدة بهم إلى بلادهم . . .

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلى مصر وكذلك إلى سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا في نفس التوقيت . . .

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر . . .

بهذه القوات . . . لقد استعاد سلاح الطيران المصرى بهذه الضربة الأولى كل ما فقدناه فى حربى ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقيق ذلك النصر الذى أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة فى نفسها وثقة العالم بنا . . . وأتى إلى الأبد خرافة إسرائيل التى لا تهزم . . . لقد كان قائد سلاح الطيران المصرى فى هذه المعركة الجنرال حسنى مبارك الذى طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملابسه العسكرية ليرتدى الملابس المدنية لى يعاوننى فى عملى ككتائب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعية المصرية ترمجر بأكبر تركيز شهده العالم بعد معركة العلمين فى الحرب الثانية إذ انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتقصف بدقة رائعة أهدافها . . . وهكذا بدأت ملحمة ٦ أكتوبر والأداء الرائع للجندى المصرى العربى إذ لم ينتظر جنودنا على القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم فى وقت واحد كافياً لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأدخلوا يسجون زوارقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر وفى حالة هستيرية اندفعوا بعبور القناة وهم يصرخون « الله أكبر » .

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مرة يغير التخطيط العسكرى المصرى تلك المفاهيم التى كانت ثابتة إلى معركة أكتوبر ١٩٧٣ . . . كانت القاعدة ألا يتصدى للمدركات إلا المدرعات . . . وقد تعلمنا كما تعلم العسكريون فى العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تدخل فى أية معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكرى (SOFT) ولكن فى حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدرية فى الأفواج الأولى وهم يحملون الصواريخ فى أيديهم وواجهوا الدبابات الإسرائيلية فى معركة مريرة وضمروا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخل معركة الدبابات .

كان فى الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت وتحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذى حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية . . . وبعد العبور دخل جنودنا على الحاجز الترابى الذى كان فى

بعض مواقعه يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً واستخدموا فى تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم - فى عبارة عن سلم من الحبال يحمله الجندى ثم يتسلق الحاجز الترابى وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون على المواقع التى أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابى على الضفة الشرقية ليربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أرى هذا المشهد من غرفة القيادة هادىء البال حتى خيل لى أنه لودخل أى إنسان نفسى لوجد بها طمأنينة كاملة . . . لم يكن فى خاطرى أى هم فكل المجهود قد انقشعت وانتهت تماماً

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصرى على الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط القنط الحصينة فى خط بارليف الواحدة بعد الأخرى وفى نهاية ست ساعات فقط كان قد انتزع تماماً أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شىء فى العسكرية من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولى من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات واحتلالها للمواقع التى أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون فى تطبيق نظرية شق الحاجز الترابى بخراطيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية ١٠٠٪ فسلح المهندسين هو الذى قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالى سخروا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق فى العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة ؟ » . . . من قوة دفع الماء قطع الساتر الرملى كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات فى هذا الساتر الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً حيث ركبت فيها الكبارى . وعبرت الدبابات .

فى المساء كان كل شىء قد تم قبل موعده حسب الخطة . . . أما بالنسبة للموقف على الجبهة صباح ٦ أكتوبر فإن القادة المحليين قاموا بخدعة لطيفة وهى أنهم جعلوا الجنود يجلسون على ضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر فى تراخ وكأنهم فى إجازة . . . أما الخداع التكتيكى الأساسى الذى أجبر إسرائيل على احترام الجندى المصرى إلى الأبد فهو النزول بخمس فرق كاملة على خط المواجهة الذى كان طوله ١٨٠ كيلو متراً .

١ - الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التي أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقاً صغيراً يمكن أن يصيب أكبر القطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفضل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمدايع والصواريخ هي إبلات . .

٢ - أن أول حرب إلكترونية وصاروخية وقعت في معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل قتلها إلى جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدى إسرائيل في هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة جعلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً لما لدى العرب من روسيا بأشواط طويلة .

٣ - أن معارك الدبابات أصبحت في عصر الصواريخ والحرب الإلكترونية معارك رهية تعتمد على أعداد رهية من الدبابات لم يشهد لها العالم مثيلاً في حروب الحرب الثانية كانت معركة كورسك في روسيا للدبابات هي أكبر معركة شهدها العالم . . وفي معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استمرت ١٧ يوماً فقط فقد الخاضعون ثلاثة آلاف دبابة أي أن القوات التي دخلت المعركة في حرب أكتوبر كانت أكثر من حصة آلاف دبابة في الوقت الذي اعتبرت فيه معركة كورسك الروسية التي أشترك فيها ٥٠٠ دبابة أكبر معركة دبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سعة عشر يوماً كما حدث في حرب أكتوبر . .



في يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أي بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظوني من النوم في المحر وقلوا لي إن السفير البريطاني يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا « هيث » . . استقبلته في الصالون المجاور لحجرة نومي فأعطاني رسالة من كيسنجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقتنا لا تزال مقطوعة بأمريكا - وكان كيسنجر في رسالته يطلب من « هيث » أن يتأكد أنني موافق على وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا . . وكان كيسنجر قد أفاق منذ اليوم الرابع للحرب ونداء SAVE ISRAEL الذي وصله في اليوم

الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولى أنهم يطحنون عظام المصريين وسابرتهم إذاعات العالم - أقول أفاق كيسنجر الذي لم يكن لديه أدنى شك في طعن عظامنا على نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل الأربعينات دبابة بصفة عاجلة وهي مجموع ما خسرت على الجبهة المصرية . .

التاريخ أي اليوم الرابع وتقرير من البتاجون يقول إن المعركة على الجبهة المصرية تسير في غير صالح إسرائيل ولا بد أنه وصله أيضاً بكاء ديان على الجبهة المصرية أمام جميع مراسل الصحف العالمية وأنهياره وقوله إن الإسرائيليين

يستطيعوا أن يوحزحوا المصريين بوصة واحدة وأن الطريق مفتوح إلى تل أبيب . . كان كيسنجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل على وقف إطلاق النار مع السوفيت فبدأ أولاً بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلى الخطوط التي بدأ منها القتال على أساس أن الإسرائيليين كانوا يطحنون عظامنا . ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البتاجون إلى وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة بالفعل يوم ١٣ أكتوبر ورفضاً العرضين .

ولكن حيناً أخبره السوفيت أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية للقتال يوم ١٣ أكتوبر سعد جداً واتصل بوفد أمريكا في الأمم المتحدة للإعداد في مجلس الأمن وأراد أن يستوثق مني فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء إنجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومي المصري الذي قابله في باريس أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغتها رسمياً للولايات المتحدة وهي أن الاتحاد السوفيتي لا يملك أن يتحدث باسم مصر . . لذلك صدم كيسنجر حيناً أبلغه هيث ردى على الرسالة وكان « بلغ كيسنجر أن هذا لم يحدث فأنما لم أوافق على وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو . . ثم إنني لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضمنها الخطة » .

سألني السفير الإنجليزي : - « هل صحيح أنكم تصرون على قتل البحر الأحمر ؟ » .

قلت له : فعلاً

قال : طيب . . ما هي الشروط ؟

قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار في حالة موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية .

قلت له: - «آسف . . القاهرة لن تهتد أبداً . . ولكن أين الدبابات التي طلبتها منكم . . أين ؟» .

9

اتضح لي بعد ذلك أن القمر الصناعي الأمريكي الذي كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL! أخطروهم بفيل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط على سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد وأن البتاجون قد نصّح الإسرائيليين بمحاوله عمل التفرة لإنقاذ الموقف الإسرائيلي المتأرجح على جبهة سيناء . . . وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلي أثناء حرب أكتوبر لبدافع عن نفسه في مذكرات نشرها ليبري، نفسه بعد أن أدانه تقرير لجنة أبحاث أن جولدا مائير قالت لهم بعد وصول معلومات القمر الصناعي الأمريكي افعلوا أي شيء ف نحن على الجبهة المصرية قد وصلنا إلى الحضيض BOTTOM وليس هناك أمل في النصر العسكري الأمريكي يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر ها للتاريخ أن روسيا التي تدعى وفوها مع الحق العربي ، شعبا شجاعا أسبقه أقاربا السادة الإسرائيليين الذين هم يجرؤون على تحديها على خطية وقد أطلق إسرائيل أحدهم ، هبة رغبة صالحة على ساعة الصبح كما قبل صديقا . . . هذا التحليل سحره حرمس في عصره . . . للاخبار اسمه مربي ومطلب منه . . . فيه فلم أتأخر وأنا إلى يوم وإلى أي حد . . .

والقمر الصناعي الأمريكي والبتاجون كانوا يؤامرون إسرائيل بالموقف ساعة

وروح الغير من على لبث كينجور بالموقف . . بعدها مباشرة وصلني خبر من الاتحاد السوفيتي بأن رئيس الوزراء كوسيجين سيحضر لزيارتي -
فكنت أهلاً وسهلاً .
وبعد ترحيبه والقبول . كان مطلبه الأساسي وقف إطلاق النار على
خطوط الحالية . قلت له : - أنا من مستعد أكرر هدنة سنة ١٩٤٨ التي
في السنة ان حاربنا للحرب .

قال له : - تعالى بنى نسترعش الكلام الى أت بتقوله - الكباري الى انت
الكويرى الواحد منها يحتاج لحمس .
ساعت بركيت وهى كبرى الحوب العالمية الثانية فى الوقت الذى عندك كويرى
H.M.I سوك فى نصف ساعة . كل المعدات التى أعطينها لى متأخرة .
بورك فى الساعة الأولى من الصباح الباكر معسكرى أنا مصر -
الذى كان يخطط له أن يكون فى القاهرة ، ولكن لم يتم ذلك .
قال لى :- يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أنصوّر أنك بهذا الانفعال .
وانسى اللقاء الأول - ولكن فى فترة الأربعة أيام التى قضّاها بمصر كان يقضى
اليوم كله فى السفاوة السوفينية وبقائلى فى المساء .
وأثناء وجوده فى مصر حدثت الثورة فجأئى وعلى وجهه علامات التشقى
وقال :- لقد حدثت الثورة وموقفكم خلاص إحد .. القاهرة أصبحت مهددة .

١٠

بعد ساعة دون أن تطلب ذلك .. وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكي كما قلت أن المعركة على الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلى تل أبيب .. ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبري الجوي الأمريكي لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التي تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة SOPHISTICATED والعريش مدينة مصرية وهي عاصمة سيناء .. تقع خلف الجبهة مباشرة .. وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر .. في معارك الدبابات التي اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين في إدارتها (وخاصة بعد أن أفينا الدبابات التي كان يقودها متدبر قائد الدبابات الإسرائيلي الذي كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أرى مزيداً من الدبابات .

أمريكا .. لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور في اليوم الرابع .. وهي تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصري الذي يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكي تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار .. وتذكرت في تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .. ثم على الجبهة اليابانية .. لقد كانت أمريكا تغير على الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة في الغارة الواحدة لكي تلقن الألمان درساً لا يمكن أن ينسوه .. وأغاروا على نجازاكي و هيروشيما على الجبهة اليابانية لكي تلقنهم أيضاً درساً لن ينسوه ..

وتطور خطير ثالث .. فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانثوم الأمريكية عشرة صواريخ على بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا هوائي بطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تعطل بطاريات الصواريخ المصرية حتى انسحبت ثلاث سلاح جوي إسرائيلي في الأيام الأولى للمعركة مما دعا قيادة الإسرائيلية أن تصدر أمراً إلى الطائرات الإسرائيلية في اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال في سيناء .. أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان على بطارتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطارتين تعطيلاً كاملاً وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكي جديد يسمى القنبلة التليفزيونية ثم تذكره في كتاب حساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار في أمريكا درسناه أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتى بالأسلحة التي تحت الاختبار .. وقنبلة المافريك .. وأسلحة أخرى .. وأنا أعرف إمكاناتي وأعرف حدودي .. لن أحارب أمريكا ..

ولذلك بعد عودتي من غرفة القيادة في الساعة الواحدة والصف من صباح ١٩ / ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكى في القرار برقية أخطره فيها أنني قررت الموافقة على وقف إطلاق النار وحبس في هذه البرقية موقفي وحياتي لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكنني أرفض مواجهة أمريكا .. وأنتى لن أسمح أن تلحق القوات المصرية مرة أخرى .. وأنتى مستعد أن أحاسب أمام شعبي في مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعود إلى القصة .. في يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلى للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها في ذلك اليوم .. فقد كان السباق فيها للزمن .. ولو أنه نقل ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفي التوقيت الذي حددته له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان في إمكانه أن ينتهي من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أصاب اللبنة بأكثر من جمع شعوبت وإنشاء قيادة له يناقش بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلاً إلى نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة ولتوات الحاصنة .. ولكن الشاذلى أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع ليهود في الثغرة

في يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلى منهاراً وقال لا بد أن تسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد .. وكان هذا - لو تم - هو ما يريده الإسرائيليون .. فطلب منى أحمد إسماعيل في منتصف ليلة ٢٠ / ١٩ أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أأخذ قراراً مهما بوصنى القائد الأعلى للقوات المسلحة .. ذهبت إلى القيادة .. واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة وعندنا ١٢٠٠ دبابة في الشرق أيضاً أما في الغرب فمدمرة فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيلية وفي القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهورى الخاص في والدى أدخلته الحرب وقاتل قتالاً مجيداً وعاد كاملاً بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لي جمعت القادة كلهم وكان معي الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجسمي مدير العمليات والفريق حسنى مبارك والفريق محمد على فهمى قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعاً من رأيى وهو أنه لم يحدث شيء يستدعى . . . فأعطيت الأمر الذى اعتبره أهم من قرار ٩ أكتوبر - بأن لا ينسحب جندى واحد ولا بندقية واحدة ولا أى شيء على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أنصل بنفسى مع الفرقة المدرعة فى الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قايل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقتل له : - ثبث الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشنك معهم إلى أن تصلك الإمدادات .

فى هذه الليلة أعطيت تعليماتى لأحمد اسماعيل بعزل الشاذلى من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين . . . وفى نفس الليلة استدعيت الجسمي وعينته رئيساً للأركان .

١٠

وفى هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار بعد كان فى عشر أيام أحارب فيها أمريكا وحدى بأسلحتها الحديثة التى لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف على غير ما ينصوره العالم كله . . . فقد كان اعتقاد الجميع فى العالم أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الكوبرى الجوى لنجدتنا . . . ولكن الموقف كان غير ذلك فى الواقع . . . فأمريكا وإسرائيل فى مواجهة والاتحاد السوفيتى فى يده الخنجر ويقيم وراء ظهري ليطعننى فى أية لحظة عندما فقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحى كما حدث فى سنة ١٩٦٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضى على دفاعى الجوى بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود مياه مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث فى عام ١٩٦٧ . . .

وقد كان حسنى مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة . . . حتى طائرات التدريب التى فى مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقاوتل . . . وطائرات الميج ١٧ وسرعها أقل من سرعة الصوت استخدمها طيارونا بمهارة شديدة ضد المانوسوم والميراج . . .

وكان هذا فى مجموعه يشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصرى على عكس ما كان الاتحاد السوفيتى ينسوق . . . إذ كان يريد أن يثبت أننى لست كفى للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفيت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتى . . . وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس يومين عندما زار الاتحاد السوفيتى زيارة سرية لم يخطر بها أحداً ونحن فى أوج انتصارنا لبشرى لنا السلاح . . . فى أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وصوف يبيع العرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وإنه أحس . . . فرد عليه يومين وقال : « أنا زبون جاي أشتري منك سلاح . . . اتفضل آدى مائة مليون دولار لمصر ومثلها لسوريا . . . أرسل لهم الأسلحة التى يطلبونها . . . ولما عاد يومين إلى الجزائر جمع مجلس الثورة وحكى لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمريكان وإسرائيل عازمين يهزموا أنور السادات قيراط فالاتحاد السوفيتى عازمين يهزمه ٢٤ قيراط . . . هل يذكر يومين هذا وقد قاله لى شخصياً أم نساء بعد أن أصبح عضواً فى جبهة رفض مبادرتى الأخيرة للسلام ؟

فى يوم ١٩ أكتوبر بعد اجتماعى بالقواد عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت فى الحال تنفيذ قرارى - طلبت منهم أن يستدعوا لى السفير السوفيتى وإلى أن حضر سميت بركة لى الرئيس الأسد قلت فيها إننى قد قلت وقلج يزع دماً وقف إطلاق النار . . . لأنى مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكننى غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا - كما أنى لا أسمع بأن تدمر قواتى المسلحة مرة أخرى أو أن يدمر شعبنا ومنشأته وفى آخر البرقية قلت له إننى مسئول عن هذا القرار يحاسبنى عليه الشعب فى مصر وتحاسبنى عليه أمتنا العربية .

وجاء السفير السوفيتى فقلت له : « لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية . . . فى هذا الوقت كان كيسنجر فى طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثى مع السفير وقتل له :

« الدولتان العظيمتان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ القوى لقرار ٢٤٢ . . .

وفعلا اتفقت الدولتان واجتمع مجلس الأمن وقرر أن يكون وقف إطلاق النار فى الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر ويجب أن تقرر هذا للحقيقة والتاريخ

أن قواتنا قاتلت من ١٩ إلى ٢٢ أكتوبر قتالا رائعا مجيدا وأنا اتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقية في الثغرة أو في ميناء لأنهم بالفعل منبوا بخسائر فادحة على يدي قواتنا الخاصة وقواتنا الجوية . وخاصة في الثغرة في الضفة الغربية ولم يصححوا عن ذلك إلا منذ سنة حينما وصموا الثغرة على الضفة الغربية بأنها كانت « وادي الموت » وهو وصف إسرائيلي . . . وأكرر مرة أخرى إنني اتحدى أن تعلن إسرائيل حقيقة الثغرة ودور شارون . . .

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلى غرفة العمليات وأعطيت الأمر بصرب صواريخ أرض أرض . . . ثنين فقط . . . على الدفوسوار . فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجود عندنا ويمكن أن نستعمله في المرحلة الثانية وكنت إسرائيل قد أدركت منذ بداية الحرب أننا نعتني ما تقول ونفعله . . . أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعد ذلك كان مقتلا لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفوسوار مفتوح من جميع الجهات ونهر . فرصة وقف إطلاق النار (كمعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعلها ساعتين وجهوا هجوما نحو الجنوب تجاه السويس وهجوما آخر تجاه الإسماعيلية . في هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمال عظيمة في الثغرة فبمجرد حلول الليل يحل معه الرعب في قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحدثت أن يعلنوا عن خسائريهم الحقيقية في الثغرة ، ففي الثلاثة أيام الأولى من الحرب خسروا ٤٠٠ دبابة . . . ثنت على خسرها من أمريكا رسميا تعبضا لهم ، ولكنني بعد هذا حدث أممي مثل السويد . . . كما ذكرت . . . أمدتهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر . . .

قامت إسرائيل بالهجوم الذي أشرت إليه بعد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهدف منه أن يوسعوا الثغرة فتحت قواتهم خلف الجيشين الأول والثاني وبذلك يتفحصون خط إمداد الجيشين ويتراجع خط دفاعنا الجوي إلى الخلف فتحصر الجيش التي في المنطقة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس وينقلون سمعهم أمام العالم . . .

ولكن الذي حدث كان عكس هذا - فقد أمرت قادة الجيشين الثاني والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أي تقدم من ناحية الجنوب ولكن قائد الجيش الثالث أحصل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تفتح المنطقة فتصل إلى مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخول السويس على الإطلاق . . . كل الذي استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحوا ثغرة بين الجيشين في الشرق حجمها ٦,٥ كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملة بدباباتها وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أي ظروف . . . أما في الغرب فعندما حاول الإسرائيليون الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفها . . . وكنت قد كتبت ممدوح مالم وكان في ذلك الوقت مسئولاً عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبي . . . فأرسل ١٠٠٠ فرد من قوات الأمن المركزي وهم مدربون على مستوى عال . . . فأنوا بأسلحتهم وعنادهم وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالي لإستقبال الإسرائيليين . . . بعد أن خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بتدالة وفشلت في دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : « اتفضلوا . . . أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندي - أي قوات أمريكا وروسيا - عشان ترجعوا إلى خط ٢٢ أكتوبر أو تتركوني أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبر هذا خرقا لوقف إطلاق النار . . . وكان حرصى في هذا هو أن لا تتدخل أمريكا إلى جانب إسرائيل كما حدث . . .

استجاب السوفييت فقاموا بإحشد قوات للإنزال في البحر الأبيض . . . أما الأمريكان فأعلنوا حالة التعبئة الجوية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حشدهم في حلف الأطلسي . . . وقد كان الرأي العام الأوروبي في سنة ١٩٧٣ معنا ضد إسرائيل على عكس ما كان الحال عليه في ١٩٦٧ . انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما يشوا من السويس والإسماعيلية اكتفوا بالوقوف في الثغرة . . . وبدأت قواتنا في الغرب تضغط عليهم باستمرار . . . ولن أنسى هنا موقف الضابط قايل لأنه وقف يناور بفرقة مدرعة واحدة في مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلى الجنوب

حتى يثبت الإسرائيليون في الجلب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوى حرق اطلاق النار بدلا من الإسرائيليون بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا في الشرق ويضغطان على الثغرة التي تسلل منها الإسرائيليون إلى الغرب وهي ٦,٥ كيلومتر فنتهى في الحال .. ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية في الحرب والسلام على السواء ..

ولكن إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ أى منذ قيامها لا تلتزم بأى قانون أخلاق أو دوى وحاولت أن تضغط علينا نفسياً فشحت قوات كبيرة جداً من أجل تخويفنا وبتقصيد المساومة .. أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة - وقواتي تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق في الشرق وأربع فرق في الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودباباتي التي تحاصرهم حصاراً تاماً - فقد وصلني أول إمداد بالدبابات من يومدين وكان عددها ١٥٠ دبابة ثم وصلني إمداد آخر ١٤٠ دبابة أرسلها الرئيس نيتسو بالخيرة والبزين بحيث نزل من السفينة على أرض المعركة مباشرة .. أما الاتحاد السوفيتي فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التي طلبها ثاني يوم للمعركة ..

وقد حافني السفير السوفيتي ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٥٠ دبابة فشكرته وطلبت منه سرعة إرسالها ولكن السوفيت لم يستجيبوا لمطلبي إلى أن تثبت الوضع بالنسبة للثغرة .. مع أن الثغرة لم تكن في الحقيقة إلا مجرد محاولة لإنفاذ سمعة إسرائيل ..

وقد جاء لزيارتي بعد ذلك الجنرال بوفير وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسي وقال لي : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

١١

طلب كيسنجر أن يزورني وجاء إلى مصر في أول زيارة له في نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لي : - أنت أزميت الموقف دولياً وأنا جاي لك عشان كده لما هي مسألتك ..

قلت له : - أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر .. أنا الآن عندي ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لما في الثغرة ٤٠٠ دبابة وأنا عندي صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم ٦,٥ كيلو مرأ في شرق القناة وإذا أغلقناه .. لهم مقضى عليهم .. مش عاوزة جدال ..

استمرت الجلسة ٣ ساعات اتفقتنا فيها على ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات على الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات على الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة .. وطالت المفاوضات وانعقد خلالها مؤتمر القمة العربي في الجزائر وذهبت إلى هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلى أية نتيجة طست من الجسمى إيقافها وقلت لهم : - أنا غير مستعد للدخول في مساومات ومفاوضات ..

في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الاستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضاً جديدة كل يوم، تارة بالأمطار وتارة بالكيلومترات ولكننا كنا نكسب دائماً .. أنا فعلا كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها .. ولا خط بارليف للقتال معي ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا .. في ١١ ديسمبر جاء كيسنجر وقلت له : - أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به ده وأنا حاصنى الثغرة ..

قال لي : - أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز .. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريراً كاملاً .. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة .. مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلا أن تصنى الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيفربك البنتاجون ..

قلت له : - هذا هو السؤال .. ما هو موقف أمريكا ؟ ..

قال لي : - سيفربك البنتاجون .. سيفربك البنتاجون لسبب واحد .. وهو أن السلاح الروسى قد انتصر على السلاح الأمريكى مرة ولن يسمح له في الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن يتصر للمرة الثانية ..

و من ذئف كيسنجر حديثه قتيلا :- هل تعرف أنه عندما أزممت أنت الموقف
عند وقت التوقيع نعلم هامو لي حظ ٢٢ أكتوبر أو أن تستعده على شرط ألا
تسألنا حول صدقك تعرف الحققة لي وضعها المتاجون في ذلك الوقت كان
شكها إليه ؟ كـ حبرول في بيده سياء ونخلص عليك إد الروس برلوا عندك في
عرب ذلك - عدوين بوريت إن الروس لا يعتمد عليهم فحسبك ضربه نضرب
بها الروس - نفس وضع دلوقت لو أنت حاولت تصني الثمرة سيتدخل
البتاجون ويضربك لأن دي سياسة أمريكا المقررة - ثم إن البتاجون عاوز ينتم
لمزينة أسلحته اللي حصلت في أكتوبر .

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لي : اديني فرصة لغاية يناير ١٩٧٤ وأنا بأوعدهك أنني أعمل لك فض
شبهه .

في هذا اليوم قال لي كيسنجر : إن جنيف مفروض أن تجتمع في ديسمبر
سنة ١٩٧٣ فهل متذهب ؟

قلت له : وأنا داح جنيف .

غادر كيسنجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولى على وصار
بني في نسي من بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاكاً فالأوضاع من
حين كسب حذفت . وإن غير قادر على أن أحسبها لأنه ليس بيدي إصلاحها
فصحت ريف سنة ٤ أيام و مندعيت الأطباء ليجمعوا البول الذي كان قد
صار كخلاص نسيم . . . قال لي الأطباء إن هذا ريف بسبب التوتر النفسي ولكن
لا خطورة منه وأعطوني بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهى والحمد لله .

في يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة لأسلحة وقادة الجيوش وعينت لتصفية
معرفة قائد هر عدل بعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة على
مدى سبع ساعات وصدقت عليها .

في يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادي ذهبت كعادتي كل عام
لكنسبة إلى داني ميب ألكم . وفي ٢٦ سافرت إلى أسوان ثم جاء

كيسنجر في يناير ١٩٧٤ ووقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول - الذي كانت أمريكا
تقوم فيه بدور الوسيط بينا وبين إسرائيل .

كان همي في اتفاق أسوان شيء واحد أساسي .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصاري على الأرض لأنني أعلم أن الإسرائيليين
مسجونين عندي في الثغرة وبقاوتهم في الغرب مقبرة لهم وعلى هذا الأساس بالعمل
وهو تحديد حجم انتصاري على الأرض ثم الإتفاق بيننا .

كنت في حالة نفسية مرهقة . . لماذا ؟ لأن جميع القوى تريد أن تجهض
انتصاري . . أمريكا تريد أن تجهضه . . والاتحاد السوفيتي يريد أن يخفضه لأن
سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت متصراً
مع أني طردت الخبراء السوفيت . . وطبعاً إسرائيل تريد لإجهاض انتصاراتي .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه في حد ذاتها بالشيء الذي يقنض . . فقد
كنت أنظر إلى انتصاري على أنه الطريق إلى السلام العادل الذي كنت أسمى
إليه دائماً . .

قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها . . .
ولكن لا شيء مثل الواقع فهو الذي يلحظ كل اقتراء وهو الذي يعمل الناس تتحول من حال إلى حال . . . ففي ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم مبتلا في الوفود التي تدفقت على الضفة يختلف معي وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه - فهو يوم الافتتاح الثاني لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة . . .

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك . . . ثم أن أمريكا هي شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان . . . مع رئيس مصر في مصره صعباً لأنه لم يكن رئيساً متحناً ثم . . . أمريكا مشغولة بتفحصه وترجيح . . . هم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها ؟

وذلك الذي كان هذا هو العمل لا رد العمل ففتحت القناة رغم أنها كانت تنزع في مدى الساعات الأمريكية الضخمة التي رودت بها إسرائيل . . . بعد مفاوضات من مدة ثلاثة - بوسنيا والإسماعيلية والسويس - . . . ١٠٠ ألف رجل كانوا يعيشون فيه سبب ارتفاع الوادي بل سبب أنهم من هذا بخير قد كانوا يعيشون بلا أمل . . . والأمل أهم مقومات الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون . . .

كتب كريف أن فتح القناة أن مدفع لإسرائيليين تنزع في مداها هي . . . من الثلاثة - وهناك سبب لعدم . . . الثلاثة ولقناة قد أصبحت في عمق الجمهورية . . . سببها من حرب إسرائيل يعتبر عدواً على العمق ولا بد لي في تلك الحالة من الرد في عمق إسرائيل . . .

كانت هذه عملية مقامرة من دون شك . . . فقد كان في الإمكان لا يتسارع إلى قبل بعد ذلك بشهور وتصل فضاء الاشتباك الثاني الذي خرجت . . . من مدينتيه ومدينتيها - ولكني حاولت من أجل السلام وكل شيء جائز

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندى . . . على طريقة اليهود كل شيء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجال على الثمن الذي يستردون به موتاهم . . . قلت لهم : . . . إن هذا عمل إنساني لا تنقاضي عليه ثمناً تعالوا أخذوا قتلاًكم . . . وبكل تكريم عسكري سلمتهم الجثث التسعة والثلاثين بلا مقابل . . . وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط . . .

وفي عام ١٩٧٧ ونحن نعلم مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم . . . لماذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام . . . فلاني أؤمن أنه في سبيل السلام يمكن بل يجب أن يفعل الإنسان أي شيء لأنه لا شيء في الدنيا يساوي السلام . . .

٣

كان لأمريكا دور فعال في إعادة فتح القناة - فقد كانت تقف معي بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذي بفرص منه مرضاً . . . ذلك الوجه الذي شوهته حرب فيتنام . . . ففي عام ١٩٧٤ عندما قلت إنني سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التي تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا في البحرية الأمريكية وليس حتى في الشركات الأمريكية ذات الميزات والإمكانات الفنية العملاقة . . . قلت هذا لكيسنجر وكان في زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطاً . . . قال :
- هل أقهر من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لي : أعطني ساعة زمن . . .

في هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبنجابون ثم عاد وقال :

- هل تقبل أن تدخل بروسيد حاملة الطائرات الهليكوبتر « أوجيا » - وهي من قطع الأسطول السادس وعليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكي تبدأ في مساعدتك ؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا نعمل مدى ثمانية عشر سنة في مواجهة مع أمريكا... ولكنني قلت له : - نعم .

اتصل كيسنجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والتاجون وعاد ليقول لي : - « بعد عد استدعى (أبو جيا) ميناء بورسعيد لتعاون معكم وتظهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية » .

بعض صائد حاملة الطائرات وبعض الدبلوماسيين في سفارة أمريكا بشاهرة شفقوا من دخول (أبو جيا) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية نيراناً على سواحل برابها على الحامنة . ولكنني طمأنتهم وقت إن شيئاً من هذا لن يحدث فقد أصدرت أوامري إلى بحريتي .

و بعد ذلك حدث (أبو جيا) على استحياء ميناء بورسعيد وهي تتلمس حذرها في كل مرحلة . ولكن فوجيء رجاءها بالمذبذبة الدافئة من جانب بحريتنا وبدأوا العمل في الحال .

قد يدل الشعب الأمريكي عندما يعلم أني لم أتبادل مع الحكومة الأمريكية في مستند شئ اشتراكها في تطوير القناة - ليس في ذلك الوقت ، بل وإلى يومنا هذا . ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكي ، فهذه هي روح القروسية الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقي لأمريكا . فالقناة ليست لمسرق فقط . بل من أجل حياة العالم كله . وأمريكا بإمكاناتها العملاقة المفروض بل والمتوقع من أجل تنف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله .

هكذا كانت صورة أمريكا ومارالت عددي وعند شعبنا المصري العريق . . . الذي دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها . وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .

٤

لكنناحي من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخابي رئيساً لجمهورية مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ . ولده ولايني الأولى في ١٦ أكتوبر . . فيوم أن توفي عيد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة وجاء للغزاء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكي وللأسف التفتت به في ظروف

مؤلمة . . ذلك أنه في يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشياً على فأخذوني إلى أقرب مكان في مجلس قيادة الثورة حيث أعطاني الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقّع عليه نظري ريتشاردسون الذي قدموه لي على أنه وزير من الحكومة الأمريكية جاء ليقدم الغزاء فشكرته وأنا في الفراش ثم ضربت له موعداً بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثاً طويلاً .

كانت مبادرة روجرز قائمة في تلك الأيام فقلت لهم : - « اعلموا رعاكم الله وانتقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكي . . لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها ولكنني وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتي وشرح لي الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام - دعوا يد عمل من أجل سلام معاً . . أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكنني لا أرضي لأمريكا أن تتناد لإسرائيل في دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ في الضفة الغربية للقناة . . ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هي أرضي . . مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام . . وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى في سبيل ذلك » .

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبق في الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله . . وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشيء . . وبناء على هذا اتخذوا قراراً فيما بينهم أن ينتظروا حتى يروا مصري . . لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخراً وكثيراً ما أتذكر به اليوم مع المسئولين في أمريكا .

وفي نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يوماً التي تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القوى وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يوماً أخرى ولكنهم سوف نكون الأخيرة . . فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً ، يعمل في خلالها يارتج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتعديل البند الثاني من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل . . بحيث يتم في خلال التسعين يوماً الإتفاق على الإنسحاب - وهذا ما لم تكن إسرائيل تريده .

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن باقتراحنا وفعلنا نجددت مبادرة روجرز ولكن انقضى نوفمبر وديسمبر ويناير ولم يحدث شيء . فإسرائيل تدعى أن مصر قد خفقت المبادرة ونسايرها في دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها . . . وكل ذلك بهدف نفس المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابي رئيساً بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يحيل إلى خطاباً من الرئيس بيكون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزى يمثلنا في جنازة أيزنهاور . . مباشرة استدعيت القام على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعت على خطاب بيكون وفنت له . . . ولقد استدعيتك لأهلك الرد إلى الرئيس الأمريكي وهذا هو نص الرسالة :-

أولاً : لقد أرسلت لكم مع وينشاردسون الذى جاء للغذاء في عبد الناصر ولكم لم تردو عليا . . مبادرة روجرز انتم فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نفذت المبادرة وأنتم تعلمون جيداً أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية .

ثانياً : بمجرد أنكم أرسلتم خطاباً لرئيس وزرائنا . . تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر . . ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعث بها مع وينشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقلون أننا في منطقة النفوذ سوفييتي فتم محطون . . نحن لسنا في منطقة نفوذ سوفييتية ولن نكون في منطقة نفوذ أحد أبداً . . وأرجو أيضاً أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر - فإذا شتم أن تحدثوا عن أى شيء خاص بمصر فالمكان هنا في القاهرة ومعنى . . لا مع أية جهة أخرى (وهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفيت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق في مرحلة من المراحل) وأرجو أيضاً أن تعلموا أن قرارنا بعد واحد، نحن أحرار ومستقلون فإذا اقربتم ما خطوة ستقرب منكم عشرة خطوات وإذا اتعدتم خطوة ستبعد عشرة . . وكما أن في التوازن الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح .

كان هذا أول اتصال لى بأمريكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم . . وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفيت عن أى شيء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة شهور على الأقل وبعد أن استدعى السفير السوفيتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور .

في ٤٨ ساعة جاعنى الرد موقفاً عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يضرب صدقتى عن حساب أحد (وكنت قد حلوتى في رسالتى من هذا) فهم يعلمون في أمريكا أننى رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق في أن تتكلم عن نفسها .

كان هذا في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوماً الثانية لمبادرة روجرز تنتهى في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئاً قبل هذا التاريخ . . كان من الواضح أن أمريكا ما زالت تسير في خط إسرائيل متفاداة للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لطرف خاصة كانت تعطى إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هى مد حكومة جونسون . . ورغم رسالة نيكسون لى فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجعة مع أمريكا والصورة التى صورها لنا سوفيت فى نصر الأمريكى أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأى إجراء يعيد السلام إلى المنطقة وخاصة بعد أن مشترى أذهان المسئولين هناك ما جاء في تقرير التقارير من أسى أن تبقى في رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع . . صحيح أنه كان قد مضى على ولائى أكثر من أربعة شهور في فبراير سنة ١٩٧١ ولكن لست كما مار - بنامهم . . هل أبقي أو لا أبقي ؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئاً أو غير قادر ؟

إزاء كل هذا كان لابد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن في نفس وقت كان لابد لى من أن أفعل شيئاً بناء يثبت لأمريكا وبيكون واعلم كنه حسن مقاصدى فأنا أريد السلام ومستعد له وفى يدي أن أتخذ قراراً في هذا الشأن . . هكذا فكرت ولم أطلع أحداً على تفكيرى إلا الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء في ذلك الوقت فاستدعيت وقلت له لقد قررت أن أقدم بمبادرة سلام كالتى :-

أولاً : تنسحب إسرائيل من شاطئ القناة الشرقى إلى المضائق في فترة ستة شهور يأتى خلالها يدرج لكى يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الانسحاب . . .
وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضائق عبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية
ثانياً : بعد أن يتم الانسحاب إلى المضائق تبعد مصر علاقاتها مع أمريكا فوراً
قباعتها طرفاً أساسياً في المشكلة لابد أن تحضر معاً كل مراحل التسوية .

ثالثاً : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهى بموجبه حالة
الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨
مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التى ترغب فيها وتنتهى بذلك أخطر مشكلة
يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزى جداً بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم
كله وتثبت أن مصر ترغب فعلاً في السلام .

وفي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابى وأعلنت
إسارته وأما توقعت كان استعدادى لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة
مبهمة تعلم كنه . . . فيها ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربى أن يقوله منذ أن قامت
إسرائيل عام ١٩٤٨ . . . ولكننى كنت أعنى ما أقول لأننى فعلاً راغب في السلام . .

دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت
تجهماً غريباً على وجوه المسئولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى
في ذلك وقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر . .
كانت المبادرة تتعارض طبعاً مع أهدافهم التى رسمها لهم السوفييت كما اتضح لى بعد
ذلك . على أى حال لم يرق لى تجاههم هذا فقلت فى نفسى هؤلاء لا فائدة منهم
ولن ألقي بهم فى اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تماماً من استقبال
القيادة السياسية المصرية فى ذلك الوقت مضافاً إليهم بعض الوزراء . . فى أقل من
٢٤ ساعة كان الشعب المصرى يهلل لهذه المبادرة من جانبي ويرحب بها كل
الترحيب . . وهنا يجب أن أحبل أن حس الشعب أومى بكثير وسابق عن كل
مسئول عمل معى حتى هذه اللحظة وهو ما أعز به .

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معى يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى
ويدركها إدراكاً كاملاً .

فى خطاب إعلانى لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت
إن التسعين يوماً تنتهى اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز ولكن ها هى مبادرة
أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله . . . فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت
أيضاً يا مجلس الأمن . . . ويا أمريكا ويا سوفييت تحملوا مسئوليتكم جميعاً . . .
أعطيتكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١ . . . ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون
مقيداً بمبادرة ولا أى شىء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها فى مأزق
يصعب الخروج منه فيها هو أول رئيس عربى يعنى أنه على استعداد لإبرام اتفاقية
سلام مع إسرائيل . . . شىء لم يكن فى الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى حمله
وفى مصر لم تنم مظاهرات وم يرتفع صوت بالاحتجاج أو الرقص أو التمرغ -
على العكس سعادة تامة تسود الناس فى كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف
من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر
ولبدأنا السلام فى فبراير ومارس ١٩٧١ .

٥

وضح لأمريكا أنى أنكم من مركز قوة وأن شعبى كله ورائى وأبى قدر على
ما لم يجرؤ أى زعيم فى العالم العربى أن يقوله أو يفعله طوال اثنين وعشرين عاماً .
ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئاً ولم تغير موقفها واستمر الوضع على هذا
الحال إلى أن جاء مايو فأنصل لى روجرز وجاء لزيارتي فى ٤ مايو . . . كان سعيداً
جداً بمبادرة السلام التى قت بها . . . قال لى .

أنتعرف أنك أوجدت لنا حلاً للمشكلة ؟

سأته : كيف ؟

فروى لى أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب وقالت له : « اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما لائى أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدى أى زعيم حربى أن يقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فى حدث هذا - قل لهم - فسوف أكون على استعداد لكى أضع كس ورائتى على السبلة » ثم استفرد روجرز ويقول لى : لقد وصدنا هذه الرسالة مد فترة مديونة ، وقد سالتنا بك فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ - ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير - تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زيارتك .. والشئ العجيب أيضاً - استمر روجرز فى حديثه - أنه حسب التقارير التى عندنا كنت أتوقع أنى عندما أصل إلى مصر سوف يقذفنى الناس بالطوب .. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على انعكس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفنى بعض الناس فحبونى وسلموا على . قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا الشعب المصرى .. على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل ؟

قال : أبداً .. لقد قلت كل شئ فى مبادرتك ونحن معك .. سأتوجه من هنا إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى .. حتى دون أن يعلم به .. ولذلك أرجو أن تكونى هند وعذك وتضعى كل أوراقك على المنضدة حتى يتسنى لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة ..

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل .. وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستنلون على الاتحاد السوفيتى وينقلون تعليماته فجاءنى (بودجورنى) يلهث فرحاً وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفيت .. وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقاً على زيارة بودجورنى وعقود المعاهدة المصرية السوفيتية أظهرت بودجورنى يستعرض طابوراً يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن ..

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلهم فإننى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية

فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيداً .. ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصرى .

ولهذه المعاهدة قصة ..

فبعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضح دور جونسون رئيس أمريكى فى ذلك الوقت فى خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاححة الإسرائيلية على أن يرسل نائبه همفرى إلى القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلى واشنطن فبادر عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة مضائق العقبة وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصرين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ فى واشنطن وفى نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالهجوم على ميناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعى الأمريكى عن أوضاع القوات المصرية فى ميناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرى إلى واشنطن فى ٧ يونيو ١٩٦٧ وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خططهم عليه فى مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ G.I.A. وأحد القادة الكبار من البنتاجون ..

وقد نفذت إسرائيل فعلاً كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أى قبل وصول نائب الرئيس المصرى بيومين وطبعاً لم تتم هذه الزيارة .. لم يكن جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضاً الحقد السخيف مع القادة السوفيت وكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يحضروا عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفيت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها لا يستطيع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن بادر السوفيت عقب اتصال جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه فى البحر ليسفوه على لسان سفيرهم فى القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأيدهم لها ..

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا في ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتي لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا . .

وكان طبيعياً أيضاً أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي بأي ثمن . وهناك حقيفة معروفة عن الروسي سواء كان في عهد القيصرية أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسي ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE وقد راد هذا الشك تحت الحكم الماركسي بفعل طسعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ الشيوعية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة واشتد في كل إنسان إلى أبعد العكس . . لذلك حرصنا للبقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي وبحو شكوكه الرهبة بعدة أمور . . كان أولها أن طابا إلى السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربي الإسرائيلي بعد أن لمسنا شكوكهم من أي اتصال أمريكي بنا . . بل ووصيت الأمور إلى الحد الذي طابنا إليهم تعيين قائد سوفيتي للدفاع الجوي المصري وقائد سلاح الطيران المصري أيضاً أمام عريضة إسرائيل الجوية في أجواننا ولكنهم رفضوا المطالبين لحسن حفظنا . .

وكان قصة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا نريحهم ورييل شكوكهم (التي كنا نعجب لها) ونضمن لنا إمدادات الأسلحة التي نحن في أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا . .

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلى موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبد الناصر ولي هو الرفض . . لعلمهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون . وذهب عبد الناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو في موسكو حين سب إليهم أن يعضوا مع حتماً PACT إذا كانوا يشعرون أن في ذلك مدعاة لراحة شكوكهم . . وعضوا . . مما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم في هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال

وغضب بريجنيف الذي قال لعبد الناصر في انفعال إنك بهذا تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر إنني أقبل أي شيء مادام هذا هو أسلوبكم معي . لقد كان تعليق عبد الناصر لي يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة في حياته إلى موسكو كلمتين قالمهما لي بالإنجليزية . لقد قال لي وأنا أسأله في طريقنا إلى منزله من المطار عما تم في موسكو فلم يزد عن « السوفييت Hopeless Case أي حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتيني بودجورني رئيس الاتحاد السوفيتي إلى القاهرة في أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لي في نفس الشهر وبعد أن صفيت عملاءهم في القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتي بودجورني ملهوفاً على عقد معاهدة فوراً معنا . . وقلت له في الحال أنا لا مانع عندي وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضاً حلفاً PACT في زيارته الأخيرة لكم فرفضتم وطلبتها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم . لا مانع لدينا ولكنني كصديق أنصحكم أن التوقيت الذي اخترتموه لعقد المعاهدة خاطيء جداً ذلك أن الكل يعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكانهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم في علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه . . ولهذا التنبيه أيضاً قصة . .

فلئنني حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة المصرية وقبل أن تم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفيتي في القاهرة وطلت منه أن يبلغ القادة السوفييت رسالة عاجية مني ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أنني حرصاً على صداقتنا مع السوفييت أريدكم أن يكونوا على علم بها . . هذا الأمر هو أنني قررت تصفية على صبري وكان عميد عملاتهم في القيادة المصرية لأنني أسمع بالاختلاف في وجهات النظر في القيادة السياسية ولكنني أرفض الصراع ولذلك فلئنني أريد أن يعرف الأصدقاء السوفييت بذلك قبل أن يقع حتى لا تسقط شكوكهم التي أعاني منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصاهم . .

ولقد حدث هذا فعلاً بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب
بالمناشيات عن تصفية رجل موسكو . .

بدأت صبرى في نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ
توتاً وتعداً لم تكن مأثورة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف
من فهمى سى حبيبى وهو الأمر الذى لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت
الذين يربونهم بمعاهدة فهم مدبده علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف
يتصرفون معنا بنفس الأسلوب الفج والفظ والذي يعد كل البعد عن إدراك
الحقيقة كما هى . . أو حتى مجرد محاولة الإدراك . .

ولم يمض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لي الصداق والصراع مع السوفييت
في يناير ١٩٧١ قامت ثورة لشعبية في السودان وعندما جاءني السفير السوفيتي
في القاهرة يطلب منى الاعتراف بالحكم بالحديد رفضت وقلت له :

.. وأنا لا أسمح بقيام حكم شيوعي على حدودى - هذه نقطة
أما النقطة الأخرى التي أرجو أن تنبهوا لها فهي أنه لن يقوم في هذه المنطقة
حكم شيوعي لأن الدين يجرى في دماننا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط
لكم في هذا المجال حتى تريحوا وتريحوا . .

انصرف السفير السوفيتي في حالة غضب وأكد موقفى هذا شكوكهم في
طبعاً .

نعود إلى موقف أمريكا - غادر روجرز مصر في أوائل مايو ١٩٧١
إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انتضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا
خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب
إلى روجرز ليخبرني بما حدث مع إسرائيل . . ولكن دون جدوى تماماً كما
يفعل السوفييت معى . . إسرائيل مستمرة في غرورها وأمريكا متحفظة
لا تتكلم ولا تتخذ أى موقف . . إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال
وزارة الخارجية الأمريكية يأتي من واشنطن يطلب موعداً عاجلاً
للأهمية - قابلته في مساء نفس اليوم فقال لي إنه يحمل رسالة من نيكسون
وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد منى الإجابة عليها أولاً . .

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التي عقدت في أواخر
مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك في التعامل معنا
لإعادة السلام إلى المنطقة ؟

وأجبت : أبداً . . لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق
سرية ولا بد أن تعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله في العلن هو نفس ما أقوله
في السر وأن أى التزام التزم به من حق شعبي على أن يعرفه قبل غيره من الناس
لأنى غير مستبعد لأن أضحك على شعبي في يوم من الأيام ومهما كانت
الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسمياً في البرلمان عند
إقرارها وليس على مصر أى قيود من أى نوع فنحن مصرون على حريتنا
واستقلالنا . .

وكان السؤال الثانى : هل ما زلت توافق على مبادرتك التي أعنت في
فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان في مصر ؟

قلت له : طبعاً . . ولو حدث أن غيرت أى شيء فلا بد أن أعلنه على الناس
فوراً . . وأحب أن أنبهكم - وهذه ليست أول مرة - إلى أن كل ما يخص مصر
يجب أن تتكلموا معى أنا في شأنه . . فإذا تكلمتم مع أى شخص آخر تفوا
أنا لن نستمع إليكم . .

قال لي : حسناً . . حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما
تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة ٦ - ٧ يوليو ١٩٧١ ،
فإن الرئيس الأمريكى سيتدخل بنفسه لبدء الحل السلمى . .

قلت له : على خيرة الله . . ما الذى فعله روجرز في إسرائيل ؟
أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك . . على أى حال أنا ليست
عندى تعليمات بأن أقول شيئاً في هذا الشأن .

وانصرف وانتظرت . . مضى نصف الليلة وأنصاف ليال كثيرة وكثيرة
جداً بعد ذلك ولكن لا حراك . . العكس حدث . . فبعد وقت جولدا
مائير في الكيست الإسرائيلى تلقى روجرز درساً عيباً . . وبلغ درامتنا
لشخصية مسز مائير أنها مولعة في حياتها العادية ومع مجلس الوزراء

بأنه لم تكن مستعدة لذلك .
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير

وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير
وكان لزاماً عليه أيضاً أن يتركها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير

وبالتفصيل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولاً عزلاً تاماً . .

وما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التي وصلتني يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على
هو رئيس قسم مصر في وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكي أى
علم بها كما عرفت بعد ذلك . . شئ غريب حقاً . . أليس كذلك ؟

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير في الكنيست عادت الأحوال بيني
وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه . . فقد كان للخطاب أثره في الرأي
العام الأمريكي كما أنه أزهق روجرز فراجع عن كل شئ . .

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجده في أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح
بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها في عمليات تصنيع
ولن تكف عن بلد الموتة لما حتى تفضل متفوقة عسكرياً على العرب مجتمعين . .
مكئين . . كان يريد أن يشترى رضاه إسرائيل مسرة أخرى بعد الدرس
الذي أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى .

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استقامتي بتحقيق وعدى بأن سنة ١٩٧١
وفي الداخل من عملاء السوفيت وبعض من ضلالتهم الدعاية السوفيتية
وملك أمريكا مى . . فما هي سنة ١٩٧١ تنقضى دون أى حسم ما . . لقد

تعمد الاتحاد السوفيتي أن يخذلني بعدم إرسال العناد الذي طلبته وكأنهم في
موسكو يريدون أن يقولوا لي أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفيت
وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بستين للمارشال أحمد إسماعيل عندما
زار موسكو في مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة . .

وتستمر سخوية عملاء الاتحاد السوفيتي وعملاء مراكز القوى على في مصر
من سنة الحسم واضطروا إلى أن أكرم آلهم وأخفى جروحي وأذهب إلى مجلس الشعب
في فبراير سنة ١٩٧٢ أذافع عن السوفيت رغم أني مطعون في ظهري منهم ضد
زرت موسكو في سنة واحدة أربع مرات أطلب العناد وألح في القنب ولكن
عشاً . . وفي نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا
وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون . . وهكذا بدأ فصل . . .

العلاقات السبئية بيني وبين أمريكا . . مواجهة عاتبة كاملة . .

طبعاً أصيب الأمريكان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت
قرار الإستهزاء عن الخبراء السوفيت ولكنهم حاولوا جهد طاقتهم أن
لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم . . فالوفاق بدأ . . وكان سيكون قد زار
موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أى قبل شهرين فقط من قرارى بالاستهزاء عن
الخبراء السوفيت . . فكانما كانت مؤامرة صمت . .

ولكن يخطئ من يظن أني اتخذت قرار طرد الخبراء السوفيت لإرضاء
أمريكا أو أية جهة أخرى . . لقد كان قراراً وطنياً سعيه شعب مصر كقولهم
فهو قرارى وقرار شعبي وحده ، وكان هجومى على روجرز وأمريكا
- فبنته من سنوك من جاسه لا يقل عناً عما وجهته لسوفييه أن التردد شراً . .

٦

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً
للخارجية - فطلب أن يلتقى بأى رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت من
الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذي طلبه
كيسنجر أن يتم إلا في فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي عندنا فالتقى به في باريس مرة في فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى في أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذي فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكي ولذلك لم يتم شيء . ولكن الرئيس الأمريكي الآن مستعد لمعاون من أجل سلام . قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا في يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلاً :

— قل للرئيس السادات رغم أنني لا أعرفه شخصياً إن تقديرنا له الذي نبني على تقرير مندوب أمريكا في جنازة عبد الناصر كان خاطئاً . . بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء في هذا التقرير . . فقد رأينا يتقدم بمبادرة سلام ثم رأينا وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفيت . . وهذه مسائل لا فتة لسر . .

ولكن نصيحتي للسادات أن يكون واقعياً . . فنحن نعيش في عالم الواقع ولا نستطيع أن نبني شيئاً على الأمان والتخيلات . . والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . . لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم . .

فكيف بنسني وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر . . إما أن تغيروا الواقع الذي تعيشونه فيغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفي هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير المحبول أي تعرضونها ، أرحم أن يكون معنى ما أقول واضحاً فلت أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكري فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد ما انتصرت في سنة ١٩٦٧ وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أي شيء . . وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً وهو رجل أحب أن أتعامل معه في يوم ما . . فأنا شديد الإعجاب به لما فيه وضوحه الواضح ولأنه لأول مرة في هذه المظنة يصعب كل شيء في محادثة بأسلوب علمي سليم ويتخذ حفاً جديداً لم يتبعه أي زعيم عربي من قبله . . .

كان هذا كلام كيسنجر في فبراير وأبريل سنة ١٩٧٣ قلت في نفسي لا فائدة ترجى من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التي وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا في مصر . . إسرائيل هي الحارس الوحيد على مصالح أمريكا في الشرق الأوسط . . هذا ما جعلت من نفسها . . أو هكذا جعلتها أمريكا . . والنتيجة في كلا الحالين واحدة وهي أنه لا أمل في تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

٧

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجيء كيسنجر وحزن حزناً شديداً على مصري كما قال لي فيما بعد — إذ كلن الإسرائيليون في الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضي على المصريين ويدفنون في القناة . .

واستخدموا أفلام هزيمتنا في سنة ١٩٦٧ في كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج . . وكان « البروباجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون . . وفي اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقلوا إسرائيل . . » وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب إرسالها فوراً من أمريكا لإسرائيل . .

ولا بد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتما حينما أكد البنتاجون بأفكاره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية . .

وعلى الفور بدأ كيسنجر — بعد أن أفاق من ذهوله — في العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التي بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر . . طبعاً رفضت . . لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالإستيلاء الكامل على خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهي الوصول إلى المضائق . .

وساء حال إسرائيل أكثر . . . فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت في ذلك الوقت قد رجعت عن خط اليد فرفضت هذا أيضاً . . . وخاصة عندما قفز إلى ذهني الموقف في سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شيء . . . كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

أرسل الاتحاد السوفيتي لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضها جميعاً . . . ثم حضر رئيس وزراءهم كوسيجين إلى مصر وبقى عندما أربعة أيام . . . وفي يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار . . . وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية ستر هيث لكي يتصل بي عن طريق السفير البريطاني في القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة . . . وفوجئت بالسفير البريطاني بوقفني من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغني الرسالة . . . قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط . . .

طبعاً كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقلها . . .

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر . . . فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء في العريش المصرية عاصمة سيناء وهي التي تقع وراء الجبهة مباشرة وهي محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة . . . كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتني فجأة أواجه أمريكا . . .

وهذا ما جعلني أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أني لا أحارب أمريكا . . . وبناء عليه فانا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يوماً عندما كان خصمي في المعركة إسرائيل وحدها - لا أمريكا . . . وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هي مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنايون ذاته والمساعدات التي قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعناد

والأسلحة الجديدة التي استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأي إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ . . .

لم تكن الثغرة في ذاتها هي التي جعلتني أقبل وقف إطلاق النار . . . الذي دفعني إلى هذا - كما سبق أن قلت - أنني أصبحت في حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا وهو ما لا قبل لي أو لأية دولة غير عظمى به .

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحاً أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبقى لها من كرامة في المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الحضيض BOTTOM كما قالت مسز ماير وقتذاك . . . لقد حشدوا قوات كبيرة في الثغرة في منطقة صغيرة لا تحتمل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفني هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة . . . طبعاً خاب ظنهم فالجرب النفسية قد تصلح مع غيري ولكنها لا تصلح أحياناً معي لأنني أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها . . .

كنت واثقاً كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكشوب لها الفشل المحقق . . . فلو أني صغيت الثغرة حسب الخطة الموضوعة والتي وقعت بها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكري ما بين قتل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد . . . ففي هذه المعركة لم يكن أمامي قناة أعبرها أو خط بارليف فتحمه . . . اعدو أمامي وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس مرفق كاملة لي ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هي ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثاني والثالث . . . كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مدبحة التاريخ . . .

ولكنها لم تتم . . . لماذا ؟ لأنها كانت ستعني المزيد من الدم والكراهية والأحقاد . . . وأنا أكره كل هذا . . .

بل إنني لأذهب إلى آخر العالم - كما يعرف شعبي وقواتي المسلحة - إذا كان ذلك من شأنه أن أنقادي جرح - ولا أقول قتل - فرد واحد .

كان أول لقاء لي مع كيسنجر بعد وقف إطلاق النار الذي تم في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . . وخسرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط . . . فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلى القوتين نداءً أحملهما فيه مسؤولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أنني رغم التزامي بوقف إطلاق النار إلا أنني أعتبر نفسي في حل من التزامي فيما أن بعيدا انيود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذي كان قائماً وقت وقف إطلاق النار ونعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض . . . وإما أن أعيدهم أنا بيدي - كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الراح . . . وأنى . . .

كان ذلك في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات . . . بعد الساعة الأولى شعرت أني أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد في السياسة وأنا أرى لأول مرة وجه أمريكا الحقيقي الذي كنت فيما مضى أتمنى أن أراه - لا الوجه الذي صنعه دالاس ودين راسك وروجرز . . . واعتقد أنه لو رأنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الظاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات .

لم تكن هناك أية صعوبة في التفاهم فاتفقنا على النقاط الستة ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك .
كان الاتفاق على النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التي سارت فيها أمريكا معي وما زالت حتى اليوم .

نفس هذه البداية اعتبرها السوفيت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا - أو هكذا يبدو على أي الأحوال كان الاتفاق على القط الستة بيني وبين كيسنجر بمثابة القشة التي قصمت ظهر العمود - كما نقول في العربية - بالنسبة للسوفيت ، لقد تحملوا كرهين قرار طرد الخبراء السوفيت وتصنيتي لمراكز القوى ثم موقف

من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب وانتصاري فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأنني سأغرق في القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم . . . فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع عانى في التاريخ وأسيطر على خط بارليف في ساعات وأدخل سيناء . . . ولكن حتى في هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفيت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلى مصر رئيس وزرائهم كوسيجين - كما سبق أن رويت - ليقتنعي بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة في منتهى العنف . . . وأخيراً كان اتفاق مع كيسنجر على النقاط الستة وبداية عملية السلام . . . منذ تلك اللحظة إلى هذا اليوم في سنة ١٩٧٧ وكل شيء عند السوفيت موقوف على . . . لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع عبار ولا أي شيء على الإطلاق . . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل في بعض الأحيان إلى العداء . . .

في ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءني كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنري أنا لا أطلب بعودة اليهود إلى الضفة الشرقية ولكنني أريد عودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر - كان هذا اتفاقاً وقت وقف إطلاق النار فلماذا أن يعودوا إليه وإما أن أخذه بالقوة » . . .

قال : - ما الداعي إلى المعركة ؟

قلت : - لأن ثمة عريضة إسرائيلية - وهم يتصورون أنهم يخفوننا بهذه الثغرة - وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهذا . . . هل تعرف مدى قوتي ومدى قوتهم في الثغرة ؟

قال : نعم أعرف . . .

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعي رسمها البناجون . كما سبق أن رويت . وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البناجون أن يعطوني الموقف فأعطوني هذه الصورة وفيها ال ٤٠٠ دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريباً لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم . . . أنت فعلاً تستطيع أن تصني الثغرة بهذه القوات . . .

قلت : هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلى . . فما هو موقف أمريكا . . لكم أنتم الذين أخرجنتموني من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغرة . . ما هو موقف أمريكا إذا صفت الثغرة بمعركة . . ؟
قال : سيضربك البتاجون بكل قوته . . هذا هو موقف أمريكا . . ولكن لي سؤال : هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعركة عسكرية . . ؟
قلت : أبداً . . أنتم تعلمون أنني رجل سلام . . ولو كنتم قبلتم مادوني سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب - فأنا ضيق بحياة الجندي قبل الضابط ولكنكم لم تأخذوا كلامي مأخذ الجد وهذه هي النتيجة . .
قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمل فض اشتباك تنتهي هذه الثغرة بتنصاه سبياً .
قلت له : أنا معك ١٠٠٪ . ولكن متى ؟

في ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأحد إلى ٢١ من الشهر نفسه . وفعلنا ذهب مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا - وعندما في جنيف جنسيتين أو ثلاثة ثم أحسا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك في يناير سنة ٧٤ - وذلك بالنسبة للجهتين المصرية والسورية . قبل ذلك بفترة - وعلى وجه التحديد في يوم ١٦ أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعاً أذهل العالم كله - خطبت في مجلس الشعب في مصر وقت لاني مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ويمنح في جنيف لتضع اتفاقية سلام . . كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أضرب في عمق إسرائيل . . وهي تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذي يقوم بذلك . .

أي وجل مكاني كان يفعل هذا ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث حروب مصت - ولكني لم أفعل لأني أفضل السلام . . ومن نفس المطلق أثرت في أصي شعرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق في يناير سنة ١٩٧٤ وأخذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلى أن جاء إلى في يوم وقال :-

- للأصف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلق فهم في تل أبيب غير راغبين في التفاهم .
قلت له : لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان . . فحلوا الموقف أنتم بأنفسكم . .

قال : هل تقبل عرضاً أمريكياً ؟
قلت : بكل سرور . . مستعد ألتقاه وأدرسه وأرد عليك . .
تلقيت الاقتراح الأمريكي ونقلته لإسرائيل في نفس الوقت . . وبالاتفاق على فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة . . المرحلة الثانية في عملية السلام . .

وهنا لابد لي أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يشوه بهذا دور وهو التدخل بين الطرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهينة ودماء وكرهية وعنف ومذابح قامت بها الصهيونية في القرى الفلسطينية . .

لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود . . وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمة عرض أمريكي AMERICAN PROPOSAL . . لهذا قلت وأقول إن يد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة . . مهما أغضب ذلك الآخرين . .

٩

كان من المفروض أن تدخل المرحلة الثالثة من عملية السلام في سبتمبر ١٩٧٤ وهي فض الاشتباك الثاني - ولكن حدثت زيارة بيكون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا حيث كانت مسألة وترحيب قد نصجت تدماً وتفجرت فاستقال بيكون ودحت أمريكا في دوامة رهينة استمرت خلال سوات ٧٤ . ٧٥ . ٧٦ سنة لاستجابات بعد أن استقال بيكون وحل فسود عمله ، وبدأت دبلوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثاني .
في تقديري أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام . . أما هذه المرة فقد كان الأمر مختلف .

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شيء يوحى في الأفق . .
وقد ل أن تنتهي هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندي
في أسوان :

- يا هنري لن يتم فض الاشتباك هذه المرة - ولن يستجيب اليهود لكم
ولا للسلام . . لأنهم يعتقدون أن الحكومة الأمريكية في حالة ضعف -
فوترجيت ما رأت متفجرة - والرئيس الموجود معين وليس متخباً . .
قل بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيراً حسناً - صحيح أنها قد تستغرق
وقتنا أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعني الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحاً أمريكياً يا هنري ؟

قال : لا . .

قلت : أرايت ؟ أنت لا تقدر لأنكم في وضع داخلي صعب . . ولذلك
لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوماً جاء إلى وقال :

- أنت على حق . . إنها حالة ميؤوس منها . .

قلت له : لا تعلن هذا من عندي - صافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلاً أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثاني في مرحلته الأولى من تل
نبيب ، وفي نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعي كيسنجر في
مؤتمر صحفي عقده بأسوان ، وفي صباح اليوم التالي صافر كيسنجر من
عندهم رأساً إلى أمريكا .

الذي أريد أن أقوله للشعب الأمريكي هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد
من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رخيص العيش إلى الفانتوم
في سند محرق في صحراوية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه
كان في سديرها في ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية في موقف ضعف . .
وهي إذاً ليست موضع ثقة إسرائيل - أنا أيضاً كنت أعرف أن الحكومة
لأمريكية في موقف ضعف - ولكن رغم هذا ورعيت أنني كنت قبل ذلك
في مباحثه صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عاماً . . إلا أنني كنت أتق
فيها من أجل تحقيق الخير والسلام . .

وهنا تتضح حقيقة لا أعلن أنها نفوت على الكثيرين . . وهي أن ما هو معروف
من أن إسرائيل هي راعية مصالح أمريكا في المنطقة هو في الحقيقة مجرد ادعاء . .
فأين حماية هذه المصالح والبتروال الذي حظره العرب كان يهدد كيان
أمريكا الاقتصادية بل ويهدد المدينة الغربية كلها بالإنبهار ؟ إن إسرائيل
لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية . . والمسألة بعد هذا أعماق وأدق فهي مسألة
أخلاق . . ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عن سيدفع ثمن
فشل محاولات السلام . . وهذا ما دعاني رغم كل علاقاتي السابقة مع أمريكا
أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل موباً
من أجل السلام . .

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف
مصر في تلك المرحلة التاريخية . . وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص
على السلام أو العكس ؟ لا أعتقد .

١٠

أنا لا أريد أبداً أن أثبت أني رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد
حذلان إسرائيل لمساعي كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت
للشعب كل ما حدث ثم تقلمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ،
ولأنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالخلق فأعلنت فتح قناة السويس
في ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع في تطهيرها
مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي الذي طهر خليج السويس لوصوله
متأخراً . . وسمعتي شعبي وأمتي العربية والعالم أجمع .

كما سمعتي الجميع أعلن أيضاً أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة ،
وأني سأسم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أي
ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكنني أعطيتها لهم بدون مقابل . .

كل هذا من أجل السلام . . مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو
ضربت أي مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية
طوبلة المدى فسوف أورد بالضرب في عمق إسرائيل . .

كنت طبعاً قد قابلت فورد في سالزبورج (يومى ١ ، ٢ يونيو ١٩٧٥) بعد فشل محادثات مارس وانفقنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصياً . .

في أغسطس جاءني كينسجر وبدأ (المكسوك) بيني هنا وتل أبيب . . كان الرجل مكسور القلب . . فالوضع المني الذي كانت عليه الإدارة الأمريكية في مارس أصبح أسوأ بكثير في أغسطس . . فالفضائح تتفجر كل يوم والإضطراب وعدم الاستقرار مستمر . . واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم . .

قلت له : كنت قد قلت لك في مارس إن العملية لن تم ولكنني أقول لك هذه مرة ، بها سوف تتم . . فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين . . من آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة . . ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستضح الحقيقة للعالم كله وهي أنها وحدها المسؤولة عن هذا . .

وفعلاً لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق ، فوقعتنا في أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إتفاقية فض الاشتباك الثاني وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام .

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة ففتح الآن بصدد تسوية ثمانية أي التوقف عن القتال وإنهاء حالة الحرب التي لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة . . وعينياً أن نسي إلى السلام الدائم العادل . . بعد ما ثبت من أن مصر التي كانت في مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهي ربة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شرحت بأن هذا قد يحقق شيئاً من أطماعها .

١١

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح في الانتخابات وأصبح رئيساً للولايات المتحدة . . واستعرضت معه كل المراحل التي تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا اعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة في أن تصنع مثلها أو شيبة بها .

ما هي استراتيجية السلام التي وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل في التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هي المشكلة الفلسطينية . . دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمريض أساسي هو هذه المشكلة بالذات . . ولعل بما يلت نظر في هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل . . تناقض غريب . . فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها - يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هي إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة في الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الاتحاد السوفيتي الذي لم يحاول قط إخفاء مبادئه لإسرائيل وحققها في أن لا تمس . .

حتى أنه في زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفيت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئي لحل المشكلة . .

في استراتيجية السلام الأولى التي أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها في أن تعترف بها دول المنطقة . . ولكن بشرط أن يأخذ كل شيء وضعه الطبيعي . . فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ .

وبذلك عندما يجتمع في جنيف نعلن رسمياً إنهاء حالة الحرب التي استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة . .

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطي جميع الضمانات التي تطلبها حتى إذا رأت أن تسليح كل مواطن فيها بدانة وطائرة وأعضائها أمريكا هذا فلن نمانع . . بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس في أرض الغير . . لن نمانع إطلاقاً في أي شيء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تقصه . . قوة مشككة من الأمم المتحدة . . قوات على الحدود . . مناطق مروعة السلاح على الحنين . . ميثاق

دفاع مشترك مع أمريكا . . أقول إنني في استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندي إطلاقاً . . ولكنني أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذه إسرائيل يجب أن نحصل عليه نحن العرب أيضاً . . فيما عدا شيء واحد . . وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك من أصاب بالشلل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو أية دولة أخرى . . فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك . . إرادتنا ملك لنا ولنا فقط . .

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكثت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر . . كما أكدت أنني على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل نفس الشيء . . فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المحتلة في سنة ١٩٦٧ . هذا يتحقق السلام الدائم والعدل . .

١٢

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟

كلنا نعرف نظرية الأمن التي نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتي تقول صراحة إنه لا بد من فرض الصلح على العرب بالقوة . . قلت لكارتر وأنا في زيارتي للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلباً لأن هذا معناه أن هناك طرفاً على شروطه على الطرف الآخر وإسرائيل لم تستطع أن تمل شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكسرة ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نمل شروطنا على إسرائيل . . يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة . .

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكرية الإسرائيلي الذي لا يقهر . . وهذا ما يتركه جيداً في إسرائيل اليوم ، ولذلك نجد أنهم يكتفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلي ويحلون محلها موضوعاً جديداً هو طبيعة السلام . .

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع في طريق السلام . . لأنه لا يوجد لإنسان في العالم العربي بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومذابح ودم وكراهية وتعب في كل ناحية مهياً لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى . .

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهي أيضاً لا تمنع قيام الحرب . . خذ مثلاً اليابان في (بيرل هاربر) لقد كان السفير الياباني في زيارة (لـ كوردل هل) وزير خارجية أمريكا في نفس الوقت الذي كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل . .

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي مسألة سيادة ولكل دولة الحق في أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول . . أن يكون لهذا أي دخل في قيام الحرب أو السلم . . وقد دعوت الرئيس كينيدي إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفيتي ولم يكن هذا يعني أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين . . ونفس الشيء بالنسبة للصين الشعبية فستوى التمثيل الدبلوماسي بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شيء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة . .

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهوناً بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام بين أية دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التي تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست في الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلى كسب

الوقت لكي تمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العبرية المحتلة . . كما تحاول الآن . . ثم على المدى البعيد لكي تنتهي أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن . .

وفي هذه الناحية أذهب القارىء أن يعقد معنى مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية . .

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا في المنطقة معنا نحن المسرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا . . ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلي . . ونحن لا ننادى بأن نرمى إسرائيل في البحر أو أن نقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها . . فلنعتظها كما تشاء ولكن داخل حدودها . . وإن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأى شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها تهتما مصالحها وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر التورل الذي اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكي . .

وهذا عكس ما فعله وما فعلته إسرائيل في كل مرحلة من المراحل . فملاقاتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة . . نسميها في وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا في سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالنفع . .

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيراً وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافي فأنا أحمل أمريكا مسؤولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام في المنطقة كدولة عظمى ، بل ونحو نفسها ومصالحها في هذا الجزء الهام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا وهي ترمم سياستها في هذا الصدد شيء واحد وهو أن تفكر تفكيراً أمريكياً خالصاً يتفق مع مصالح شعبها - وأرجو أن لا يقضب منى القارىء الأمريكي لقول هذا فقد سلمت أمريكا في أوقات متعددة نفسها وسياستها إلى إسرائيل وخاصة في أيام جونسون - عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نعمل شيء . . فذهبوا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم . . وبعرفنا بخط إسرائيل وعجزها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام . .

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جداً بعد مقابلي مع كارتر وواثق أنه سينهض بمسؤوليته كرئيس لأعظم دولة في العالم . . وأعتقد أنه سينتصر في عملية السلام التي بدأنا سوية والتي أرجو أن تتم إن شاء الله في جنتيف برغم الحملات الإسرائيلية التي سيتعرض لها الرأي العام الأمريكي والكونغرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل على العرب وهو ما لن تقبله . . فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف تقبله بعد انتصار أكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقي شيء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكي الصديق : نحن مستعدون للسلام نريسه ونرحب به وقد مدت يدي في مبادراتي منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن . . كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشيء .

قد أصبح أمراً واضحاً كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتي التاريخية للقدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

١٣

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول إنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله في الحقيقة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذي يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذي لا يلم أحد عنه شيئاً ، وبخيل إلى أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً في المستقبل أيضاً - ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أى بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذي سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً .

وبما تساد إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لي بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أنني منذ أن زرته في إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتنا وأتبادل معه تقييم الموقف من

وقت لآخر والإنفاق على الخطوات المقبلة . وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودي في القدس أن نعمة « حقاً أحمر » بين الرئيس الأمريكي ورئيس إسرائيل)

ولكن - رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لا يمكنني أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر مني هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً . ولا بد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته في واشنطن أثناء زيارتي للولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلني لا أجد صعوبة في التعامل معه . فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم - وإلى جانب هذا فهو فلاح مثل . كانت رسالته تشتمل - كما قلت - على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التي تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته لي طريقاً جديداً كل الجدة . لمادة ٢

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف فبين لي أننا داخلون على حلقة مفرغة رهية - تماماً كالتي عشناها طوال الثلاثين عاماً الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسي الرهيب الذي أشرت إليه - أخذت إسرائيل في هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تتعرض على شكلية وإجراءات - من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة في النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهمها جداً أن يقال إن ورقة العمل التي ستكون أساساً لإجماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية . .

وأخذنا نحن العرب أيضاً سبب ذلك الحاجز الرهيب نعرض بصورة تلقائية على هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إنني إذا قبلت من ناحيتي ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخواني

العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابعدنا عن جوهر القضية .

والحاجز النفسي الذي أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكراهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهياً نفسياً لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل وبشكل فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر) .

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجاني الضخم عند أستراليا والذي يمكن أن يشطر أي سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاماً - أي منذ قيام إسرائيل - فإن له جنوراً أعمق من هذا التاريخ - أي أنه إذا كان يبيحني يدعي أن للسألة بعداً دينياً بالنسبة لهم فإن لها بعداً دينياً أيضاً بالنسبة لنا . . وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته في الزنزانة ٥٤ في سجن مصر بمدنى بقوة جديدة وطاقة جبارة على التغيير . إنني أواجه واقعاً بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولاً وفكرية ثانياً لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملي للإنسان والحياة في ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولاً لن يستطيع أن يحدث أى تغيير في عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم . التقدم مستحيل دون التغيير . وليست هذه مجرد فكرة اعتدت إليها بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتي في الزنزانة ٥٤ .

ماذا يمكنني إذن أن أغیره ؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعاً مشحوناً بحساسية ومخطورة إلى الدرجة التي تحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حداً يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلاً - تماماً مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لا بد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام

الدائم فلا بد لنا من أسلوب جديد تماماً - أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا تعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمي الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقاتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتي في واشنطن في إبريل ١٩٧٧

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطلب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسي أمريكي أى موقف يشق أولاً مع مصالح أمريكا ويشق ثانياً مع مسئولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام في العالم . ومعنى هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلانش » التي أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل أى أن تعطىها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التي أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم وأولها أن العرب ليسوا جنة هامة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلاً (ولعل البدء - نداء « أنقذوا إسرائيل » الذي صدر في اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول - عصبة المدينة في الغرب - لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكي أنه بمجرد أن شعرنا أن حظر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكي رفعناه فوراً لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكي أو التسري بل التنبيه بأن الانعياز الأصعب لإسرائيل له ثمن . . فللغرب من مثلنا لنا مصالح ولنا قضية وينبغي أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصلحتنا) .

وهكذا - بالنسبة للمبادرة - كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل الصورة التي تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفي نفس الوقت استقبلت مبعوثاً من الرئيس حافظ الأسد فوجدته ما يزال يردد نفس العبارات التي سادت العالم العربى سنين طويلة والتي تفصح عن العقيد التي تحكم موقف الجانبيين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل وإنما تلعب على الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فلن تستطيع . وهنا أبدت اختلاف مع هذا الرأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معيماً وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعاني من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضاً تدخل دوامة الانتخابات القادمة - أى أن الإدارة الأمريكية كانت في أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيرى في الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسداً ووضوحاً . فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور في أعماق ذاتى داخل الزنزانة ٥٤ ولما عانى بأنه لا يمكن إحداث التغيير في عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير في عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبي - تلك المسئولية أو الأمانة التي أحملها بالنسبة لبلدنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض على أن أقوم بما ينبغي أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم .

لابد أن أودى واجبي كما ينبغي وإذا كان في إمكاني أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التي ورثناها - إذا كنت أستطيع ذلك ثم تفاعست عنه فساكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبني على كل ما أفعل . .

انتهت هذه المرحلة من تفكيري قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين - بعد أن تلست رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتي إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاوسيسكو طويلاً فأخبرني عن اجتماع كان قد عقده مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثماني ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد) . سألت شاوسيسكو عن انطباعاته فقال لي : -
- إن بيجين يريد التوصل إلى حل .

قلت له :

- كل ما يشغلني في هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقاً أم لا ؟ . أنا عن نفسي أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالاً للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم - وخاصة بيجين - عيم كنسلة ليكود المتعصبة - تريد السلام ؟ هل بيجين الذي يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام ؟
فقال لي :

- دعني أقول لك إنه بالمقطع يريد السلام . .

كان شاوسيسكو بالغ الثقة وأنا أثق في حكمه . وإلى جانب هذا فهو على صلة جيدة بالاسرائيليين لم تنقطع يوماً ما . ولذلك فحينما أكد لي أن بيجين يريد السلام وأنه « رجل قوى » كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولاً من الحاجة الملحة إلى التغيير والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة في طريق إلى إيران - وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا - وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامي . . كان معي في الطائرة وزير الخارجية قطب الذي لم تنقطع أعصابه تحمل المبادرة واستقبال . . مسكين . . قلت له إنني أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريجنيف وديستان وكالاهان وهواكوفينج إلى اجتماع في القدس . . في الكنيسة . . لماذا ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغي أن تضغط مرحلتين في مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لموتمر جنيف أن ينجح فلا بد من التحضير له تحضيراً كاملاً . . وقد

حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التي اقترحتها والتي تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أي استجابة نتيجة لنفس الموقف الذي صاد بين العرب والإسرائيليين - نفس الشكوك ونفس الحذر . ونس الدائرة المفرغة . . لا بد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار - أصحاب القيتو في مجلس الأمن - إلى اجتماع في القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية في العالم العربي ، أي دول المواجهة - سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر - بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأنا بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لي كي أهيئ العيد مثلاً (أو الجمعة) في المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية . . فقوم معاً بزيارة لهذه الأماكن المقدسة - أصدقائي كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذي قال ماوتسي تونج عنه لحسن مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته : الراجل ده كويس جداً وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها . (وكانت هذه آخر وصية له) - أما بريجنيف فلم أكن واثقاً أنه سيقبل رغم أنني أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذي يتمتع بعقلية سياسية في القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقاً . وإنما كان الخلاف دائماً مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هي الصورة الأولى لمبادرتي - كنت واثقاً من ترحيب أصدقائي كارتر وديستان وكالاهان وهواكوفينج وكان تصوري أن بريجنيف لن يجد مفرأ من القبول إزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعاً نحن الأطراف المعنية في الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم - في القدس نفسها - أنه لا فكاك لها من المصريين الأساسيين في التوبة وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التي هي لب القضية .

ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمي في معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيمان وبعده
إريك شارون الجنرال الذي كان لدينا في الفترة - قلت له إذا أتيت مرة أخرى
إلى الضفة الغربية للقناة فيكون السجن في انتظارك ! فقال : أبداً . .
أما حالياً وزير الزراعة . .

ثم رأيت بعد ذلك مورديحاي جور رئيس الأركان الحالي الذي كان قد
حضره في ريارتي دنتي أقوم بخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم
وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له إنني لا أمارس الخداع الأخلاقي مطلقاً . .
الخداع لاستراتيجي والخداع لتكتيكي مقبول ولكن لا يمكن أن أقبل الخداع
الأخلاقي . .

بعد ذلك ركب السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعي
ممتاز . وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت في فندق الملك داود .
في صباح خرجت لصلاة العبد . دخلت القدس العربية لثاني مرة بعد ٢٢ سنة

كامنة (كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامي) .
وتبين لي على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق
الذي اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة . . وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماماً
والعمية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من
جديد على أيدي المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى لفندق .

بعد الظهر اتجهت إلى الكنيسة وألقيت خطابي ثم قام ييجين بإلقاء
خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضة بيريز وانتهت جلسة الكنيسة . رغم التعب
والإرهاق الذي كابده ذلك اليوم فقد أحسست بعبادة غامرة لأن ابنتي كما علمت
كانت قد وزعت بمولود (بنت) في الثامنة صباحاً وأنا أصلي في المسجد الأقصى .

ثم يكن سبب الإرهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم
به - ولكن كان السبب الحقيقي هو التركيز الذهني العميق إلى أبعد الحدود والذي
يجعل الإنسان يحس بالتعب . كان ذهني بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أنني
كنت أعبر هذا المهمة مهمة مقدسة حقاً وسدقاً . ورشة شتى من دأبي - شعبي
في فقد كنت مستعداً إذا أبدى أي رفض من حاشي أن حاشي إلى مجلس الشعب
متدنا وأقدم . .

ولكن نقتي لم تحب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين
الشماتية الذين يعيشون في القاهرة لاستقبال عند المسودة . كانت مظاهرة تأييد
لم يسبق لها مثيل . كان الجميع في غلق على وكانوا يرون أنها مجازفة مني أكثر
منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلحجون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون
يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم الغامرة . كان إحماسي
بهذا هو قمة السعادة وبأنني قد كلفت تكليفاً لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل
الذي بدأته . . كان تكليفاً بأن أخدم شعبي وأهل حتى نحقق سوياً الهدف من
المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نميري
زارني فور عودتي وأبدى تأييده الكامل تماماً مثلما زارني في أعقاب ثورة
التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ . . إنه موقف لا يسعني إلا أن أذكره له
ولشعب السودان الشقيق .

١٦

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتي ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدي رحلتي إلى كسر الدائرة المفرغة - الحلقة
التي ظللنا ندور فيها سنين وسنين . . وأنا أضع دائماً لكل شيء حساباته الدقيقة
(تماماً مثلما فعلت في حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حبت له . إذ أنه
مثلما استقبلني شعبي هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب
والناس في إسرائيل - النساء والأطفال والشيوخ - استجابة مذهلة . حتى
القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التي كلفت بحراستي كانت ترقص
فرحاً ونحمة لي رغم أنني حاربته في ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلاً
طوال ٣٠ عاماً . . لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذي يستطيع بعد
النصر أن يقول لهم فنتكس حرب أكتوبر آخر الحروب والحسن معاً مثل
كل المتحضرين حول المنضدة لتناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلاً من اللجوء
إلى القوة .

عدت من إسرائيل بعد أن انتهت هناك على شيتين أساسيين :

أولاً : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب . . .
وثانياً : أن تناقش حول مفضة المفاوضات في موضوع الأمن لهم ولنا . . .

وهكذا انتهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريباً (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ ٣٦٠ عضواً) . . . مما رادني مسعدة ومن ثم فكرت في أن أعود إلى القصة كي أعال قسطاً من الراحة . ولكنني ما لست أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضع قوة الدفع .
وقد أرسلت ندوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف . لم تتلق إحداث إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل ولم يرسل باقي الأطراف لإجابتهم ولكنني مصمم على المضى في مبادرة السلام إلى النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهر ؟ لا أدري . ولكن الذي أدريه هو - أنني أولاً سأظل متمسكاً بمبادرة السلام التي قمت بها . . .
وثانياً : هو أنني لن أضيع فرصة على الإطلاق لكي نحل مشكلة السلام في الشرق الأوسط حلاً جنوياً وحضارياً . وهذا أريد أن أرد ما قلته أمام الكتيبت الإسرائيلية من أنني لا أبغي اتفاقاً ثانياً من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاماً قائماً على العدل وسوف أعمل في الفترة المقبلة - إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده - على إقامة سلام عادل في المنطقة لإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو - كما قال كارتر ممي - وطن قومي فلسطيني .

طبيعة الحال لا بد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربي لهم (سيناء مع مصر والجلولان مع سوريا والصفه الغربية مع الفلسطينيين) ولكنني سأستمر في المناقشة إلى النهاية - حتى ولو عارضني العالم كله .

هذهي الأساسي إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجللاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ - وسبكون رائدي دائماً أنني أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل في سبيل ذلك كل شيء مهما طال الزمن .

أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف على طرف آخر فلا بد أن أقول إنني مثلما أعلنت عن استعدادي للذهاب إلى آخر العالم في سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمي على أن أحارب إلى آخر العالم في سبيل هذا الهدف .

لقد فقدت أخى الأصغر الذي كان بمثابة ابن لي بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصايين في تلك الحرب - شباناً في عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلى كرسي ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة في إسرائيل وتأملت لها ألمي لكل من نالت منه ويلات الحروب . . . أيا كان . . . ولعل هذه الروح هي التي ساعدتنا على تأكيد المدفين الذين تمخذا في زيارتي وهما أولاً ألا تقمع حروب بعد حرب أكتوبر وثانياً أن نحقق الأمن للطرفين . . .

ولابد في النهاية أن أسجل أن الشعب المصري قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها . . . لذلك لم تعد تحر كنا أي عقد - سواء عقد النص والإنزامية أو عقد التشكك والأحقاد . وهذا هو الذي جعلنا نلتقي - بعد أن انجلي غبار المعركة - سواء في فض الاشتباك الأول أو الثاني أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولي إلى إسرائيل .

لم يكن بيننا - بعد أن انتهى القتال - إلا الاحترام - وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر . . . وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحيي وجعل القوات المسلحة تحييي كما لم تحيي لإنساناً من قبل .

إن جنودنا الحضارية قائمة . . . عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية ونابضة . . . لم تن أو تضعف أبداً . . . وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصري الأميل الذي يبني للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين في ظل الحرية والسلام . . .

فأبقت هذه قصة الصراع العربي الإسرائيلي أو قصة تحرير مصر من الاحتلال
 كانه وأكثر . ولكنها في المقام الأول قصة البحث عن الذات مع ذات وذات
 مصر - ذلك الكيان الواحد الذي أشرق في نفس هذا الطفولة عندما توحدت
 ذاتي مع ذات بلادي أرضاً وشعباً .

هل لمع البحث ؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التي وضعتها نصب
 عين من طموحي المبكرة ؟ أنزلت للقاري الحكم على ذلك - فكل ما أستطيع
 أن أقوله - وحسب ملج علمي - هو هذا :

حساب شقاء الآخرين . ذاتاً أصغر في كل فسرار أخذه وكل عمل أقوم به من
 إيمان الراسخ بمن الإنساني في الكرامة والحربة والسلام والمساواة .

أمد وجدت ذاتي في الصدفة . . وفي الحب . . وفي العمل الذي يرق بحياة
 من حولي . . وفي انصاف الحق حل الناطل . . باختصار في كل ما من شأنه تحقيق
 صورة كبراني الذي هو كيان بلادي .

ثم أصبح يوماً وراء السنتة إذ اكتشفت في فسر جاني أن فوقي تقدم من
 داخل . . من إلقاء الناطل بالخبر والحق والحاصل .

وأحمد الله أني لا أختلف اليوم عما كنت صد سنوات بعيدة ، عندما كنت
 أصوم مع شروقي الشمس وأخرج إلى الخفول لأعمل مع الآخرين حتى تعود إلى
 دؤوس الحياة . . ولحمل الشيطان البائسة الفكر مرة أخرى . . .

هذه القصة بعد . وأعتقد أنه لن ينسى يوماً ما . . إذ أنا في كل عمل تتخله
 شخصي حيواتي بخص إرادة الله وإرادته عر وحل "خاتمة" .

مزارع أماني وأمام شمس غروب طويل لانه أن يفضله حتى يصبح حياة يسودها
 الحب والسلام والرحمة والالتفات .

وهذا الله وهدي حصاني وحظي الجميع في كل مكان .

وثائق

الرسالة التي وجهها السيد الرئيس
لبريجينيك في ٣٠ أغسطس ١٩٧٢

المديق العزيز الرئيس ليونيد بريجنيف
المكرّم الأول للحزب الشيوعي السوفييتي

أكتب اليك شخصياً لتفتي في مشاعرك المديقة التي لمستها
بفخس خلال لقاءاتنا المتعددة لعلنا نخرج من الدائـرة
المفرقة التي تفتارها الملانات بين بلدينا والتي أصبحت
تسم بموء الفهم الذي أحس أنه سيتفاهم اذا لم تنضج الأمور.

لذلك سيكون رائدي في هذا الخطاب المراحة الشامة بها
كانت حتى تكون على علم بوجبة نظرنا كاملة بعيداً عن أي
تحليلات مشبوهة أو مؤثرات مفتعلة .

١ - ان تجربتكم في الحرب العالمية الثانية مازالت
مائلة في أذهاننا . فلتد رنفت الشعوب السوفييتية
الاحتلال النازي ولم تنشط صبرا على استمراره ومحاربت
بشجاعة وقدمت كل التضحيات من أجل تحرير الأرض ولم
تبخل بشيء من أجل الحفاظ على كرامتها . ومن نسم
فليس غريباً أن يكون الشعب العربي في مصر هو
الأخر حريماً على تحرير أرضه معتداً لتقديرهم كسل

التفجعات في هذا السبيل مهما بلغت .

ومن هنا في تقديرى يجب أن تكون نقطة البدء الصحيحة .

٢ - من أجل ذلك فأننى أجد أن واجب الحرص على صداقتنا يقتضى أن أبدأ هذه الرسالة من حيث انقطع الحوار بيننا بعد أكثر مقابلة في إبريل سنة ١٩٧٢ لكني * ادخل الى طلب الموضوع الذى أدى الى هذه الوقفة بيننا لعلنا نستطيع أن نكمل هذا الحوار ونصل الى جوهر المشكلة ، فإذا استطعنا التفهم لوجهة نظر كل منا أمكن معالجة كل الظواهر الأخرى .

٣ - نعتك نواتقنى * إليها الصديق العزيز على أننى كنت حربيا أجد الحرص على استمرار صداقتنا ودعمها فى جميع المجالات ، ومن ثم كانت زياراتى الأربعة لموسكو فى مارس وأكتوبر ١٩٧١ ثم فى فبراير وإبريل من العام الحالى ، ولقد كان الموضوع الأساسى فى جميع هذه اللقاءات هو بحث مشكلة العدوان الاسرائيلى والخيرات التى يلزم أن نشجعها لتحرير الأرض .

وهنا * أرجو أن تسمح لى أن * اذكرك أننى كنت حربيا فى جميع اللقاءات التى تمت مع القادة المولودين

برشاشكم على تأكيد مبادئى وليسيس .

أولهما ... أننا لا نريد أن يعارب معركتنا أحد غير جنودنا .

ثانيهما ... أننا لا نريد ولا نسمي أن تكون معركتنا سببا فى مواجهة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لما يحثيه ذلك من كارثة للعالم كله ، وأننى كنت أقول بالحرف الواحد أن من يسمي الى ذلك مجنون بلائك .

ولقد كان الرأى الذى اتفقنا عليه فى لقاءاتنا وخاصة فى اللقاء الأخير فى إبريل سنة ١٩٧٢ هو أن اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة لن يتحركا لتحقيق حل للمشكلة سواء كان سلميا أو غير سلمى إلا إذا أحست اسرائيل بأن قوتنا العسكرية أصبحت قادرة على أن تتحدى التفوق الحسكرى الاسرائيلى وعلته فقط سنجد اسرائيل وأيضا الولايات المتحدة أن مصلحتها الوصول الى حل للمشكلة .

وفى مناقشاتنا المتكررة كنت أذكر أن يكون لدينا سلاح الردع ، يجعل العدو يتردد فى ضرب عمق اراضينا كما فعل فى الماضى عندما يعلم أننا سنكون قادرين

على الوصول الى هدف اراضيه .

وكان واضحا ولا يزال اننا بدون توفر سلاح
الروح فلن تكون قادرين على التحرك عسكريا وبالتالي
فلا حاجة تدعو اسرائيل الى ان تغير من موقفها
المتحتم بالنسبة للوصول الى أية تسوية للمشكلة .

• - من هنا كانت رسالتي لك مع المارشال جريتشكو الذي
زارنا في مايو سنة ١٩٧٢ قبل اجتماع موسكو بأيام .
وقد عملت من جانبي على أن تلج زيارته على
أروع صورة ، ووافقت على اصدار البيان الذي أتى به
من موسكو ، وكان هذا البيان ينص على ان الليباريين
المصريين قد استخدموا الطائرات الأسرع من الصوت
ثلاث مرات (مبع ٢٣) وانقاذات مقاتلة جديدة قد
استخدمت في مصر .

وكان هذا كله غير صحيح . .

ولكنني واننت على اصدار مامدر لكي تنجح
الزيارة كما قلت ، ولانني كنت أعرف أهداف الزيارة
السياسية خاصة قبل اجتماع موسكو بأيام ، وأردت كمديق
أن يكون حديثكم في موسكو من موقع القوة .

ولكنني في نفس الوقت جعلت المارشال جريتشكو
رسالة محددة لك مما يجب ان يكون عليه تصرفنا بعد
اجتماع موسكو ، لان التكهين بنتائج اجتماع موسكو
بالنسبة لمشكلتنا لم يكن لغزا ولا معضلة ، وحددت
٣١ أكتوبر ١٩٧٢ نهاية لما يجب ان ننجزه في هذه
الفترة ، وهي فترة تكفي بالكاد لكي نكمل استعدادنا
لجولة مابعد الانتخابات الامريكية ، وكما أبلغت
المارشال جريتشكو فأننا في حاجة الى كل ساعة وكل
دقيقة الى ذلك التاريخ حتى ننجز ما هو ضروري لدخول
الجولة الجديدة من أرض صلبة .

حين أبلغني مفيركم برسالتكم عن نتيجة اجتماع موسكو
يوم ٦ يونيو ، أي بعد الاجتماع بحوالي عشرة أيام ،
لم يكن هذا جديدا ولا مستغربا لنا ، وأرسلت لك
في نفس اليوم رسالة محددة في نقاط سبع أكدت فيها
رسالتي لك مع المارشال جريتشكو وبتحديد وأنصح
أن لا نضيع الوقت الى ٣١ أكتوبر فكل دقيقة لها ثمن .

وفي هذه الرسالة تجدون أنني طلبت رسميا حل
مشكلة القيادة والسيطرة فورا ، فلا يعقل ان تكون
هناك وحدات سوفيتية في مصر ولا تخضع للقيادة المصرية .

٧ - بعد شهر كامل وبعد الحاج منا مرة عن طريق رئيس الوزراء ومرة عن طريق وزير الخارجية ، جـاءت رسالتك لى التى تسلمتها فى ٨ يوليو ، علما بأننى كما أخطرتك من قبل كنت أحسب اليوم والساعة والدقيقة . وكانت رسالة مخيبة للامال لانها تجاهلت بالكامل كل ما سبق أن ارسلته لك سواء مع المارشال جرينشكو لوفى ٦ يوليو ، ولكنها أكدت لى حقيقة هي أن هذا السلوب فى التعامل والتجاهل لأوضاعنا وممركتنا يتبع من عقلية عاتينا منها طوال السنوات الخمس بمعد المدوان ، وحاولت أنا مرارا طوال سنة ونصف أن أنبهه اليها ولكن بدون فائدة .

ومن أجل هذا رقت هذه الرسالة ورفضت أيضا السلوب ، وكان لابد لنا من وقفة كآداء نحدد فيها موافقنا بصراحة .

وأود أيضا أن أخطب ان أنخى لك انطباعاتى فى تلك الفترة ، لأن من هناك كصديق ان تعرف بمبـىـررات قراراتى .

الازمة منجدة ولا توجد طرق متاحة للشحرك .

الادعاء الأمريكى بتماعد حتى بعد اجتماع موسكو بقدرة الولايات المتحدة وحدها ، ووحدها فقط على الحل ... إسرائيل تزداد عريضة فى المنطقة المربى : بلا رادع ..

البيان الصادر عن مؤتمر موسكو يقول بالانزعاء الحسكرى فى المنطقة بعد حل المشكلة ..

رسالتكم فى ٨ يوليو تتجاهل بالكامل ما اتفقنا عليه وما يتحتم علينا ان نتخذه من اجراءات تؤمن أنها ضرورية لتمكننا من التحرك عسكريا اذا لزم الامر بعد الانتخابات الأمريكية ..

امريكا تعطى اسرائيل بلا حساب ، وتجدد ليهـ سلاح الطيران بالكامل بخلاف الاسلحة المتطورة الأخرى .

موقفكم بعد الرسالة يوضح ان الحظر الجزئى الذى فرضتموه علينا بالنسبة لاسلحة الردع منذ خمس سنوات امتد فى هذه الفترة الحرجة الى ضرورات أساسية كتبت لك عنها فى رسالتى بالتحديد وتجاهلتموهـ بالكامل .

من كل هذه الاعتبارات كان قرارى بانهاء مبـىـر

المستشارين كوقفة ننهي بها مرحلة لابد ان تنتهي لكي
نبدأ مرحلة جديدة بلهم جديد وتقدير جديد وتحديث
لمواقفنا .

دعني أيتها المديق ان أضرب لك امثلة مما يدور داخل
قواتنا المسلحة وبالتالي بين الشعب و قلوبهم
القوات المسلحة الا أبناءه . وكان يجب على
المستشارين ان يبلغوكم بها قبل ان يتفاجئ الامر .

أ - في البحرية مثلا :

ظل قائد البحرية طوال أربع سنوات يطالب بجهاز
جديد لكشف الغوامض لأن الجهاز السوفيتي الذي
لدينا مداه نصف كيلو متر فقط ، وكان السرد
ولإزال الى يومنا هذا انه لا يوجد غير هذا
في الاتحاد السوفيتي في الوقت الذي يمسرى
فيه كل ضباط البحرية عندنا ان مفتحكم مـزودة
بجهاز يكشف الغوامض الى الأفق (Horizon ..)
وهو مالمدي الغرب أيضا ، وليس هذا مرا فنعمن
لسنا دولة متخلفة ، وانما نحن نقرأ ما عند
الشرق والغرب ، ونسابع العالم كله ، والآلهي من
ذلك ان من اسطولكم تميش بيننا .

في " اسواق الغرب معروض جهاز الكشف الى الامر ،
وليس سرا ، ومعروض لها . أجهزة لمسات على امل
عشرين مرة اكثر مما عندنا وليس سرا أيضا .

فما ذا يكون تعليق ضابط البحرية ٢٠٠٠

ب - في الطيران مثلا :

كل ضباط الطيران - وهم خرجوا كلياتكم - يعلمون
ان لديكم طائرات منفردة مثل (٥٥٥ H) التي
كانت عندنا ، ولكي كل من عندكم سر ولا يقترب
منه أحسد .

طائرات الصواريخ عندنا سرعتها وهي تحمل الصواريخ
نصف سرعة طائرة الركاب اليوشن ٦٢ النحاسية
والبوينج ، والصاروخ ينطلق منها بسرعة أعلى
من سرعة الصوت ويظل معززا أكثر من ٦ دقائق
للاملحة المضادة ، في الوقت الذي تحمل فيه
الفاقتوم ذات المرتين وربع سرعة الصوت
الصاروخ الأمريكي ثرايك وينطلق بأسرع من الصوت
طبعاً ، وقد تبينكم في حينه من طريق ميركم وقبل
ان يطلق علينا عشرة صواريخ منه ..

لماذا يكون تعليق ضباط الطيران ٢٠٠

ج - في الجيش :

أرسلتم لنا مدفع ١٨٠ مم نظير المدفع ١٧٥ مم الذي زودت أمريكا إسرائيل به ، ولكن المقارنة رهيبة .

المدفع الأمريكي محمل على دبابة وسريع الحركة ومع أدوات إدارة النيران لكي يضرب إلى أقصى مدى ... ومدى ثابت بحتان إلى عشرين فرد لتحريكه وليس معه أدوات إدارة النيران لكي يصل إلى أقصى مدى فلا يكون هجوميا وهو ما يدخل في الحائر .

أمريكا أرسلت أعداد غير محددة من هذا المدفع الهجومى لإسرائيل ، كما أعلن .

وأنتم أرسلتم لنا أربعة مدافع فقط على جبهة طولها ١٦٠ كم .

ضباطنا يحرقون ان لديكم ما هو أقوى من المدفع الأمريكى ومحمل ايضا ، ولكنه كالعادة سـ ... ومشاروكم يتولون ليس لدينا شيء .

فماذا يكون تطبيق ضباط المدفعية ؟

وفي المشاة يعرف كل ضابط وجندى ان الملحمة تفتح الشخرات تماوى حياته عند بدء العمليات ومع ذلك فما لدينا منها هو الملحمة الحربية الثانية وكل ضباطنا وهم متعلمون في فرونتير يحرقون ان لديكم ولدى الغرب - وليس سـ ... هواريخ تفتح الشخرات ، وألحمتا سنتين في طلبها الى اليوم ، والرد كما هو ، لا يوجد في الاتحاد السوفييتى .

هذه هيئات بسيطة من مئات الامثلة ، أستطيع أن اسوقها لك، يعرفها كل ضابط وجندى في لسروع القوات المسلحة وانتقلت الى الشعب .

فهل هذا هو أسلوب تعاون الصديق ؟

ان جهازنا الدفاعى يفتقده الكثير من التفاصيل بومغم 'لنا نقول للناس وللحالم بمكس ذلك ، وهذا هو ما أريد ان نقف عنده لكي ننأش المقلية التى وراء كل هذا .

انكم تعاملوننا وكأننا دولة متخلفة لا تعرف شيئا في الوقت الذى تلقى فيه ضباطنا العلم سـ ... مدارسكم كضباطكم تماما ، علاوة على أننا نشأبع

العالم شرقه وغربه في كل شيء وهو ليس سرا لأن التسليح
مكتوب في كتب متداولة في العالم كله . وعندنا
يسأل المستشارون الموفيت كانوا يجبرون أما بالصمت
أو بأنه ليس لدى الاتحاد الموفيتي .

ونحن نعلم ونفهم أن لدى الاتحاد الموفيتي
كل شيء . . .

١ - وأما رحك أيها الصديق انني استعمر الآن خطورة
شديدة على مستقبل علاقتنا . . . لخطر ما فيها انها
مشترك لدى شعبنا مرارة من الاتحاد الموفيتي .

منكم الحق كل الحق بعد مدور قراراتي . . .
نتخذوا الموقف الذي ترونه مناسباً لمعالجكم .
ولكنني لا أعتقد أبداً ان من مصلحتكم ان تتركوا لدى
شعبنا مرارة من الاتحاد الموفيتي بعد هذا الشوط
الطويل من المداقة والبناء الذي أتمناه سوا . .

ان قرار محب الطائرات (500 M) بمسند ان
مدر بيان موفيتي مصري أثناء زيارة المارشال جريتشكو
بان الخباياين المصريين استخدموها في نظري هو مسند
اسوأ القرارات التي تعيب شعبنا وتواننا المملحة .
بالمرارة .

وقرار محب أجهزة الخويف التي كان يعمل عليها
افراد موفيتية بحجة انها سرا . أو أننا لا نستطيع
تشغيلها أو أي حجة اخرى هو ايضا في نظري مسند
اسوأ القرارات التي تعيب المداقة الموفيتية .
المصرية في الصميم .

ان معنى هذه القرارات هو فرض الشروط مسند
جانب الاتحاد الموفيتي . . .

ولقد كسرنا احتكار السلاح في العالم مسويا
منذ سنة ١٩٥٥ . . .
وأمر آخر أخطر . .

اننا في معركة تواجه عدوا مزودا بكل شيء . . .
نماذا يكون امتفاج المواطن العادي . .

انني اترك لك تقدير كل ذلك . ولكنني أكون
متصرا في حق صدقنا اذا لم نذكر لك كل هذا
بمثل هذه الصراحة .

١٠ - امرا اخيرا أريد ان يكون واضحا امامك . .
لقد سبق لي ان حددت بتاريخ ٢١ اكتوبر في رسالتي
لك مع المارشال جريتشكو وفي رسالتي لك مع مفبركم
في ٦ يونيو . ولخطركم ايضا به رئيس الوزراء . .
زيارته الاخيرة لكم .

لقد كان هدفنا من زيارة رئيس الوزراء لكم هو
إصدار بيان مشترك يؤكد علينا كل هذا الدس والتشفيء
ولكنكم رفضتم ..

وبعني أن اتول لك بكل صدق وصراحة أنني متمسك
بهذا الموعد ٣١ أكتوبر كتاريخ فاصل بيننا ..

وأرجوكم مثلما وبأخوة أن تدرك أنني لأوجه
إنذارا كما يحلو للبعض أن يفسر فنحن لا نوجه لأحد
إنذارات ، لأننا لا نقبل أن توجه اليها من أحد
إنذارات .

ولكن هذا التاريخ مبني على عاملين أحدهما
سياسي والاخر عسكري ..

أما العامل السياسي فهو أننا حسب اتفاقاتنا
في آخر لقاء وفي رسائل لكم سنجد أنفسنا بعد
انتخابات الرئاسة الأمريكية في وضع سنواجه فيه
تحركا أمريكيا وإسرائيليا يهدف إلى فرض حل لصالح
إسرائيل وما لم تكن على أرض ملية عسكريا كمسألة
اتفاقنا فالتنا سندخل إلى الحلقة المارقة مرة أخرى ...
مهمة بارنيج .. وقرار مجلس الأمن .. وإسرائيل لا تمسك
لنفوقها .

أما العامل الثاني وهو العسكري ، فنتمنى
أن تسأل العسكريين عندك ماذا سيكون عليه التفوق
الإسرائيلي في نوفمبر وديسمبر القادمين .

أن إسرائيل ستكون قد استوفيت بالكامل كل
التجديد في طيراتها بالأعداد الكبيرة من الفانتوم
والسكاى هوك ، وستتبع الفجوة بيننا بأخطار مدمرة
الآن ..

وهكذا يتضح لك أيها الصديق أن لهذا التاريخ
مدلولات سياسية وعسكرية سبق أن اتفقنا عليه .

وبعد ...

إننا في مصر نظل حارطين بالجهد لمساعدتكم ،
وليس أدل على ذلك من أنني عندما ما أعلنت قرارات
إنهاء مهمة المستشارين السوفيت خرجت في أحاديثي
إلى الشعب المصري في مصر وفي المنطقة كلها على
تأكيد دور الاتحاد السوفيتي في مساندتنا .

ولكن واجب الأمانة يدعوني أن أذكر أن أولوية
أولى في هذا التعاون الذي ترفقه هي في تمكيننا
من تحرير أراضينا .

إننا نرغب في دعم التعاون بيننا إلى أقصى مدى ..

وهذا المدى المحدود المدى الذي يذهب السبب
امدقائنا في الاتحاد السوفيتي في مدنا بما يماعدنا
على حل مشكلتنا الاولى والاخيرة وهي تحرير الارض .

لقد كتبت اليك لكي اطلب تدخلك شخصيا لنقنني
الكاملة في مشاركتك وفيهمك لقضيتنا وحمايتك من اجل
حلبا .

ان مشكلة تحرير الارض هي كل شيء في حياتنا
وسلوكتنا وملائتنا وتمرفائنا وان نخوفنا ما نخافه
ان لا يقدّر البعض هذا الامر حق قدره ، فتحل الممرارة
بدلا من الصداقة .

وبعد ذلك ماذا كنتم ترون فيما أوفحت ما يماعد
على تعيم انشر لبرونا ، فان الدكتور عزيز صدقي
رئيس الوزراء على استعداد السفر في زيارة خاصة
للاتحاد السوفيتي في الوقت الذي ترونه مناسباً
للتعميد لمتالنتنا موباراجراء بحث مستفيدين لكل
امور حتى تشتمل علاقتنا في المستقبل على قاعدة
صلبة من الثقة والتعاون العالم على الصراحة
المتبادلة للحايتن مباحنا المشتركة .

أرجو ان تشبهوا ما كان مودني وتديره ،
مع أطيب تمنياتي لكم شخصيا ولزملائكم القادة
السوفيت والشعب السوفيتي العديق .

القاهرة في ١٩٧٢/٨/٣٠

مع التمس

خوحيه صادر الى القائد العام للقوات المسلحة
وزير الحربية الفريق أول احمد اسماعيل على

أولا - عن الوضع المصام

١ - لقد مضت حتى الان اكثر من ست سنوات على
احتلال المار الاسرائيلى لاجزاء من التراب العربى .

٢ - ان اسرائيل مؤيدة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال
امدادات السلاح . . حاولت وحاولت فرض ارادتها
عنها وانها أمة الشرق الاوسط على نحو يتفق
لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وليس
امها ونى سائرنا .

٣ - ان مصر حاولت بكل الوسائل ومخذ صدر قرار وفد
اطلاق النار من مجلس الامن فى ٨ يونيه ١٩٦٧ أن تجد

(يفتح)

- ٢ -

هلا للثمة . . وفى هذا السبيل فقد خضعت وسائلها
من قبول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بقرارها
٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الى قبول جهود الطير جوشار بارشيج ،
ثم جهود الدول الاربعة الكبرى ، ثم جهود قامت
بها القوتان الاعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير
الخارجية الامريكى وليام بوجرد ، حتى تقدمت مباشرة
بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بذاتها
لمراحل انسحاب شامل تطبقها لقرار مجلس الامن .

ولكن كل هذه الجهود لم تصل الى نتيجة ، بل
اما فشلت أو توقفت . . أو حاول اعداؤها الخروج
بها عن مقاصدها .

٤ - ان مصر قامت بمبادرات عسكرية ذات طابع محدود
فى سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعما
كثيرا لحراب المقاومة الفلسطينية لسياسة مطرقات
(يفتح)

فدائية على الخطوط أو داخل الأرض المحتلة .. ولكن هذه العمليات كلها وإن أدت إلى خفافح لـ
أخرها لأنها لأسباب متعددة لم تحمل في خطتها
على العدو إلى الحد اللازم .

٥ - إن مصر كانت حذرًا طويل الوقت أنه سوف يجرى وقت
بعض عملياته أنه أن جعل عمل مخابراتها .. وكان
أهم ما يجب أن نعرف به هو أن سوف لهذا اليوم
كل ما نستطيع .. ولنا حدود طاقاتها .. ومع التزامها
بواجب الدفاع عن التراب والشرف .

٦ - إن الشعب في مصر يعمل بأكثر مما كان يتصور أحد
حزبه وأصدقائه من السواء .. ولقد كانت الأعباء التي
تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، أعباء شديدة
لا يحتملها إلا شعب يرمس بالحرية ويضحي بـ
صحتها .

(ينتج)

٧ - أن تصريحات مهمة طرأت على الموقف السياسي العربي
عموماً وزادت من احتمالات تغييره .. ومع خرابه
أمنية أزمة الطاقة وأزمة الحقد في العالم فإن
الخط العربي في أحوال ملائمة يستطیع أن يكسبون
عاملًا له قيمته .

٨ - أن تأثيرات الموقف العربي العام جعلت بشكل واضح
في أوضاع تطبيعها .. فإس جانب ما حصلنا عليه
من الاعتماد السوفياتي والكتلة الشرقية ، وهو كثير ،
لقد أحييت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح
لم تكن مخفية لنا .

٩ - إن العدو في شبه جزيرة سيناء ، بعد الجهود المصرية
الباذلة في بطن الأمن والديمقراطية العامة للامم
المستعدة ومؤتمرة منظمة الوحدة الانتريقية الأخير في
أديس ابابا ، ومؤتمر الدول غير المنتمية إلى
لذلك في الجزائر .

(ينتج)

١ - ان الموقف الدولي يخبر .. وما زالت مركبته
محصنة .. وقد نجد أنفسنا أمام حواجز طويلة
الاجل حواجز على حرية مركبتنا وعلى حقنا في
التصديق على اتفاقية الهدنة .

ثانيا - من استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلي كما نرى انشغلت سياسته
تقوم على الخدوع والادعاء بخلق لا يستطیع المسرب
جديده .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلي التي تقوم
على المردج الخفيس والسياس والعسكري .

ان نقطة الاساس في نظرية الامن الاسرائيلي هي الوصول
الى الخناق مصر والامة العربية انه لا فائدة من تحدى
اسرائيل ، وبالحال ليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها
حتى وان تضمنت هذه الشروط تنازلات في السيادة الوطنية .
(يتبع)

ثالثا - من استراتيجية مصر في هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجي الذي يتمثل الممثل
السياسي في اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وعلى
اساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعدادات مختلفة
فيما يلي :

تحدى نظرية الامن الاسرائيلي وذلك عن طريق همل
عسكري (يكون هدفه الخناق اكبر قدر من الحدود السياسي
واقناعه انه مواصلة ادائه لواجبه بفرض عليه شمسنا
لا يستطیع دفعه .. وبالحال لان نظريته في الامن - على
اساس الخدوع الخفيس والسياس والعسكري - ليس دوما من
الغولاد بدمية الان او في المستقبل .

واذا استطعنا بنجاح ان تحدى نظرية الامن الاسرائيلي
فان ذلك سوف يودي الى نتائج محققة في المدى القريب
وفي المدى البعيد .

(يتبع)

في المدى القريب : فان حدود نظرية الامم
الاصرائيلية يمكن أن تصل بنا الى حاجات مدققة تجعل
في الامكان ان تصل الى كل مشرف لارمة الشرق الاوسط .
وفي المدى البعيد : فان حدود نظرية الامم
الاصرائيلية يمكن أن يحدث متغيرات تؤدي بالتراكم الى
تغيير اساسي في فكر العدو وناسيته ونزعاشه العدواني .

رابعة - عن الحقوق

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية
ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذي اشرت اليه
في خاتمة من هذا التوجيه .

ان اوضاع الجبهة الداخلية واوضاع الجبهة العربية
تتطلب منا في ذلك التوصل الدقيق على الجبهة الفلسطينية ،
واوضاع المصراع الدولي تتطلبنا من الان حركة مناسبة
للمبدء .

(جميع)

ومع العزلة الدولية للعدو . ومع المصير
الذي يصور منه مجزاعات الانتفاضات الفلسطينية
ومجزاعات الفلسطينيين في ارضهم .
صحيح اننا امامنا .

رئيس الجمهورية
العالمية

المقرر
١٤٩٤ هـ
اول الخريف ١٩٧٥

برقية
 رقم ٢٠ بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٣

السيد الرئيس حافظ الأسد

توجيه إسرائيل من رئيس الحكومة
 والثلاثاء ١٩ / ١٠ / ١٩٧٣

إلى : الرئيس الأسد

وزير الخارجية والثلاثاء ١٩ / ١٠ / ١٩٧٣

- ١- بناء على التوجيهات السياسية والعسكرية الصادرة لكم من قبل أولئك الكبار ١٩٧٣ وبناء على التلويح المبلغة بالوقت السياسي والسياسي :
- ٢- إننا نرى الجهد المبذول في الوقت كجهد رقيق إلى حد كبير في إطار اعتبارات من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣
- ٣- نعلم أنكم أنتم في موقف من هذا الأمر في العلاقات
- ٤- الذي على تحرير الأرض المحتلة من أجل مسألة منبج في سوريا
- ٥- إن يات وقد انقضت السيرة
- ٦- حذرنا من أن نرسله العوان إلى المدة بدمرة أو بالقرار مع
- ٧- التي في المدة السيرة

السيد
 الرئيس
 حافظ الأسد

٩ / ١٠ / ١٩٧٣
 ١٩٧٣

١٩٧٣/١٠/٢٠

فصول الكتاب

الفصل الأول :

من ميت أبو الكوم إلى بحين الأجانب ٩

الفصل الثاني :

نحو تحرير الأرض ٥٢

الفصل الثالث :

نحو تحرير الذات « الزنانة » ٨٣

الفصل الرابع :

العمل من أجل قيام الثورة ١٠٧

الفصل الخامس :

الثوار يحكمون ١٢٩

الفصل السادس :

عجز القوة « مصر في حكم عبد الناصر من يوليو ٥٦ إلى يونيو ٦٧ » ١٥٥

الفصل السابع :

فترة إنتقالية « الكفاح من أجل البقاء » ١٩٥

الفصل الثامن :

الثورة الثانية ٢١٨

الفصل التاسع :

حرب أكتوبر ٢٤٥

الفصل العاشر :

الطريق إلى السلام ٢٨٢

وثائق ٣٢٩

رقم الإيداع ٧٨ / ٢٤٤٥
الترقيم الدول ٩٧٧-٧٠٤٩-٧٠-٦
ISBN